سلسلة دراسات ووثائق من تاريخ دمشق والشام
- ٦ -

دمشق
في دوائر المعارف العربية والعالمية

أحمد غسان سبانو

نشر وتوزيع
دار الكتاب العربي
سورية

المقدمة

تكتسب دمشق اهمية خاصة دون سائر المدن المعمرة وهذه الأهمية لا تقتصر على بلادنا او عالمنا العربي بل يتعدى ذلك الى العالم بشكل عام .

فدمشق من اقدم مدن العالم ان لم نقل اقدمها رغم ان كنوزها الأثرية ما تزال تحت انقاض الماضي وتحت سوية المدينة القديمة الحالية . والمعروف بشكل علمي ودقيق ان ما يخفى من دمشق اعظم بكثير مما عرف . فاين قصرها الشهير واين المدينة الآرامية واليونانية والرومانية ، ولعلي اقول كما قال احد المستشرقين الذين شاركوا في مؤتمر بلاد الشام المنعقد بدمشق وهو اميركي «اني ادعو الله ان يهيىء لدمشق «مترو» فعسى ان تعرف كنوز دمشق المدفونة تحت المدينة الحالية اثناء حفر انفاق المترو» . وللأهمية التي تحظى بها دمشق في العالم من الناحية العمرانية والتاريخية فان هناك اهمية اخرى من الناحية الدينية سواء للأديان السماوية اولأديان العرب قبل الاسلام وللتمازج العقائدي الذي تم في ديانات الغرب والشرق في دمشق قبل الاسلام .

لذلك كتب عن دمشق الكثير ونشر الكثير ورغم ذلك فما زال في تاريخ دمشق الكثير من المعالم المجهولة والأخبار المكتومة والأسرار المودعة في طي النسيان تحت الأنقاض .

وكتابنا هذا يقدم صورة جديدة عن دمشق . يقدم المدينة بما ذكرتها المعاجم ودوائر المعارف والموسوعات العربية والعالمية وقد يظن للوهلة الأولى ان تلك المعلومات متكررة في كل موسوعة الا ان قراءتها يظهر العكس تماما ففي كل موضوع طرافة واتجاه جديد . قد تكرر الموسوعات بعض التواريخ والأحداث الهامة ولكن ذلك لا يشغل حيزا كبيرا من الموضوع .

وبحصيلة القراءة يتكون لدينا معلومات غنية موثقة وطريفة وجميلة . فهي تعكس الأنوار عن معلومات جديدة في كل موسوعة وهي كذلك تبرز اهتمامات تلك الموسوعة في دراستها لمدينة دمشق او تبرز الفترة التي اهتمت بها الموسوعة واخيرا ففي موضوعنا طرافة ومتعة وغنى بالمعلومات مع تدقيق وتمحيص قمت باختيار النصوص العربية وترجمة النصوص الأجنبية راجيا المولى ان اكون قد قدمت شيئا عن دمشق ولدمشق .

احمد غسان سبانو



مخطّط البحث

١ ـ دمشق في كتب البلدانيات العربية

٢ ـ دمشق في دوائر المعارف العربية .

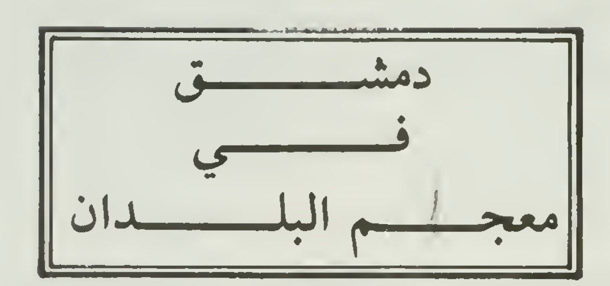
٣ ـ دمشق في دوائر المعارف العالمية



دمشق

في كتب البلدانيات العربية





دمشق في معجم البلدان

دمشق الشام :[1]

بكسر أوله ، وفتح ثانيه ، هكذا رواه الجمهور ، والكسر لغة فيه ، وشين معجمة ، وآخره قاف : البلدة المشهورة قصبة الشام ، وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه ووجود مآرب ، قيل : سميت بذلك لأنهم دَمْشَقوا في بنائها أي أسرعوا ؛ وناقة دمشقة اللحم : خفيفة ؛ قال الزَّفَيانُ :

وصاحبي ذات هباب دمشق

قال صاحب الزيج : دمشق طولها ستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصف ، وهي في الاقليم الثالث ، وقال أهل السير : سمّيت دمشق بدماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح ، عليه السلام ، فهذا قول ابن الكلبي ، وقال في موضع آخر : ولدَ يقطان بن عامر سالف وهم السلف وهو الذي بَنى قصبة دمشق ، وقيل : أول من بناها بيوراسف ، وقيل : بُنيت دمشق على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون إنه سبعة آلاف سنة ، وولد إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، بعد بنائها بخمس

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ص ٤٦٣ ـ ص ٤٧٠

سنين ، وقيل : إن الذي بنى دمشق جَيْرون بن سعد بن عاد بن إرم ابن سام بن نوح ، عليه السلام ، وسماها إرم ذات العماد ، وقيل : إن هوداً ، عليه السلام ، نزل دمشق وأسس الحائط الذي في قبلي جامعها ، وقيل إن العازر غلام إبراهيم ، عليه السلام ، بَنى دمشق وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج ابراهيم من النار ، وكان يسمًّى الغلام دمشق فسماها باسمه ، وكان إبراهيم ، عليه السلام ، قد جعله على كل شيء له ، وسكنها الروم بعد ذلكم ، وقال غير هؤلاء : سميت بدماشق بن نمرود بن كنعان ، وهو الذي بناها ، وكان معه ابراهيم كان دفعه اليه نمرود بعد أن نجَّى الله تعالى إبراهيم من النار ؛ وقال آخرون : سميت بدمشق بن إرم بن سام بن نوح ، عليه السلام ، وهو أخو فلسطين وأيلياء وحمص والأردن ، وبنى كل واحد موضعاً فسمي به ، وقال أهل الثقة من أهل السير : إن آدم ، عليه السلام ، كان ينزل في موضع يعرف الآن ببيت انات وحوَّاء في بيت لهيا وهابيل في مُقرَى ، وكان صاحب غنم ، وقابيل في قنينة ، وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق ، وكان في الموضع الذي يعرف ألآن بباب الساعات عند الجامع صخرة عظيمة يوضع عليها القُربان فما يقبل منه تنزل نارٌ تحرقه وما لا يقبل بقي على حاله ، فكان هابيل قد جاءَ بكبش سمين من غنمه فوضعه على الصخرة فنزلت النار فأحرقته ، وجاءَ قابيل بحنطة من غلّته فوضعها على الصخرة فبقيت على حالها ، فحسد قابيل أخاه وتبعه الى الجبل المعروف بقاسيون المشرف على بقعة دمشق وأراد قتله ، فلم يدر كيف يصنع فأتاه إبليس فأخذ حجراً وجعل يضرب به رأسه فلما رآه أخذ حجراً فضرب به رأس أخيه فقتله على جبل قاسيون ، وأنا رأيت هناك حجراً عليه شيء كالدم يزعم أهل الشام أنه الحجر الذي قتله به ، وأن ذلك الاحمرار الذي عليه أثر دم هابيل ، وبين يديه مغارة تُزار حسنة يقال لها مغارة الدم ، لذلك رأيتُها في لحف الجبل الذي يعرف بجبل قاسيون .

وقد روى بعض الأوائل أن مكان دمشق كان داراً لنوح ، عليه السلام ، ومنشأ خشب السفينة من جبل لُبنان وأنَّ ركوبه في السفينة كان من عين الجرّ من ناحية البقاع ؛ وقد روي عن كعب الأحبار : أن أوّل حائط وُضع ر في الأرض بعد

الطوفان حائط دمشق وحرَّان ، وفي الأخبار القديمة عن شيوخ دمشق الأوائل : أن دار شدَّاد بن عاد بدمشق في سوق التين يفتح بابها شأماً إلى الطريق وأنه كان يزرع له الريحان والورد وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين قنطرة دار بِطِّيخ وقنطرة سوق التين ، وكانت يومئذ سقيفة فوق العمد ؛ وقال أحمد بن الطيب السرخسي : بين بغداد ودمشق مائتان وثلاثون فرسخاً .

وقالوا في قول الله عز وجل : وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ؛ قال : هي دمشق ذات قرار وذات رخاء من العيش وسعة ومعين كثيرة الماء ؛ وقال قتادة في قول الله عز وجل : والتين قال : الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون : الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وطور سينين : شعب حسن ، وهذا البلد الأمين : مكة ، وقيل : إرم ذات العماد دمشق ؛ وقال الأصمعي : جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ونهر بَلْخ ونهر الأُبُلَّة ، وحشوش الدنيا ثلاثة : الأُبُلَّة وسِيراف وعُمان ، وقال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر الأديب : جنان الدنيا أربع :

غوطة دمشق وصُغْد سمرقند وشعب بَوَّان وجزيرة الأُبُلَّة ، وقد رأيتُها كلها وأفضلُها دمشق ؛ وفي الأخبار : إن إبراهيم ، عليه السلام ، وُلد في غوطة دمشق في قرية يقال لها بَرْزَة في جبل قاسيون ؛ وعن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : إنَّ عيسى ، عليه السلام ، ينزل عند المنارة البيضاء من شرقي دمشق ، ويقال : إن المواضع الشريفة بدمشق التي يستجاب فيها الدعاء مغارة الدم في جبل قاسيون ، وقال : إنها كانت مأوى الأنبياء ومصلاًهم ، والمغارة التي في جبل النَّيرب يقال : إنها كانت مأوى عيسى ، عليه السلام ، ومسجدا إبراهيم ، عليه السلام ، أحدهما في الأشعريِّين والآخر في بَرْزَة ، ومسجد القديم عند القطيعة ، ويقال : ان هنا قبر موسى ، عليه السلام ، ومسجد باب الشرقي الذي قال النبي ، صلى الله عليه وسلم : إن عيسى ، عليه السلام ، ينزل فيه ، والمسجد الصغير الذي خلف جَيْرُون يقال إنَّ يحيى بن زكرياء ، عليه السلام ، قُتل هناك ، والحائط القبلي من الجامع يقال إنه بناه هود ، عليه السلام ؛ وبها من قبور الصحابة ودورهم المشهورة بهم ما ليس في غيره من البلدان ، وهي معروفة الى الآن .

قال المؤلف : ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار وجريان الماء في قنواتها ، فقلَّ أن تَمُرَّ بحائط إلا والماءُ يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشرَب منه ويستقي الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسحُّ في ميضأةٍ ، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها، ولها ربض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه ، وهي في أرض مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة ، وبها جبل قاسيون ليس في موضع من المواضع أكثر من ا لعبَّاد الـذين فيه، وبها مغاور كثيرةوكهوف وآثار للأنبياء والصالحين لا توجد في غيرها، وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حرَّان وما يقارب ذلك فتَعُمُّ الكل ؛ وقد وصفها الشعراء فأكثروا ، وأنا أذكر من ذلك نبذة يسرة ؛ وأما جامعها فهو الذي يضرب به المثل في حسنه ، وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيءٍ إلا وفي دمشق مثله ، ومن المحال أن يُطلب بها شيءٌ من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد ، وفتحها المسلمون في رجب سنة ١٤ بعد حصار ومنازلة ، وكان قد نزل على كلّ باب من أبوابها أمير من المسلمين فصدمهم خالد بن الوليد من الباب الشرقي حتى افتتحها عنوة ، فأسرعَ أهل البلد إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح ويزيد بن أبي سفيان وشُرَحبيل بن حسنَةَ ، وكان كل واحد منهم على ربع من الجيش ، فسألوهم الأمان فأمنوهم وفتحوا لهم الباب ، فدخل هؤلاء من ثلاثة أبواب بالأمان ، ودخل خالد من الباب الشرقي بالقهر ، وملكوهم وكتبوا الى عمر ابن الخطاب ، رضي الله عنه ، بالخبر وكيف جرى الفتح ، فأجراها كلها صلحاً .

وأما جامعها فقد وصفه بعض أهل دمشق فقال : هو جامع المحاسن كامل الغرائب معدود إحدى العجائب ، قد زُوِّرَ بعض فرشه بالرخام وأُلِّفَ على أحسن تركيب ونظام ، وفوق ذلك فَصٌّ أقداره متفقة وصنعته مؤتلفة ، بساطه يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً ، وهو منزه عن صور الحيوان إلى صنوف النبات وفنون الأغصان لكنها لا تجنى الا بالأبصار ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار بل باقية على طول الزمان مدركة بالعيان في كل أوان ، لا يمسها عطش مع فقدان

القطر ولا يعتريها ذبول مع تصاريف الدهر ؛ وقالوا : عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ومنارة الإسكندرية وكنيسة الرُّها ومسجد دمشق ، وكان قد بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان ذا همّة في عمارة المساجد ، وكان الابتداء بعمارته في سنة ٨٧ ، وقيل سنة ٨٨ ، ولما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : إنّا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم ، يعني كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وإن شئتم أضعفنا لكم الثمن ، فأبوا وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد وقالوا : إنّا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خُنِقَ ، فقال لهم الوليد : فأنا أول من يهدمها ، فقام عليه قَبَاءٌ أصفر فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراده واحتفل في بنائه بغاية ما أمكنه وسهل عليه إخراج الأموال وعمل له أربعة أبواب : في شرقيه باب جَيرون وفي غربيه باب البريد وفي القبلة باب الزيادة وباب الناطفين مقابله وباب الفراديس في دبر القبلة ؛ وذكر غَيث بن علي الأرمنازي في كتاب دمشق على ما حدثني به الصاحب جمال الدين الأكرم أبو الحسن بن يوسف الشيباني ، أدام الله أيامه :

أن الوليد أمر أن يستقصى في حفر أساس حيطان الجامع ، فبينما هم يحفرون إذ وجدوا حائطاً مبنياً على سمت الحفر سواء فأخبروا الوليد بذلك وعرّفوه إحكام الحائط واستأذنوه في البنيان فوقه ، فقال : لا أحب إلا الإحكام واليقين فيه ولست أثق بإحكام هذا الحائط حتى تحفروا في وجهه إلى أن تدركوا الماء فإن كان مجماً مرضياً فابنوا عليه وإلا استأنفوه ، فحفروا في وجه الحائط فوجدوا باباً وعليه بلاطة من حجر مانع وعليها منقور كتابة ، فاجتهدوا في قراءتها حتى ظفروا بمن عرّفهم أنه من خط اليونان وأن معنى تلك الكتابة ما صورته : لما كان العالم محدثاً لاتصال أمارات الحدوث به وجب أن يكون له محدث لهؤلاء كما قال ذو السنين وذو اللحيين فوجدت عبادة خالق المخلوقات حينئذ أمر بعمارة هذا الهيكل من صلب ماله محبّ الخير على مضي سبعة آلاف وتسعمائة عام لأهل الأسطوان فإن رأي الداخل إليه ذكر بانيه بخير فعل والسلام؛ وأَهل الأُسطوان : قوم من الحكماء الأُوَل كانوا ببعلبك ، حكى ذلك أحمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف ؛ ويقال : إن الوليد أنفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين وحملت إليه الحسبانات بما أنفق عليه على ثمانية عشر بعيراً

فأمر بإحراقها ولم ينظر فيها وقال : هو شيء أخرجناه لله فلم نتبعه ؛ ومن عجائبه أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صنائعه واختلافها ؛ وحكي أنه بلغ ثمن البقل الذي أكله الصنّاع فيه ستة آلاف دينار ، وضج الناس ا استعظاماً لما أنفق فيه وقالوا : أخذ بيوت أموال المسلمين وأنفقها فيما لا فائدة لهم فيه ، قال : فخاطبهم وقال بلغني أنكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاءً ثماني عشرة سنة اذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح ، فسكت الناس ، وقيل : إنه عمل في تسع سنين ، وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يوم يقطعون الرخام ، وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب ، فلما فرغ أمر الوليد أن يسقّف بالرصاص فطلب من كل البلاد وبقيت قطعة منه لم يوجد لها رصاص إلا عند امرأة وأبت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً فقال : اشتروه منها ولو بوزنه مرتين ، ففعلوا فلما قبضت الثمن قالت : إني ظننت أن صاحبكم ظالم في بنائه هذا ، فلما رأيت إنصافه فأشهدكم أنه لله ! وردّت الثمن ، فلما بلغ ذلك إلى الوليد أمر أن يكتب على صفائح المرأة لله ولم يدخله فيما كُتب عليه اسمه ، وأنفق على الكرمة التي في قبلته سبعين ألف دينار ، وقال موسى بن حمّاد البربري : رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفوراً سورة : ألهاكم التكاثر إلى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف التي في قوله تعالى : حتى زرتم المقابر ؛ فسألت عن ذلك : فقيل لي إنه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها فماتت فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت في قاف المقابر من : ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت .

وحكى الجاحظ في كتاب البُلدان قال : قال بعض السلف ما يجوز أن يكون أحد أشدَّ شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق لما يرَوْنه من حسن مسجدهم ، وهو مبنيٌ على الأعمدة والرخام طبقتين ، الطبقة التحتانية أعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كلّ مدينة وشجرة في الدنيا بالفُسَيفساء الذهب والأخضر والأصفر ، وفي قبليّه القُبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها ، ولها ثلاث منائر إحداها ، وهي الكبرى ، كانت ديدباناً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرّت منارة ، ويقال في الأخبار : إن عيسى ، عليه السلام ،

ينزل من السماء عليها ، ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبْهر بالحسن والتنميق إلى أن وقع فيه حريق في سنة ٤٦١ فأذهب بعض بهجته ، وهذا ما كان في صفته ، قال أبو المطاع بن حمدان في وصف دمشق :

سَقى الله أرض الغُوطتين وأهلها ، فلي بجنوب الغوطتين شُجُونُ
وما ذقتُ طعمَ الماءِ إلاَّ استخفني إلى بَرَدَى والنَّيرَبَين حَنين
وقد كان شكّي في الفراق يروعُني ، فكيف أكون اليوم وهو يقين ؟
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم ، ولكنَّ ما يُقضى فسوف يكون

وقال الصنَوْبري :

صَفَتْ دُنيا دمشق لقاطِنيها ، فلستَ ترى بغير دمشق دُنيا
تفيض جداولُ البِلَّور فيها خلال حدائق يُنبتنَ وَشْيَا
مكللة فواكهُهنَّ أبهى الـ ـمناظر في مناظرنا وأهيا
فمن تُفاحة لم تَعْدُ خدًّا ، ومن أُترُجَّة لم تعدُ ثديا

وقال البحتري :

أما دمشق فقد أبدت محاسنَها ، وقد وفى لك مُطريها بما وعدا
إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلد مستحسَن وزمان يشبه البلدا
يُمسي السحابُ على أجبالها فرقاً ، ويُصبح النبتُ في صحرائها بَددا
فلستَ تُبصرُ إلا واكفاً خَضِلاً ، أو يانعاً خَضِراً أو طائراً غَرِدَا
كأنما القيظُ ولَّى بعدَ جيئته ، أو الربيع دنا من بعد ما بَعُدَا

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسين بن النَّقَّار يمدح دمشق :

سقى الله ما تحوي دمشقُ وحيَّاها ، فما أطيبَ اللذات فيها وأهناها !
نزَلنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ، ونِلنا بها من صفوة اللَّهو أعلاها
وكم ليلة نادمت بدرَ تمامها تَقضَّتْ ، وما أبقت لنا غير ذكراها
فآهاً على ذاك الزمان وطيبه ، وقلَّ له من بعده قولتي واها !

فيا صاحبي إمّا حملت رسالة
إلى دار أحباب لها طاب مغناها
وقُلْ ذلك الوَجْدُ المبرِّح ثابتٌ ،

وحُرمة أيام الصِّبا ما أضعناها
فإن كانت الأيامُ أنست عهودنا ،
فلَسنا على طول المدى نتناساها
سلام على تلك المعاهد ، إنها
محَطُّ صبابات النفوس ومثواها
رعى الله أياماً تقَضَّت بقربها ،
فما كان أحلاها لدَيناَ وأمراها !

وقال آخر في ذمّ دمشق :

إذا فاخروا قالوا مياه غزيرة
عِذاب ، وللظامي سُلامٌ مورَّقُ
وقد قال قومٌ جنة الجلد جِلَّقٌ ،
وقد كذبوا في ذا المقال ومَخرَقوا
فما هي إلا بلدة جاهليَّة ،
بها تكسُدُ الخيرات والفستق يَنفُقُ
فحسبهم جَيرون فخراً وزينةً ،
ورأسَ ابن بنت المصطفى فيه علَّقوا

قال : ولما وليَ عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، قال : إني أرى في أموال مسجد دمشق كثرة قد أنفقت في غير حقها فأنا مستدرك ما استدركت منها فردت الى بيت المال ، انزع هذا الرخام والفُسيفساء وانزع هذه السلاسل واصير بدلها حبالاً ، فاشتد ذلك على اهل دمشق حتى وردت عشرة رجال من ملك الروم الى دمشق فسألوا ان يؤذن لهم في دخول المسجد ، فأذن لهم أن يدخلوا من باب البريد ،فوكل بهم رجلاً يعرف لغتهم ويستمع كلامهم وينهي قولهم الى عمر من

حيث لا يعملون ، فمروا في الصحن حتى استقبلوا القبلة فرفعوا في الصحن حتى استقبلوا القبلة فرفعوا رؤوسهم الى المسجد فنكس رئيسُهم رأسه واصفرّ لونه ، فقالوا له في ذلك فقال : إنّا كُنّا معاشر أهل روميَة نتحدث أن بقاء العرب قليل فلما رأيتُ ما بنوا علمتُ أن لهم مدّة لابدّ ان يبلغوها ، فلما أخبر عمر بن عبد العزيز بذلك قال : إني أرى مسجدكم هذا غَيْظاً على الكفار ، وتركَ ما همّ به ، وقد كان رَصّعَ محرابه بالجواهر الثمينة وعلّق عليه قناديل الذهب والفضة .

وبدمشق من الصحابة والتابعين وأهل الخير والصلاح الذين يزارون في ميدان الحصى ، وفي قبلي دمشق قبر يزعمون انه قبر أنَّ عاتكة أخت عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وعنده قبر يروون انه قبر صُهيب الرومي وأخيه ، والمأثور ان صُهيباً بالمدينة ، وأيضاً بها مشهد التاريخ في قبلته قبرٌ مسقوفٌ بنصفين وله خبر مع عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وفي قبلي الباب الصغير قبر بلال بن حمامة وكعب الأحبار وثلاث من أزواج النبي ﷺ ، وقبر فضّة جارية فاطمة ، رضي الله عنها ، وأبي الدرداء وأمّ الدرداء وفُضالة بن عبيد وسهل بن الحنظليّة وواثلة ابن الأسقع وأوس بن أوس الثقفي وأمّ الحسن بنت جعفر الصادق ، رضي الله عنه ، وعليّ بن عبد الله بن العباس وسلمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس وزوجته أم الحسن بنت عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وخديجة بنت زين العابدين وسُكَيْنَة بنت الحسين ، والصحيح انها بالمدينة ، ومحمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب، وبالجابية قبر أوَيس القرني ، وقد زرناه بالرَّقّة ، وله مشهد بالاسكندرية وبديار بكر والأشهر الأعرف انه بالرقة لأنه قُتل فيما يزعمون مع عليّ بصِفّين ، ومن شرقي البلد قبر عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب ، وهذه القبور هكذا يزعمون فيها ، والأصحُّ الأعرف الذي دلّت عليه الأخبار ان اكثر هؤلاء بالمدينة مشهورة قبورهم هناك ، وكان بها من الصحابة والتابعين جماعة غير هؤلاء ، قيل إن قبورهم حُرثت وزُرعت في أول دولة بني العباس نحو مائة سنة فدرسَت قبورهم فادّعى هؤلاء عوضاً عما درس ؛ وفي باب الفراديس مشهد الحسين بن عليّ ، رضي الله عنهما ، وبظاهر المدينة عند مشهد الخضر قبر محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن حعفر الصادق ، رضي الله عنه ، وبدمشق عمود

العُسْر في العليين يزعمون انهم قد خرَّبوه وعمود آخر عند الباب الصغير في مسجد يزار ويُنْذَر له ، وبالجامع من شرقيه مسجد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ومشهد عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ومشهد الحسين وزين العابدين ، وبالجامع مقصورة الصحابة وزاوية الخضر ، وبالجامع رأس يحيى بن زكرياء ، عليه السلام ، ومصحف عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، قالوا انه خطة بيده ، ويقولون ان قبر هود ، عليه السلام ، في الحائط القبلي ، والمأثور انه بحضرمَوْت ، وتحت قُبة النسر عمودان مُجزَّعان زعموا أنهما من عرش بلْقِيس ، والله اعلم ، والمنارة الغربية بالجامع هي التي تَعبَّدَ فيها ابو حامد الغزَّالي وابن تُومَرْت ملك الغرب ، قيل إنها كانت هيكل النار وإن ذؤابة النار تطلع منها ، وسجد لها أهل حَوْران ، والمنارة الشرقية يقال لها المنارة البيضاءُ التي ورد ان عيسى بن مريم ، عليه السلام ، ينزل عليها ، وبها حجر يزعمون انه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى بن عمران ، عليه السلام ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، ويقال إن المنارة التي ينزل عندها عيسى ، عليه السلام ، هي التي عند كنيسة مريم بدمشق ، وبالجامع قبة بيت المال الغربية يقال إن فيها قبر عائشة ، رضي الله عنها ، والصحيح ان قبرها بالبقيع ، وعلى باب الجامع المعروف بباب الزيادة قطعة رُمح معلَّقة يزعمون انها من رمح خالد ابن الوليد ، رضي الله عنه ، وبدمشق قبر العبد الصالح محمود بن زنكي ملك الشام وكذلك قبر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالكلاسة في الجامع .

واما المسافات بين دمشق وما يجاورها فمنها الى بَعلبكَّ يومان والى طرابلس ثلاثة ايام والى بيروت ثلاثة ايام والى صيدا ثلاثة ايام والى أذرعات اربعة ايام والى اقصى الغوطة يوم واحد والى حوران والبَثَنِيَّة يومان والى حمص خمسة أيام وإلى حماة ستة أيام وإلى القدس ستة ايام وإلى مصر ثمانية عشر يوماً والى غزَّة ثمانية أيام والى عَكا أربعة أيام وإلى صور أربعة أيام والى حلب عشرة أيام ؛ وممن ينسب اليها من أعيان المحدِّثين عبد العزيز بن أحمد ابن محمد بن سلمان بن إبراهيم بن عبد العزيز أبو محمد التميمي الدمشقي الكناني الصوفي الحافظ ، سمع الكثير وكتب الكثير ورحل في طلب الحديث ، وسمع بدمشق أبا القاسم صدقة بن محمد بن محمد القرشي وتمَّام بن محمد وأبا محمد بن أبي نصر وأبا نصر محمد بن أحمد بن هارون

الجندي وعبد الوهاب ابن عبد الله بن عمر المُرّي وأبا الحسين عبد الوهاب ابن جعفر الميداني وغيرهم ، ورحل الى العراق فسمع محمد بن مخلّد وأبا عليّ بن شاذان وخلقاً سواهم ، ونسخ بالموصل ونصيبين ومَنبج كثيراً ، وجمع جموعاً ، وروى عنه أبو بكر الخطيب وأبو نصر الحميدي وابو القاسم النسيب وابو محمد الأكفاني وأبو قاسم بن السمرقندي وغيرهم ، وكان ثقة صدوقاً ، قال ابن الأكفاني : ولد شيخنا عبد العزيز بن الكناني في رجب سنة ٣٨٩ ، وبدأ بسماع الحديث في سنة ٤٠٧ ، ومات في سنة ٤٦٦ ، وقد خرّج عنه الخطيب في عامّة مصنفاته ، وهو يقول : حدثني عبد العزيز بن أبي طاهر الصوفي ؛ وابو زرعة عبد الرحمن ابن عمرو بن عبد الله بن صفوان بن عمرو البصري الدمشقي الحافظ المشهور شيخ الشام في وقته، رحل وروى عن أبي نُعيم وعفان ويحيى بن معين وخلق لا يُحصون ، وروى عنه من الأئمة ابو داود السجستاني وابنه ابو بكر بن أبي داود وابو القاسم بن أبي العقب الدمشقي وعبدان الاوزاعي ويعقوب بن سفيان الفَسَوي ، ومات سنة ٢٨١ ؛ وينسب اليها من لا يُحصى من المسلمين ، وألّف لها الحافظ ابن عساكر تاريخاً مشهوراً في ثمانين مجلدة ، وممن اشتهر بذلك فلا يعرف الا بالدمشقي ، يوسف بن رمضان بن بندار ابو المحاسن الدمشقي الفقيه الشافعي ، كان أبوه قُرْقُوبيًّا من أهل مراغة ، وولد يوسف بدمشق وخرج منها بعد البلوغ الى بغداد ، وصحب اسعد الميهني واعاد له بعض دروسه ، ثم وليَ تدريس النظامية ببغداد مُدَّة وبُنيت له مدرسة بباب الأزج ، وكان يذكر فيها الدرس ، ومدرسة اخرى عند الطُّيوريّين ورحبة الجامع ، وانتهت اليه رياسة اصحاب الشافعي ببغداد في وقته ، وحدث بشيء يسير عن أبي البركات هبة الله بن أحمد البخاري وأبي سعد اسماعيل بن أبي صالح ، وعقد مجلس التذكير ببغداد ، وأرسله المستنجد الى شِمْلَةَ أمير الاشتر من قُهستان ، فأدركَتْه وفاته وهو في الرسالة في السادس والعشرين من شوال سنة ٥٦٣ .





دمشق

في

الروض المعطار في خبر الاقطار



دمشق[1] : هي قاعدة الشام ودار بني أميّة ، سمِّيَتْ باسم صاحبها الذي بناها وهو دمشق بن قاني بن مالك بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وقيل سميت بدماشق بن نمرود بن كنعان ، قال عياض : هي بكسر الدال وفتح الميم ، ومنهم من يكسر الميم . وهي ذات العماد في قول عوف بن خالد وعكرمة وغيرهما ، وقيل غير ذلك . قال مؤرخو أخبار العجم : في شهر ايار بني دمشوش الملك مدينة جلق ، وهي مدينة دمشق وحفر نهرها بردى ونقره في الجبل حتى جرى الى المدينة .

وحكي ان دمشق كانت دار نوح ، ومن جبل لبنان كان مبدأ السفينة ، واستوت على الجودي قبل قردى ؛ ولما كثر ولده نزلوا بابل السواد في ملك نمرود بن كوش اول ملك كان في الارض .

وسور دمشق تراب ، ولها أربعة ابواب : الباب الغربي وهو باب الجابية ، والباب الجنوبي[2] ويسمى باب توما ويقال له اليوم باب المصادمة(؟) ، والباب الشرقي وهو باب الغوطة ، ومن الباب الشرقي دخل خالد بن الوليد ومنه فتح دمشق ، والباب الشمالي هو باب الفراديس وهو باب كيسان[3] ، ونهرها يحيط بمدينتها من كل ناحية حتى يلتقي من جهة الغوطة ، وفي باب توما اربعة انهار : نهر برزة ونهر ثورا[4] ونهر يزيد ونهر القناة ، وتسير في مدينة دمشق حتى تنتهي الى باب الفراديس مقدار ميل الى عين حران ، وهي ثلاث ديارات ، وقصر ابن طولون الى جانبه ، ومما يلي الباب الغربي وهو باب الجابي المصلى ، وتسير من المدينة في بساتين

---

(١) اعتمد المؤلف في أكثر هذه المادة على رحلة ابن جبير : ٢٦٠ -٢٨٩ ، وقارن بياقوت (دمشق) ، والمجلدين الأولين من تاريخ ابن عساكر ، والأعلاق الخطيرة (الجزء الخاص بدمشق) - والمقدسي : ١٥٦ ، واليعقوبي : ٣٢٥ ، والكرخي : ٤٥ - وابن حوقل : ١٦٠ ، وابن الفقيه : ١٠٤ ، وابن بطوطة : ٨٤ ، ومسالك الأبصار ١ :١٧٨ ، وصبح الأعشى ٩٦ .

(٢) عند ابن عساكر وغيره أن باب توما شمالي .

(٣) صحيح أن باب الفراديس شمالي ، ولكن باب كيسان غير باب الفراديس وهو أي باب كيسان قبلي شرقي ، وكيسان المنسوب اليه هو مولى بشر بن عبادة الكلبي ، ويقول ابن عساكر : «وهو الآن مسدود» (٢ : ١٨٥) .

(٤) ص ع : بوران .

الى باب صغير وعليه خمس صوامع للرهبان . وفي سور دمشق فتح كالأبواب تدخل منها الأنهار الى المدينة وهي تجري داخل المدينة وتخرق دُورها واسواقها ، والأسواق كلها مسقفة على هيئة سقوف المسجد الجامع بها ، وارضها مفروشة .

ومسجد جامعها بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين ، وهو داخل المدينة ، وليس[1] على وجه الأرض مثله بناء ولا أحسن صفة ولاأتقن إحكاماً ولا ابدع منع تلميعاً بأنواع الفصوص المذهبة والآجر المحكوك والمرمر المصقول ، فمن جاء من ناحية باب جيرون صعد اليه في درج رخام نحواً من ثلاثين درجة ، ومن قصده من ناحية باب البريد والقبة الخضراء وباب الفراديس كان مدخله مع الأرض بغير درج . ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا يدخله الطائر المعروف بالخطاف ، وفيه آثار عجيبة منها الخزان[2] ، والقبة التي فوق المحراب عند المقصورة يقال إنها من بناء الصابئة ، وكان مصلاهم بها، ثم صار في ابدي اليونانيين فكانوا يعظمون فيه دينهم ثم صار بعدهم لعباد الاوثان ، فكان موضعاً لاصنامهم ، ثم انتقل الى اليهود فقتل في ذلك الزمان يحيى بن زكريا فنصب رأسه على باب المسجد المسمى بباب جيرون ، ثم تغلب عليه النصاري فحولته بيعة يقيمون بها دينهم ، ثم افتتحها المسلمون فاتخذوه جامعاً ، فلما كان في ايام الوليد بن عبد الملك ابن مروان جعل ارضه رخاماً ومعاقد رؤ وس اساطينه ذهباً ومحرابه مذهباً وسائر حيطانه مرصعة بأشباه الجوهر ، والسقف كله مكتب بأحسن صنعة وابدع تنميق ، وانفق في هذا المسجد خراج الشام كله سنتين .

وكان[3] بعث الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثني عشر ألف صانع من جميع بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه ، فامتثل أمره مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك ، فشرع في بنائه وبلغ الغاية في التأنق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص الفسيفساء وخلطت بأنواع من الأصبغة الغريبة وقد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع من الأصبغة الغريبة ،

(١) عن نزهة المشتاق : ١٦٦ .

(٢) نزهة المشتاق : الحجران .

(٣) عن ابن جبير : ٢٦١ .

فجاء يعشي العيون وميضا ، وكان مبلغ النفقة حسبما ذكره ابن المعلى الأسدي[1] في بنيانه أربعمائة صندوق ، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف دينار ومائتي ألف دينار . والوليد هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه لأنه كان قسمين ، قسماً للمسلمين وقسماً للنصارى ، وهو الغربي ، لأن أبا عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية فانتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، ودخل خالد ابن الوليد رضي الله عنه عنوة من الجهة الشرقية وانتهى الى النصف الثاني وهو الشرقي ، فاختاره المسلمون وصيروه مسجدا ، وبقي النصف المصالح عليه وهو الغربي كنيسة بأيدي النصارى الى ان عوضهم منه الوليد فأبوا ذلك فانتزعه من أيديهم قسرا وطلع لهذا بنفسه ، وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يجن ، فبادر الوليد وقال : أنا أول من يجن في الله تعالى ، وبدأ بالهدم بيده فبادر المسلمون هدمه ، واستعدوا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أيام خلافته وأخرجوا العهود التي بأيديهم من الصحابة رضي الله عنهم في إبقائه عليهم فهم بصرفه اليهم فأشفق المسلمون من ذلك ، ثم عوّضهم من ذلك بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه . ويقال أن أول من وضع جداره القبلي هود عليه السلام ، وفي أثر أنه يُعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة ، وذرعه في الطول من المشرق الى المغرب مائتا خطوة وهما ثلثمائة ذراع ، وعرضه من القبلة الى الشمال مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع ، فيكون تكسيره من المراجع أربعة وعشرين مرجعا ، وهو تكسير مسجد رسول الله ﷺ ، غير أن الطول في مسجد رسول الله ﷺ من القبلة الى الشمال ، وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق الى المغرب ، سعة كل بلاطة ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف ، وقد قامت على ثمانية وستين عمودا ، منها اربع وخمسون سارية وثماني[2] أرجل جصية واثنتان مرخمة ملتصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن ، وأربع[3] أرجل مرخمة أبدع

(١) ص ع : الآمدي .

(٢) ص ع : وثمانية .

(٣) ص ع : وأربعة .

ترخيم مرصعة بفصوص الرخام ملونة قد نظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالا غريبة قائمة في البلاط الأوسط ، دور كل رجل منها اثنان وسبعون شبرا ، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهات : الشرقية والغربية والشمالية ، وسعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع ، وعدد شمسيات الجامع الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون .

وفي الجامع ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضي الله عنهم وهي مقصورة معاوية رضي الله عنه ، هو أول من وضعها وبازاء محرابها باب حديد كان يدخل منه معاوية الى المقصورة ، وبازاء محرابها مصلىّ أبي الدراء رضي الله عنه وخلفها كانت دار معاوية رضي الله عنه ، وهو اليوم سماط عظيم للصفارين بطول جدار الجامع القبلي[1] .

وفي الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة . وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون بابا قد علتها قسّي جصية كلها مخرمة على شبه الشمسيّات .

وللجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، وبها كان مُعتكَف أبي حامد الغزالي ، [وثانية بالجانب الغربي] ، وثالثة[2] بالجانب الشمالي . وللجامع مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على الثمانية آلاف دينار في السنة .

وكان هذا الجامع ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص المذهبة مزخرفاً بأبدع زخارف البناء فأدركه الحريق مرتين فتهدّم وجدد وذهبَ أكثر رخامه واستحال رونقه . ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهباً كله قد قامت في وسطه محاريب صغار ، وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في صفّ المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف عثمان الذي وجه به إلى الشام ، وتفتح

---

(١) أغفل ذكر المقصورتين الاخريين ، انظر ابن جبير : ٢٦٥ .

(٢) ص ع : دباقيها .

الخزانة كل جمعة إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ، ويكثر الزحام عليه . وهناك مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم نقل إلى القاهرة .

وعن يمين الخارج من باب جيرون غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر وقد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار سقطت صنجتان من صفر من فمي بازيين مصوّرين من صفر قائمين على طاس صفر تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان . ويستدير بالجامع أربع سقايات في كل جانب سقاية ، واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت والماء يجري في كل بيت ، وإحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها ، فيها من البيوت نيف على ثلاثين ، والبلد كله سقايات قل ما تخلو سكة من سككه او سوق من أسواقه من سقاية .

قالوا : ورأس يحيى بن زكريا عليهما السلام مدفون بالجامع في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة الى الاسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوّف كالقدح الكبير .

وفي الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ منه غار مستطيل ضيق قد بني عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة ، وعليه صومعة عالية ، ومن ذلك الغار رأى ابراهيم الخيلي عليه السلام الكوكب ثم القمر ثم الشمس حسبما ذلك مذكور في الكتاب العزيز ، ذكر ذلك ابن عساكر ، وهناك مغارة صلىّ فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب صلوات الله وسلامه عليهم . ولكل مشهد من تلك المشاهد أوقاف معينة . وهناك الربوة المباركة التي أوى اليها المسيح عليه السلام وأُمّه ، وهناك بيت يُقال إنه مصلىّ الخضر ، وهذه الربوة رأس بساتين البلد ومنها ينقسم الماء على سبعة انهار ، ولهذه الربوة أوقاف من بساتين وأرض بيضاء .

وبغربي البلد جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين ، فمنها قبر أبي الدرداء وزوجته أُمّ الدرداء رضي الله عنهما ،

وفضالة بن عبيد ، وسهل ابن الحنظلية ، ومعاوية بن أبي سفيان وأُخته أمّ المؤمنين أمّ حبيبة ، وواثلة بن الأسقع ، وبلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ، وأويس القرني ، وخلفاء بني أُمية رضي الله عنهم .

ولدمشق ثمانية أبواب : باب شرقي ، وهو شرقي [المدينة] وفيه منارة بيضاء يقال إن عيسى عليه السلام ينزل فيها كما جاء في الأثر أنه ينزل في المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويلي هذا الباب باب توما ، ثم باب السلامة ، ثم باب الفراديس ، ثم باب الفرج ، ثم باب النصر ، ثم باب الجابية ، ثم باب الصغير . والأرباض تطيف بالبلد كله إلا من جهة الشرق مع ما يتصل بالقبلة يسيراً وله أرباض كثيرة ، والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول ، وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن كبير تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي بأيدي الروم لا اعتراض عليهم فيها .

وبالبلد نحو عشرين مدرسة ومارستانان ، أحدهما جاريه في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قَوَمة برسم المرضى والنفقة التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية ، والأطباء يبكرون إليه كل يوم ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية ، وفيه مجانين معتقلون لهم ما يخصهم من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ، نعوذ بالله من البلاء ، ومن اغراب أحاديثهم أن رجلاً كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه صبي من أهل البلد اسمه نصر الله هام به المعلم وزاد كلفه به حتى اختل عقله وأوى المارستان ، واشتهرت عُلّته وفضيحته بالصبي ، فقيل له : اخرج وعُدْ إلى ما كنت عليه من القرآن ، فقال متماجناً : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى : ﴿إذا جاءَ نَصْرُ الله والفَتْحُ﴾ فضحك منه ، نسأل الله العافية ، وما زال هناك حتى مات ، لطف الله به .

وأما رباطات الصوفية التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي قصور مزخرفة ، في جميعها الماء يطرد . وهناك ديار موقوفة لقراءة كتاب الله تعالى يسكنونها ، ومرافق الغرباء أكثر في البلد من أن تحصى لا سيما لحفّاظ كتاب الله تعالى والمنتمين للطلب . وبهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية وهي بازاء باب الفرج ، وبها جامع السلطان . وبهذه البلدة قرب مائة حمّام ، وفي أرباضها نحو أربعين داراً

للوضوء يجري الماء فيها كلها ، وهي أحسن البلاد للغريب لكثرة المرافق ، وأسواقها أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً ولا سيما قيساريتها .

وأهل دمشق يمشون أمام الجنازة بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية برفيع اصواتهم ، وكلهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة ، والمحتشم منهم من يسحب أذياله على الأرض ويضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، ويستعملون المصافحة اثر الصلوات لا سيما إثر صلاة الصبح وصلاة العصر .

ودمشق[1] جامعة لصنوف المحاسن وضروب الصناعات وأنواع الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس ويتجهز به الى جملة الآفاق ، وفي داخل دمشق على أوديتها أرحاء كثيرة جدا ، وفيها من الحلاوات ما لا يوجد بغيرها ، وأهلها في خصب أبداً ، وفي أعز البلاد الشامية وأكملها حسناً .

وكان الوليد فرش داخل المدينة بالرخام الأبيض الختم باللازورد تختيما متداخلاً من أصل الحلقة ، وحيطان المسجد بالفسيفساء وسقفه لا خشب فيه وهو مذهب كله ، وله ثلاث منارات : المنارة الواحدة التي في مؤخر المسجد [واثنتان في غربه وشماله ؛ والمسجد] مذهب كله من أعلاه الى أسفله ذهباً وفسيفساء ، وفي صحن المسجد قبة قد أحكمت صنعتها واتقنت أشد الاتقان ، فيها فوارة من نحاس محكمة العمل يفور منها الماء ويرتفع نحو القامة ثم ينزل في حوض رخام بديع ويستدير بهذه القبة شباك من حديد ، وسطح الفوارة فسيفساء فيه صور غزلان وغيرها من الحيوان ، فإذا أشرفت على الفوارة وهي مملوءة ماء رأيت منظراً أنيقاً . وعند الباب الشرقي من المسجد قبة في أعلاها قناة رصاص ولها أنابيب من نحاس قد أخرجت من حدود القبة توقد فيها السُّرُج ، وفي حيطان المسجد قناة للماء بأقفال ينزل ماؤها في حياض رخام في وسط كل حوض عمود من نحاس يندفع منه الماء مرتفعاً علواً ، وفي أعلى مسجد دمشق قبة خضراء مشرفة جداً ، وجبانة دمشق في الجنوب منها ، يكون طولها ميلاً في مثله .

---

(١) عاد للنقل عن نزهة المشتاق : ١١٦ .

قالوا(١) : ومرّ الوليد بن عبد الملك حين بنى مسجد دمشق برجل ممن يعمل في المسجد وهو يبكي ، فقال : ما قصتك ؟ قال :

يا أمير المؤمنين كنتُ رجلاً جمّالاً فلقيني رجُلٌ فقال : أتحملني إلى مكان كذا وكذا ، موضعاً في البرية ، قلت : نعم ، فلمّا حملته وسرنا بعض الطريق التفت إليّ فقال لي : إن بلغنا الموضع الذي ذكرته لك وأنا حيّ أغنيك ، وإن مت قبل بلوغي إليه فاحملني إلى الموضع الذي أصف لك ، فان ثم قصراً خراباً فإذا بلغته فامكث إلى ضحوة النهار ثم عدَّ سبع شرافات من القصر واحفر تحت السَّابعة على قدر قامة فانك ستظهر لك بلاطة فاقلعها ، فانك سترى تحتها مغارة فادخلها ، فإنك ترى في المغارة سريرين على أحدهما رجل ميت ، فاجعلني على أحد السَريرين ومدني عليه وحمّل جمالك هذه وحمالات مالاً من المغارة وارجع إلى بلدتك . قال : فمات في الطريق ، ففعلت ما أمرني به ، وكان معي أربعة جمال وحمارة فأوسقتها كلها مالاً من المغارة وسرت بعض الطريق وكانت معي مخلاة فنسيت أن أملأها من ذلك المال وداخلني الشره ، فقلت : لو رجعت فملأت هذه المخلاة ، فرجعت وتركت الجمال والحمارة في الطريق فلم أجد المكان الذي أخذت منه المال ، فدرت فلم أعرف ، فلما يئست رجعت إلى الجمال والحمارة فلم أجدها ، فجعلت أدور في البرية أياماً فلم أجد لها أثراً ، فلما يئست رجعت الى دمشق وقد ذهبت الجمال والحمارة فلم أحصل على شيء ، وألجأني الأمر إلى ما ترى يا أمير المؤمنين ، فها أنا أعمل كل يوم في التراب بدرهم فكلما تذكرت بكيت ، فقال له الوليد : لم يقسم الله لك في تلك الأموال شيئاً وإليّ صارت فبنيت بها هذا المسجد .

وفي غربي دمشق لأقل من ميل منها قصر الامارة ، وهي مدينة مسوّرة ، ولها بابان كبيران يسمى أحدهما باب الربوة والثاني باب حوران ، وبينهما أبواب كثيرة تسمى الخوخات ، وفيها مسجد جامع متقن إلا أنه لا يبلغ اتقان مسجد المدينة الكبرى ، وفيها أسواق كثيرة ، وبين قصر الامارة والمدينة بساتين وأنهار جارية ، وعلى قصر الامارة قبة حمراء مشرفة ، ويحيط بقصر الامارة نهر من جميع جوانبه ،

---

(١) المسالك ١ : ١٨٧ .

وجبل اللكام جبل شاهق لاصق بمدينة دمشق ، وبينهما نهر عليه قنطرة لطيفة ، وهي تسقي بساتين الغوطة ، وثنية العقاب على مقربة من مدينة دمشق تسير من الثنية في قرى النصارى حتى تفضي الى باب توما .

والخضراء من دمشق كان ينزلها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه . ومُرابط أهل دمشق بيروت ، وهي مدينة على شاطىء البحر وفيها كان أبو الدرداء رضي الله عنه . وفتحت دمشق في زمان عمر رضي الله عنه سنة أربع عشرة بعد أن لقيتهم جموع الروم بمرج الصفر عند طاحونة المرج فهزمت الروم ، ويقال إن الطاحونة طحنت في ذلك اليوم من دمائهم وهرب هرقل الى انطاكية ثم إلى القسطنطينية .

ولعبد الله بن أحمد الكاتب المعدل في ذكر دمشق ، أنشده ابن عساكر في كتابه[1] :

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها ... فما أطيب اللذاتِ فيها وأهناها

نزلنا بها فاستوقفتنا محاسنٌ ... يحنُّ إليها كل قلب ويهواها

لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ... ونلنا بها من صفوة العيش أعلاها

ولم يبق فيها للمسرة بقعة ... يفرّح فيها القلب إلا نزلناها

وكم ليلة نادمت بدر تمامها ... تقضت وما أبقت لنا غير ذكراها

فآها على ذلك الزمانِ وطيبه ... وقلٌ له من بعده قولتي آها

فيا صاحبي إما حملت تحيتي ... إلى دار أحباب لنا طاب مغناها

فقل ذلك الوجدُ المبرح ثابت ... الى دار أحباب لنا طاب مغناها

فقل ذلك الوجد المبرح ثابت ... وحرمة أيام الهوى ما أضعناها

فإن كانت الأيام أنست عهودنا ... فلسنا على طول المدى نتناساها

سلامٌ على تلك المحاسن إنها ... محط[2] صبابات النفوس ومثواها

رعى الله أياماً تقضت بقربها ... فما كان أهناها لدينا وأمراها

ليالي لا أنفك في عرصاتها ... أنادم بدراً أو أُعاتب تياها

---

(١) تاريخ ابن عساكر ، المجلدة الثانية : ١٧٧ ، وانظر ياقوت والأعلاق الخطيرة : ٣٣٩ .

(٢) صرع : محيا .

فمن مترف يستملك اللبَّ حسنه ... وفاتنة يستأسر القلب عيناها
إذا عدم الورد الجني اراك ما ... يفوق على الورد المورّد خداها
وان غاب نور البدر في حلك الدجى ... أضاء كضوء الصبح نور محيّاها
أحنُّ إليها ثم أخشى رقيبها ... فما زلت أخشاها بوجدي فأغشاها
وإن لم ترد طيب الخمور وفعلها ... أقمت مقام الكأس في فعلها فاها
ومن أين للصهباء شمس مضيئة ... يعاطيك محياها رحيق ثناياها
رعى الله عني عصبةً أدبية ... فلم يجر خلقٌ في البلاغة مجراها
إذا ذكرتها النفسُ حنَّت لذكرها ... وإن ذكرتها العين حنَّتْ لرؤ ياها
فلا برحت يستعبدُ الحرَّ حسنها ... وتستخدم الألفاظ الطاف معناها

وقال أبو الفرج عبد الله بن أسعد الموصلي الشافعي المعروف بابن الدهان[1] :

سقى دمشقَ وأياماً مضت فيها ... مواطر السحب ساريها وغاديها
فللحاظ وللأسماع ما اقترحت ... من وجه شادنها أو صوت شاديها
إذا العزيمة عن فرط الغرام ثنت ... قلباً تثنى له غصن فيثنيها
ريمٌ إذا جلبت حيناً لواحظه ... للنفس حيا بخديه فيحييها
اشتاق عيشي بها قدماً ويذكرني ... أيامي السود بيضاً من لياليها
ونحن في جنة لا ذاق ساكنها ... بأساً ولا عرفت بؤ ساً مغانيها
سماء دوح ترد الشمس صاغرة ... عنا وتبدي نجوماً من نواحيها
ترى النجوم بها في كل ناحية ... ممدودة للنجوم ا لزهر أيديها
إذا الغصون هززناها لنيل جنىً ... صارت كواكبها حصبا أراضيها
من كلِّ صفراء مثل الماء يانعة ... تخالها جمرَ نار في تلظيها
لذيذة الطعم تحلو عند آكلها ... بهية اللون تجلي عند رائها
يا ليت شعري على بعد أذاكرتي ... عصابة لست طول الدهر ناسيها
عندي أحاديث وجد بعد بعدهمُ ... أظل أجحدها والعين ترويها

---

(١) الأعلاق الخطيرة : ٣٤٩ ، وديوانه : ٢٣٣ .

كم لي بها صاحب عندي له نعم ... كثيرة وأيادٍ ما أؤديها
فارقته غير مختار فصاحبني ... صبابة منه تخفيني وأخفيها
رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت ... حتى رضيت سلاماً في حواشيها

وقال اسماعيل بن أبي هاشم : قرأت على قصر بدمشق لبني أمية :

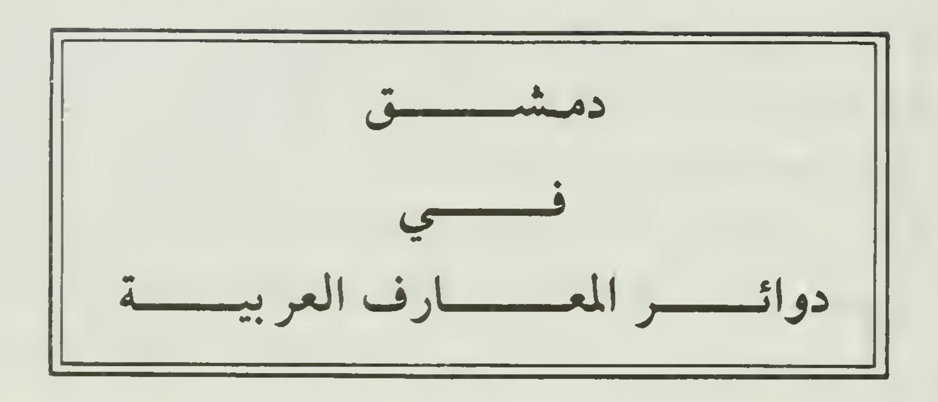
ليت شعري ما حال أهلك يا قصـ ... ـر وأين الذين علّوا بناكا
ما لأربابك الجبابرة الأملا ... ك شادوك ثم حلوا سواكا
ألزهدٍ يا قصر فيك تحامو ... ك ألا نبِّني ولست هناكا
ليت شعري وليتني كنت أدري ... ما دهاهم يا قصر ثم دهاكا
ليت أن الزمان خلف منهم ... مخبراً واحداً فاعلم ذاكا

ومن خلف هذا جواباً عنهم :

أيها السائل المفكر فيهم ... ما لهذا السؤال قل لي دعاكا
أو ما تعرف المنون إذا حلـ ... ـتْ دياراً فلن تراعي هلاكا
إن في نفسك الضعيفة شغلاً ... فاعتبر وامض فالمنون وراكا

★ ★





دمشق
في
دوائر المعارف العربية



دمشق

Damas, Damacsus

قال ياقوت هي البلدة المشهورة قصبة الشام وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رفعة وكثرة مياه ووجود مآرب قيل سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها اي اسرعوا . وناقة دَمْشَق سريعة وناقة دمشقة اللحم خفيفة . وقال أهل السير سميت دمشق بدمشاق بن قاني بن لامك بن ارفخشد بن سام بن نوح . فهذا قول ابن الكلبي . وقال في موضع آخر ولد يفطان بن عابر سالف وهم السلف وهو الذي بنى قصبة دمشق . وقيل أول من بناها بيوراسف .

وقيل بنيت دمشق على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون أنهُ سبعة آلاف سنة . وولد ابراهيم الخليل بعد بنائها بخمس سنين . وقيل ان الذي بنى دمشق جيرون بن سعد بن عاد بن ارم بن سام بن نوح وسماها ارم ذات العماد . وقيل ان هودا نزل دمشق وأسس الحائط الذي في قبلي جامعها . وقيل أن غلام ابراهيم بنى دمشق وكان حبشيًّا وهبهُ لهُ نمرود ابن كنعان حين خرج ابراهيم من النار . وكان يسمى الغلام دمشق فسماها باسمهِ . وكان ابراهيم قد جعله على كل شيء لهُ . وسكنها الروم بعد ذلك . وقال غير هؤلاء سميت بدماشق بن نمرود بن كنعان وهو الذي بناها وكان معهُ ابراهيم كان دفعهُ اليهِ نمرود بعد أن نجى اللّه تعالى ابراهيم من النار . وقال آخرون سميت بدمشق بن ارم بن سام ابن نوح وهو أخو فلسطين وايليا وحمص والأردن وبنى كل واحد موضعاً فسمي به . وقال أهل الثقة من أهل السير ان آدم كان ينزل في موضع يعرف الآن

دمشق في دائرة معارف البستاني للمعلم بطرس البستاني طبعة دار المعرفة بيروت (طبعة مصورة) .

بيت اناث وحوَّاء في بيت لهيا وهابيل في مقرى وكان صاحب غنم . وقابيل في قنينة وكان صاحب زره . وهذه المواضع حول دمشق وكان في الموضع الذي يعرف الآن باب الساعات عند الجامع صخرة عظيمة يوضع عليها القربان فما يقبل منه تنزل نار تحرقه وما لا يقبل بقي على حالِه . وكان هابيل قد جاءَ بكبش سمين من غيره فوضعه على الصخرة فنزلت النار فأحرقتهُ وجاءَ قابيل بحنطة من غلتِه فوضعها على الصخرة فبقيت على حالها فحسد قابيل أخاهُ وتبعهُ الى الجبل المعروف بقاسيون المشرف على بقعة دمشق وأراد قتلهُ فلم يدر كيف يصنع فاتاهُ ابليس فأخذ حجراً وجعل يضرب به رأسه . فلما رآهُ أخذ حجراً فضرب به رأس أخيهِ فقتلهُ على جبل قاسيون . قال وأنا رأيت هناك حجراً عليه شيءٌ كالدم يزعم أهل الشام انهُ الحجر الذي قتلهُ بهِ وإن ذلك الاحمرار الذي عليهِ اثر دم هابيل وبين يديه مغارة تزار حسنة يقال لها مغارة الدم لذلك رأيتها في لحف الجبل الذي يعرف بجبل قاسيون . وقد روى بعض الأوائل ان مكان دمشق كان داراً لنوح ومنشأ خشب السفينة من جبل لبنان وان ركوبهُ في السفينة كان من عين الجر من ناحية البقاع . وقد روي عن كعب الاحبار ان أول حائط وضع في الارض بعد الطوفان حائط دمشق وحران . وفي الأخبار القديمة عن شيوخ دمشق الأوائل ان دار شداد بن عاد بدمشق في سوق البني يفتح بابها شأماً الى الطريق وانهُ كان يزرع لهُ الريحان والورد وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين قنطرة دار بطيخ وقنطرة سوق التين وكانت يومئذ سقيفة فوق العمد . وقال أحمد بن الطيب السرخسي بين بغداد ودمشق ٢٢٠ فرسخاً . وقالوا في قول اللّٰه عز وجل وآويناهما الى ربوة ذات قرار هي دمشق ذات قرار وذات رخاءٍ من العيش وسعة ومعين كثيرة الماءِ .

وقال قتادة في قول اللّٰه عز وجل والتين هو الجبل الذي عليهِ دمشق والزيتون الجبل الذي عليهِ بيت المقدس .

وقيل ارم ذات العماد دمشق . وقال الأصمعي جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الابلة . وقال ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ان دمشق من جنان الدنيا الاربع . وفي الاخبار ان ابراهيم ولد في غوطة دمشق (راجع ابراهيم) في قرية يقال لها برزة في جبل قاسيون ويقال انها كانت مأوى الأنبياء ومصلاهم . والمغارة

التي في جبل النيرب يقال أنها كانت مأوى عيسى ومسجد ابراهيم احدهما في الاشعريين والآخر في برزة . ويقال ان هودا المشهورة بهم ماليس في غيرها من البلدان وهي معروفة الى الآن . ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماءِ في قنواتها فقلَّ انْ تمر بحائط إلا والماءُ يخرج منهُ في أنبوب إلى حوض يشرب منهُ ويستقي الوارد والصادر . وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاه إلا والماءُ يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسح في منصته والمساكن بها غزيرة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها ولها ربض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه وهي في أرض مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة وبها جبل قاسيون ليس في موضع من المواضع أكثر من العبَّاد الذين فيه . وبها مغائر كثيرة وكهوف وآثار الأنبياء والصالحين لا توجد في غيرها . وبها فواكه جيدة طيبة تحمل الى جميع ما حولها من البلاد من مصر الى حران وما يقارب ذلك فنعم الكل . واما جامعها فهو الذي يضرب به المثل في حسنِه . وجملة الأمر انهُ لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثلهُ . ومن المحال ان يطلب بها شيءٌ من جليل أعراض الدنيا ودقيقها الا وهو فيها أوحد من جميع البلاد . وفتحها المسلمون في رجب سنة ١٤ للهجرة بعد حصار ومنازلة . وكان قد نزل على كل باب من أبوابها أمير من المسلمين فصدهم خالد بن الوليد من الباب الشرقي حتى افتتحها عنوة فأسرع أهل البلد الى أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحيل بن حسنة . وكان كل منهم على ربع من الجيش فسألوهم الأمان فأمنوهم وفتحوا لهم الباب فدخل هؤلاء من ثلثة أبواب بالأمان ودخل خالد من الباب الشرقي بالقهر وملكوهم . وكتبوا الى عمر بن الخطاب (رضه) بالخبر وكيف جرى الفتح فأجراها كلها صلحاً . واما جامعها فقد وَصفهُ بعض أهل دمشق فقال جامع المحاسن كامل الغرائب معدود من احدى العجائب قد زُوِّر بعض فرشِهِ بالرخام وأُلف على أحسن تركيب ونظام وفوق ذلك فص أقدارهُ متفقة وصنعتهُ موتلفة بساطهُ يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً وهو منزه عن صور الحيوان الى صنوف النبات وفنون الأغصان لكنها لا تجنى الا بالابصار ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار بل باقية على طول الزمان مدركة بالعيان في كل أوان لايمسها عطش مع فقدان القطر ولا يعتريها ذبول مع تصاريف الدهر . وقالوا عجائب الدنيا اربع قنطرة سنجة ومنارة

الاسكندرية وكنسية الرها ومسجد دمشق . وكان قد بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان وكان ذا همة في عمارة المساجد . وكان الابتداء في عمارته في سنة ٨٧ وقيل ٨٨ هجرية . ولما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم أنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم يعني كنيسو يوحنا حيث شئتم وإن شئتم أضعفنا لكم الثمن . فأبوا وجاؤ وا بكتاب خالد بن الوليد والعهد وقالوا أنا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق . فقال لهم الوليد أنا أول من يهدمها . فقام وعليه قباء أصفر فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراده واحتفل في بنائه بغاية ما أمكنهُ وسهل عليهِ إخراج الأموال وعمل لهُ أربعة أبواب في شرقيه باب جيرون وفي غربيهِ باب البريد وفي القبلة باب الزيادة وباب الناطفانيين مقابلهُ وباب الفراديس في دبر القبلة . وذكر غيث بن علي الأرمنازي في كتاب دمشق أن الوليد أمر أن يستقصى في حفر أساس حيطان الجامع فبينما هم يحفرون إذ وجدوا حائطاً مبنياً على سمت الحفر سواء فأخبروا الوليد بذلك وعرفوه إحكام الحائط واستأذنوه في البنيان فوقه . فقال أحب الإحكام واليقين فيه ولست أثق بإحكام هذا الحائط حتى تحفروا في وجهه الى أن تدركوا الماء فإن كان محكماً مرضياً فابنوا عليهِ وإلا استأنفوه فحفروا في وجه الحائط فوجدوا باباً وعليهِ بلاطة من حجر مانع وعليها منقور كتابة فاجتهدوا في قراءتها حتى ظفروا بمن عرفهم أنها من خط اليونان وأن معنى تلك الكتابة ما صورتهُ . لما كان العالم محدثاً لاتصال إمارات الحدوث به وجب أن يكون له محدث كما قال ذو السنّين وذو اللحيين فوجدت عبادة خالق المخلوقات حينئذ أمر بعمارة هذا الهيكل من صلب ما له محب الخيل على مضي سبعة آلاف وتسعمائة عام لأهل الأسطوان فإن رأى الداخل إليه ذكر بانيه بخير فعل والسلام . وأهل الأسطوان قوم من الحكماء الأول كانوا ببعلبك . حكى ذلك أحمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف . ويقال أن الوليد نفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين وحملت إليه الحسانات بما أنفق عليه على ١٨ بعيراً . فأمر بإحراقها ولم ينظر فيها وقال هو شيء آخر جناه لله فلم نتبعه . ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صنائعه واحتلافه وحكي أنه بلغ ثمن البقل الذي أكله الصناع فيه ست آلاف دينار . وضج الناس استعظاماً لما أنفق فيه وقالوا أخذ بيوت أموال المسلمين وأنفقها في ما لا فائدة فيه . قال فخطبهم وقال تقولون وتقولون وفي

بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم تدخل فيها حبة قمح فسكت الناس . وقيل أنه في تسع سنين وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يوم بقطعون الرخام وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب . فلما فرغ أمر الوليد أن يسقف بالرصاص فطلب من كل البلاد وبقيت قطعة منه لم يوجد لها رصاص إلا عند امرأة وأبت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً فقال اشتروه منها ولو بوزنه مرتين . ففعلوا فلما قبضت الثمن قالت إني ظننت أن صاحبكم ظالم في بنائه هذا فلما رأيت إنصافه فأشهدكم أنه لله وردت الثمن . فلما بلغ ذلك الى الوليد أمر أن يكتب على صفائح المرأة «لله» . ولم يدخلهُ في ما كتب عليه اسمه . وأنفق على الكرمة االتي في قبلته سبعين ألف دينار . وقال موسى بن حماد البربري رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفورة سورة «ألهاكم التكاثر» الى آخرها . ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف التي في قوله تعالى حتى زرتم المقابر فسالت عن ذلك فقيل لي أنه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها فماتت فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها . فأمر الوليد بها فصيرّت في قاف المقابر من «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» . ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت . وحكى الجاحظ في كتاب البلدان قال قال بعض السلف ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً الى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم وهو مبني على الأعمدة الرخام طبقتين الطبقة التحتانية أعمدة كبار التي فوقها صغار من خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الأخضر والأصفر وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها . ولها ثلاث منائر إحداها وهي الكبرى كانت ديدباناً للروم وأُقرّت على ما كانت عليه وصيرّت منارة . ويقال في الأخبار أن عيسى ينزل من السماء عليها . ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق في سنة ٤٦١ فأذهب بعض بهجته ومما قيل من الشعر في وصف دمشق قول أبي المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجونُ

وما ذقت طعمَ الماء إلا استخفني ... الى بَرَدى والنيربينِ حنين

وقد كان شكي في الفراق يروعني ... فكيف أكون اليومَ وهو يقينُ

وقال الصنوبري :

صَفَت دنيا دمشق لقاطنيها ... فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههنَ أبهى الـ ... مناظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحةٍ لم تعدُ خداً ... ومن أترجةٍ لم تعد ثديا

وقال البحتري :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وَفَى لك مُطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسنٍ وزمانٍ يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً ... ويصبح النبت في صحرائها بدَدَا
فلست تبصرُ إلا واكفاً خضلاً ... ويانعاً خضراً أو طائراً غَرِدَا
كأنما القيظ ولَّى بعد جيئته ... أو الربيعُ دنا من بعد ما بعدا

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسين بن النقار :

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها ... فما أطيب اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسنٌ ... يحنُّ إليها كل قلب ويهواها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ... ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
وكم ليلة نادمتُ بدر تمامها ... نقضت وما أبقت لنا غير ذكراها
فآهاً على ذاك الزمان وطيبه ... وقلَّ له من بعد قوليَ آها
فيا صاحبي أما حملت رسالةً ... الى دار أحبابٍ لنا طاب مغناها
فقل ذلك الوجد المبرح ثابت ... وحرمة أيام الصبا ما أضعناها
فإن كانت الأيام أنست عهودنا ... فلسنا على طول المدى نتناساها
سلام على تلك المعاهد أنها ... محطُّ صبابات النفوس ومثواها
رعى الله أياماً تقضت بقربها ... فما كان أحلاها لدينا وأمراها

قال ولما ولي عمر بن عبد العزيز قال إني أرى في أموال مسجد دمشق كثرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما أنا مستدرك منها فيردً الى بيت المال لكنت أنزع هذا الرخام والفسيفساء وأنزع هذه السلاسل وأصير بدلها حبالاً . فاشتد ذلك على أهل دمشق حتى وردت عشرة رجال من ملك الروم الى دمشق فسألوا أن يؤ ذن لهم في دخول المسجد فأذن لهم أن يدخلوا من باب البريد فوكل بهم رجلاً يعرف لغتهم ويستمع كلامهم وينهي قولهم الى عمر من حيث لا يعلمون فمروا في الصحن حتى استقبلوا القبلة فرفعوا رؤ وسهم الى المسجد فنكس رئيسهم رأسه واصفر لونـه . فقالوا له في ذلك فقال أنَّا كنا معاشر أهل رومية نتحدث أن بقاء أهل العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها . فلما أخبر عمر بن عبد العزيز بذلك قال إني أرى مسجدكم هذا غيظاً على أعدائكم وترك ما هم به . وقد كان رصّع محاريبه بالجواهر الثمينة وعلق عليه قناديل الذهب والفضة . وبدمشـق من الصحابة التابعين وأهل الخير والاصلاح الذين يزارون في ميدان الحصى قبلي دمشق قبر يزعمون أنه قبر أم عائكة أخت عمر بن الخطاب . وعنده قبر يروون أنه قبر صهيب الرومي وأخيه والمأثوران صهيباً بالمدينة ، وبها أيضاً مشهد التاريخ في قبلته قبر مسقوف بنصفين . وفي قبلي الباب قبر بلال بن حمامة وكعب الأحبار وثلاث من أزواج النبي ﷺ وقبر فضة جارية فاطمة وأبي الدرداء وفضالة بن عبيد وسهل بن الحنظلية وواثلة بن الأسقع وأوس بن أوس الثقفي وأم الحسن بنت جعفر الصادق وعلي بن عبد الله بن العباس وسلمان بن علي بن عبد الله بن العباس وزوجته أم الحسن بنت علي وغيرهم وهذه القبور هكذا يزعمون فيها والأصح الأعرف الذي دلت عليه الأخبار أن أكثر هؤ لاء بالمدينة مشهورة قبورهم هنـاك . وكان بهـا من الصحابة والتابعين جماعة غير هؤ لاء قيل أن قبورهم حرثت وزرعت في أول دولة بني العباس فدرست قبورهم فادعـي هؤ لاء عوضـاً عما درس . وفي باب الفراديس مشهد الحسين بن علي وبالجامع من شرقيه مسجد عمر بـن الخطـاب . ومشهـد علي بن أبي طالب . ومشهد الحسين وزين العابدين . وبالجامع مقصورة الصحابة وزاوية الخضر ورأس يحيى بن زكرياء ومصحف عثمان بن عفان وقالوا أنه خطـه بيده . ومنارة الغربية بالجامع هي التي تعبَّد فيها أبو حامد الغزالي ومحمد بن تومرت ملك المغرب قيل أنها كانت هيكل النار . وبالجامع قبة بيت المال الغربية يقال أن

فيها قبر عائشة والصحيح أن قبرها بالبقيع . وعلى باب الجامع المعروف بباب الزيادة قطعة رمح معلقة يزعمون أنها من رمح خالد بن الوليد وبها قبر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالكلاسة في الجامع . وأما المسافات بين دمشق وما يجاورها فمنها الى بعلبك يومان والى طرابلس ٢ والى بيروت ٣ والى صيدا ٣ والى أذرعات ٤ والى أقصى الغوطة يوم والى حوران والبثنية يومان والى حمص ٥ والى حماة ٦ والى المقدس ٦ والى مصر ١٨ والى غزة ٨ والى عكا ٤ والى صور ٤ والى حلب ١٠ أيام . وممن ينسب إليها من أعيان المحدثين عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن سلمان أبو محمد التميمي الدمشقي الكناني الصوفي وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان بن عمرو البصري الدمشقي . وينسب إليها من لا يحصى من المسلمين . وألف لها الحافظ بن عساكر تاريخاً مشهوراً في ثمانين مجلداً . وممن اشتهر بالنسبة إليها فلا يعرف إلا بالدمشقي أبو المحاسن يوسف بن رمضان بن بندار .

وأما خبر فتحها فإذا كان له شأن عندنا وكانت عبارة ياقوت مختصرة لزم أن نذكر ما رواه غيره . قال ابن الأثير . وسنة ١٢ للهجرة أخبروا أبو عبيدة بأن المدداتي أهل دمشق من حمص فكتب الى عمر في ذلك فأجابه يأمره بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل أهل فجل بخيل تكون بإزائهم وإذا فتح دمشق سار الى فحل . وبعث أبو عبيدة جنداً فنزلوا بين حمص ودمشق وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين . وسار أبو عبيدة وخالد على دمشق وعليها نسطاس الرؤ ية فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو بن العاص على ناحيه . وكان هرقل قريب حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصاراً شديداً وقاتلوهم بالزحف والمجانيق وجاءت خيول هرقل معينة لدمشق فمنعها خيول المسلمين التي عند حمص . فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون . وولد للبطريق نسطاس المذكور مولود فصنع طعاماً فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء . وكان قد اتخذ حبالاً كهيئة السلالم وأوهاقاً . فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم بهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله وقالوا إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا

الباب . فلما وصل هو وأصحابه الى السور ألقوا الحبال فعلقوا بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف . وكان ذلك المكان أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء . فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون الى الباب والى الحبال . وانتهى خالد الى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال . وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم . فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم . ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا قتلاً ونهباً وهذا صلحاً وتسكيناً . فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة . وقسموا معهم للجنود التي عند فجل وعند حمص وغيرهم ممن هو ردء للمسلمين .

وفي الواقدي أن رجلاً من أهل دمشق أدخل قوماً من المسلمين ليلاً الى بيته . ولما جن الليل حملوا على البوابين وأوقعوا بهم وفتحوا الأبواب مكبرين ومهللين فدخل خالد المدينة في الجنود قاتلاً ناهباً . وكان أهلها قد صالحوا أبا عبيدة وعاهدهم وهذا ما قاله الواقدي .

إن الذي قدم مع الأمير عبيدة من المسلمين من أهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطائف وما حول مكة كان ٢٧ ألف فارس من الشجعان . وكان مع عمرو بن العاص تسعة آلاف فارس والذين قدم بهم خالد بن الوليد من العراق ألف وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك ٤٧,٥٠٠ غير من جهز عمر بن الخطاب في خلافته ونزل خالد بن الوليد بنصف المسلمين على الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة بالنصف الثاني على باب الجابية . فلما نظر أهل دمشق الى ذلك نزل الرعب في قلوبهم . ثم أمر خالد بن الوليد بالزحف على دمشق . قال بعض من حضر فزحف الرجال وبأيديهم الحَجف يتلقون بها الحجارة والسهام . فإذ نظر أهل دمشق إلينا ونحن قد زحفنا إليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الأسوار

وضيقنا عليهم في الحصار . فأقمنا على حصارهم عشرين يوماً فلما كان بعد ذلك جاءنا ناوس بن مرك وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فأرسل إليهم ضرار بن الأزور في خمسة آلاف فارس فهزمهم . ثم تجمع الروم في أجنادين نحو تسعين ألفاً . فجلا المسلمون عن دمشق وساروا لقتالهم . فخرج رجال من دمشق في أثرهم وقصدوا الحريم والمال فاقتطعوا منها قطعة ورجع بها أحد قوادهم الى دمشق وبقي الآخر يتأثر المسلمين فقاتلهم وضايق أبا عبيدة الى أن أنجده خالد وكان في المقدمة فردهم . ومن ثم أخذت النساء العربيات المأسورات عمد الخيام وحملن بها على آسريهنَّ . فمنع قائد الروم الايقاع بهن ولما عرف خالد بن الوليد بذلك أنجدهن وخلصهن وقتل من الروم خلقاً كثيراً ثم لحق بأبي عبيدة وبعد أن قاتلوا الروم في أجنادين قتالاً طويلاً انتصروا عليهم وعادوا الى دمشق بالغنائم وجاءتهم نجدات من المدينة . ثم جددوا حصرها وانتشب بينهم وبين أهلها قتال طويل أياماً كثيرة . ولما اشتد الأمر على أهل دمشق وبعثوا الى خالد أن أمهل علينا فأبى خالد وقال ليس إلا القتال ولم يزل كذلك الى أن ضاق بهم الحصار . واجتمع أهل البلد وقال بعضهم لبعض ما لنا صبر على ما نحن فيه من الأمر وأن هؤلاء إن قاتلناهم نصروا علينا وإن تركناهم أضرَّ بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحاً على ما طلبوا منكم . وبعد التشاور قالوا أن الأمير الذي على باب شرقي (هو خالد بن الوليد) رجل سفاك للدماء . فقال لهم أحدهم إذا إذا أردتم تقارب الأمر فامضوا الى الذي على باب الجابية (هو أبو عبيدة) ويتكلم رجل يعرف بالعربية ويقول بصوت رفيع يا معاشر العرب الأمان حتى ننزل إليكم ونتكلم مع صاحبكم وكان أبو عبيدة قد أنفذ رجالاً من المسلمين مكثوا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التي خلت ؛ قال أبو هريرة لما سمعت أصوات القوم وهم ينادون بادرت الى أبي عبيدة وبشرته بذلك فاستبشر وقال امض وكلم القوم وقل لهم لكم الأمان فبشرتهم به . فنزل القوم وفتحوا الباب وإذا هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم . فرحب بهم أبو عبيدة وأجلسهم وقال أن نبينا محمداً ﷺ قال إذا أتاكم عزيز قوم فاكرموه . وتكلموا في أمر الصلح وقالوا أننا نريد منكم أن تتركوا كنائسنا ولا تنقضوا منها كنيسة يوحنا وهي (التي نقضها الوليد كمل مر) . فقال لهم أبو عبيدة جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها . وكان في دمشق كنائس تسمى كنيسة مريم وكنيسة يوحنا وكنيسة سوق

الليل وكنيسة النذار فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والأمان فتسلموه وقالوا له قم معنا الى البلد . فقام وركب معه خمسة وثلاثون صحابياً من أعيان الصحابة وخمسة وستون من أخلاط الناس ثم أخذ من أهل دمشق رهائن وساروا أمامه بموكب حافل . ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد بذلك لأنه شد عليهم بالقتال . وكان هناك رجل اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلي باب شرقي الذي عنده خالد . فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعاً وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده وقصد خالداً وحدثه بما فعل وقال أريد أماناً لي ولأهلي ولأولادي فأخذ خالد عهده على ذلك وأنفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حمير وقال لهم إذا حصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الأقفال وأزيلوا السلاسل . ففعلوا فلما حصلوا في دار يونس تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا التكبير . فلما سمع الدمشقيون ذلك انذهلوا وعلموا أن المسلمين حصلوا معهم في المدينة . ثم قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل ودخل خالد بن الوليد ومن معهُ من المسلمين ووضعوا السيف في أهلها الى ان وصل الى كنيسة مريم . والتقى جيش خالد وجيش أبي عبيدة عند الكنيسة . وكان أبو عبيدة وأصحابهُ سائرين والرهبان بين أيديهم وماأحد من أصحاب أبي عبيدة جرد سيفهُ . فبهت خالد وجعل ينظر اليهم متعجباً . فعرف أبو عبيدة في وجههِ الانكار فقال لهُ ياأبا سليمان قد فتح اللّه على يدي المدينة صلحاً وكفى اللّه المؤمنين القتال . فقال خالد اين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وقد خضبت سيوف المسلين من دمائهم وأخذت الأولاد عبيداً وقد نهبت الأموال . فقال ابو عبيدة أيها الأمير اعلم اني ما دخلتها الا بالصلح . فقال لهُ خالد بن الوليد انك لم تزل مغفلاً وأنا ما دخلتها الا بالسيف عنوة ومابقي لهم حماية فكيف صالحتهم . قال أبو عبيدة اتقِ اللّه أيها الأمير واللّه صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتبت لهم الكتاب وهو مع القوم . فقال خالد وكيف صالحتهم من غير أمري وأنا صاحب رايتك والأمير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى أفنيهم عن آخرهم . فقال أبو عبيدة واللّه ما ظننت أنك تخالفني إذا عقدت عقداً ورأيت رأياً فاللّه اللّه في أمري فقد اعطيت دماءَ القوم عن آخرهم واعطيتهم الأمان من اللّه جل جلالهُ وأمان رسول اللّه ﷺ وقد رضي من معي من المسلمين والغدر ليس من

شيمنا . وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس إليهما وخالد مع ذلك لا يرجع عن مرادهِ . ونظر أبو عبيدة الى ذلك فرأى جيش البوادي من العرب مع خالد وهم مشتبكون على قتال أهل المدينة ونهب أموالهم . فنادى أبو عبيدة أبو عبيدة وانكلاه حقرت واللّه ونقض عهدي وجعل يحرك جوادهُ ويشير الى العرب مرة يميناً ومرة شمالاً وينادي معاشر المسلمين اقسمت عليكم برسول اللّهﷺ ان لا تمدوا أيديكم نحو الطريق الذي جئت منهُ حتى نرى ما نتفق عليهِ أنا وخالد فسكتوا عن القتل والنهب . فاجتمع كبراءُ المسلمين للمشورة فقالوا لخالد الراي أن تمضي الى ما أمضاه أبو عبيدة فإن مدن الشام لم تفتح أبداً وهرقل في انطاكيا فإن علم أهل المدن أنكم صالحتم وغدرتم لم تفتح لكم مدينة صلحاً . واكتبا الى الخليفة وتحاكما اليهِ فكل ماأمر به فعلناهُ . فقبل خالد بان يؤمن الجميع خلا توما وهريس القائدين . فقال أبو عبيدة انهما أول من دخل في صلحي . فقال لولا ذمامك لقتلهما . وأراد خالد ان يمنعهم عن أخذ أموالهم فمنعهُ ابو عبيدة واتفق العرب وأهلها على ان يخرج هؤلاء منها بعد ثلثة أيام ويبقوا في ذمة العرب ثلثة أيام أخرى في الطريق . فجمعوا أموالهم وأمتعتهم الكثيرة الثمينة وساروا ولم يطلق كل واحد غير قطعة من السلاح ولحق بهم خالد في جيش وظفر بهم بعد أن قطعوا مسافة الأيام الثلثة وقاتلهم وغنم ما كانوا قد خرجوا به من دمشق وأسر بنت الملك هرقل . انتهى ما لخصناه عن الكتب العربية



جغرافيتها

تسمى دمشق بجيرون وجلّق والفيحاءِ والشام . وفي القاموس سميت بدمشق باسم بانيها دمشاق بن كنعان أو دامشقيوس . وقيل باسم دمشق بن نمرود وقيل باسم دمشق غلام ابراهيم . ويقال انها سميت جيرون باسم جيرون بن سعد بن عاد بن عوص أو باسم باب عظيم من أبوابها بناهُ سليمان الحكيم وسماه جيرون فسميت باسمِه. وجلق لفظة أعجمية على قول وقيل اسم كل الكورة وقيل اسم دمشق نفسها وقيل اسم موضع في إحدى قراها وقيل تمثال مراة من احدى قراها يجري الماءُ من فيها . وربما لقبت بالفيحاء لاتساعها . والشام اسم بلاد سورية فاطلق هذا الاسم على دمشق لانها قاعدتها واجمل مدنها واكبرها وافضلها . قال في محيط المحيط الشام بلاد من عن مشامة القبلة (أي شمالها) سميت بهِ لذلك . أولان قوماً من بني كنعان تشأَمَوا اليها اي تياسروا . او سميت بسام بن نوح فانهُ بالشين بالسريانية . أولان أرضها شامات بيض وحمر وسود . وعلى هذا لا تهمز وهي مؤنثة وقد تذكر . انتهى ويقال ايضاً ان بانيها عوض بن ارام راجع ارام . واسمها بالعبرانية دمسك . وهي من أقدم مدن الدنيا وكانت قاعدة المملكة السريانية وهي الآن قصبة الولاية السورية في ٢٢َ ٢٢ْ من العرض الشمالي و ٢٠َ ٢٦ْ من الطول الشرقي مرتفعة عن سطح البحر ٢٢٤٤ قدماً محيطها أكثر من تسعة أميال تبعد عن بيروت ١١٢ كيلومتراً وبينهما طريق عجلات وعن القدس ١٢٦ ميلاً الى شمالي الشمال الشرقي وعن حلب ١٨٠ ميلاً جنوباً بغرب وعن البحر المتوسط ٤٥ ميلاً موقعها في سهل خصب جميل محيطه ثمانون ميلاً على ضفة نهر بردى الجنوبية بيضية الشكل طولها من الشرق الى الغرب نحو ميل ومن الشمال الى الجنوب نحو ميل ونصف ميل يحيطبها سور قديم في زاويتهِ الشمالية الغربية قلعتها المشهورة وهي كثيرة المياه والبساتين في غوطة تعد من أفضل جنات الدنيا وازهاها وازهرها فيها جميع انواع الأثمار والبقول والأزهار . فهي نزهة انشراح وجنة انبساط تجري من تحتها الأنهار .

وقال أبو الفداء منتزهات الأرض أربعة صغد سمرقند وشعب بوّان ونهر الأبلة وغوطة دمشق . وقال ابن بطوطة ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها . وقال ابو الحسين بن جبير واما دمشق فهي جنة المسرق . ومطلع نورهِ المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي جلبناها . قد تحلت بازهار الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين . وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمهُ اليها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظلٌّ ظليل . وماءٌ سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الاراقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . وقد سمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد احدقت البساتي بها أحداق الهالة بالقمر . والاكمام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وقيل فيها شعرٌ

دمشق بنا شوقٌ اليها مبْرحٌ　　وان لجَّ أو ألح عدولُ

بلادٌ بها الحصباءُ درٌّ وتربها　　عبير وانفاس الشمال شمولٌ

تسلسل فيها ماؤ ها وهو مطلق　　وصح نسيم الروض وهو عليل

وتنقسم الى قسمين الواحد داخل السور والآخر خارجهُ فالأول قديم جداً والثاني بني بعد ان فتحها المسلمون . وهو جزءٌ كبير من الأحياء المسماة بالشاغور والميدان الفوقاني والتحتاني والقنوات والبحصة والحارة الجديدة والعقيبة والعمارة الداخلية والعمارة البرانية ومسجد القصب وهي الى الغرب من السور وبعض شمالهِ وجنوبهِ ولا عمران الى شرقيهِ . وقسمها العثمانيون الى ٨ أثمان وهي القيمرية وفيها حي النصارى وحي اليهود . والشاغور والميدان الفوقي والميدان التحتي والقنوات والعقيبة والعمارة والصالحية . وكل ثمن منها ينقسم الى أحياء وللقسم الذي خارج السور منافذ كثيرة لا تعتبر أبواباً للمدينة والذي داخل السور ثمانية أبواب قديمة جداً ففي شمالها باب توما رممهُ الأمير تنكز سنة ٧٢٤ هجرية . وباب

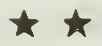
السلام رُمم سنة ٦٤١ . وباب العمارة ويقال لهُ باب الفراديس وباب البوابجية رمم سنة ٦٠٦ وفي غربها بابان باب السرايا هدم سنة ١٨٦٢ عند اصلاح الطرق وباب الجابية رمم سنة ٥١٠ هجرية . وفي جنوبها باب الشاغور أو الصغير . وفي شرقها الباب الشرقي وهو من عهد الرومان . وبالقرب منهُ باب اخر مسطوم يسميهِ النصارى باب بولس إذ يقال أن بولس الرسول دُلي من نافذة فوقه هرباً من الاضطهاد . ويسميهِ المسلمون باب كيسان . ويقال ان قلعتها المار ذكرها اسست في صدر الاسلام وكانت جميلة يسكنها الملوك والولاة طولها ٢٢٠ خطوة وعرضها ١٧٠ وارتفاعها أكثر من تسعين قدماً امست خربة الا مخازن الذخائر العسكرية وبدا خرابها منذ أكثر من أربعين سنة . وسنة ١٨٦٢ ميلادية بنت الحكومة حصنين في حي النصارى وفي الميدان الفوقاني ونحو عشر ثكن كافية لنزول عشرين ألفاً من الجنود مع ذخائرهم . وابنيتها متلاصقة كأنها بناءً واحد اسفلها بالحجارة واعلاها باللبن والخشب خارجها غير جميل وداخل بعضها فسيح منقوش مزخرف فيهِ برك واشجار وازهار . وهي كثيرة الأسواق بها نحو ٦٩٠٠ دكان . وهي سوق العلبية والدقاقين والبزورية والحبالين والبعجية والجمق أو الطويلة والقطن . وكلها خلال البزورية على خط واحد ممتد من الشرق الى الغرب . وسوق باب الجابية والسلاح والعقادين والصناعة والقباقبية والخراطين والقوافين والحرير والقلبقجية والنورية والخياطين وباب البريد وهذه الأخيرة أجمل اسواقها . وسوق العصرونية وباب القلعةوالجديدة وهي مشابهة لسوق باب البريد . وسوق الاروام والنسوان والقملية والسروجية والزرابلية والدرويشية السنانية والارز . فمجموعها ثلثون سوقاً خلا المتفرقة الكثيرة وبها ١٥٢ جامعاً فضلاً عن مقامات الاولياء والجامع الاموي أقدمها وأعظمها وأجملها شرع في بنائهِ الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ أو ٨٨ هجرية وجلب اشهر صناع بلاده و١٢ ألفاً من صناع الروم وقد تقدم وصفهُ . وكان مكانهُ في أيام الآراميين هيكل عظيم لمعبودهم رامون القديم امر الملك يهوذا ان يصنع مثلهُ في هيكل اورشليم ثم صار معبداً لليونان ثم الرومان خرب في أيام ارقاديوس قيصر ثم بناهُ كنيسة مسيحية . وفي الفتح الاسلامي جعل نصفهُ جامعاً وبقي الاخر كنيسة باسم القديس يوحنا . وفوق بابها الجنوبي كتابة يونانية ترجمتها ملكوتك ايها المسيح ملكوت أبدي وسلطانك يمتد مدى الادوار . أخذها الوليد جبراً ليضمها الى الجامع

كما مر طولهُ مائتا خطوة وفوق وسطهِ قبة شاهقة تسمى قبة النسر لعلوها أو لمشابهتها النسر والرواقان على جانبيها كجناحيهِ وفيهِ محاريب لاصحاب المذاهب الاربعة بناها الامير تنكز سنة ٧٢٨ وابوابهُ الخارجية سبعة . وبعد هذا جامع السنانية فالمعلق فالسويقة فالمصلى والشيخ محيي الدين وتكية السلطان سليم والبدرقية فالجوامع التي لها منارات شاهقة ١٥١ و ٧١ مسجداً و١٤ تكية و١٩٤ مقام ولي ولكل من طوائفها النصرانية كنيسة أو أكثر فللروم الارثوذكس ٢ منها كنيسة مريم العذراء يظن ان بانيها ارقاديوس قيصر خربها خالد بن الوليد لما دخل المدينة عنوة . ثم أضيفت الى الجامع وبنى لهم عمر بن عبد العزيز الخليفة عوضاً عن الكنيسة المريمية . وسنة ٦٥٨ هجرية خربها المسلمون ثم رممت ثم خربها تيمور ثم رممت وسنة ١٨٦٠ احترقت وهدمت حتى اساسها وسنة ١٨٦١ جدد بناؤ ها . وللروم الكاثوليك ٢ كنائس بنيت سنة ١٨٢٢ واحترقت سنة ١٨٦٠ ثم بنيت . وللسريان الكاثوليك كنيسة رممت بعد ان احترقت سنة ١٨٦٠ . وكنيسة للارمن الارثوذكس وأخرى للسريان الارثوذكس وأخرى للارمن الكاثوليك احترقت كلها سنة ١٨٦٠ ثم رممت . وللبروتستانت كنيستان بنيتا بعد سنة ١٨٦٠ وبها دير للرهبان العازريين ودير للفرنسيسكان ودير للموارنة ولهذه الاديرة كنائس احترقت سنة ١٨٦٠ ثم رممت . فاذا أضيفت الى هذه الكنائس كنيسة الصالحية للسريان الكاثوليك يكون مجموعها ١٧ كنيسة . وللاسرائيليين معابد كثيرة ففي كل من أكثر الدور الكبيرة معبد أشهرها معبد سوق الجمعة . وحماماتها من أشهر حمامات السلطنة وأكثرها اتقاناً وانظمها بناءً وترتيباً واغزرها ماءً وأقلها اجرة في بعضها ماءً حار وماءُ بارد وهي ٥٨ حماماً . وبها أكثر من ١١٠ قهاو و ١٢٩ خاناً اعظمها واشهرها خان اسعد باشا جميل البناءِ وفيهِ أكابر التجار . ثم خان سليمان باشا وخان الزيت وخان العمود والمرادنية والخياطين والزعفرانجية والشيخ قطن والجوار والمرادية والجمرك فهذه أشهر خانات التجارة . وبها عدة خانات يأويها الغرباءُ ومنزلان للمسافرين على النمط الاوربي واما النهران اللذان يخرجان من سلسلة الجبال المجاورة لها فنهر بردى والاعوج راجعهما في باب الباءِ والهمزة . ويقال ان دمشق تشرب من سبعة انهر فما هي غير فروع تعرف من مراجعة اساميها ومن فيجة في حرف الفاءِ . وبالقرب من بسيمة عين الخضراءِ ماؤُها صاف عذب بارد طيب جداً يخرج من سفح الجبل ويجري في قناة قديمة . وعلى

جانب منها مرج صغير يزهو بابهى حلة طبيعية وفي الجانب الاخر النهر وحولها الجبال الشاهقة فهي جنة أصبحت سلوى الغريب ومنتزه القريب . واذا سلكت طريق العجلات قاصداً دمشق ترى بردى عن يمينك ونهر يزيد عن يسارك بعيداً قليلاً وعلى بعد ميل عن دمر يتفرع منهُ نهر ثورا ويكون عن يسارك أيضاً ثم يتفرع منهُ نهر القنوات ثم نهر بانياس والباقي يظل اسمهُ بردى . فالقنوات وبانياس يدخلان المدينة بالقنوات ويوزعان في معابدها وشوارعها وحماماتها ودورها وماءُ يزيد منهما هناك ينضم الى بردى . والنهر الديراني الذي يتفرع من بردى عند دمر ينفصل عنهُ فرع عند بلوغه داريا ويجري بقنوات ويسقي بعض الميدان ونهر يزيد يسقي بساتين الصالحية ويوزع في دورها . وما يفيض عنها يسقي بعض القرى . ويجري نهر ثورا في البساتين الشمالية ويسقيها ويدخل المدينة منهُ فرعان والباقي من مائهِ يسقي بعضْ القرى . وعند بلوغ بردى القلعة يتفرع منهُ نهر عقربا ويدخل المدينة معهُ ويديران ارحية كثيرة ثم يخرجان من باب توما وينضم اليهما الماءُ الزائد عن المدينة ثم تسقى مياههما بساتين القرى . ثم تجتمع بقايا كل هذه الانهر في مجرى واحد وتصب في بحيرة المرج . فالأنهر المذكورةهي بردى ويزيدالديراني وثورا وقنوات وبانياس وعقربا

وأما الاراضي التي تسقيها هذه الانهر فهي سهول ذات تربة حمراءَ خصبة جداً تأتي بغلال متعددة في سنة واحدة بجد أهل الزراعة وجودتها وغزارة المياه وموافقة الطقس للمزروعات . وغلة هذه الاراضي جميع البقول والحبوب والخضرة والفواكه وهي كلها من أجود الخضرة والفاكهة والحبوب يضرب بها المثل باللذة ولا سيما المشمش وهو أكثر الانواع والآس والعنب . ويكثر فيها الحور والصفصاف والغار والدلب والدردار

واما هواؤ ها فطيب الا في الخريف بسبب تكاثر المستنقعات فتكثر الحميات وقد تكون قتالة يموت بها كثيرون خصوصاً في السنين التي يهمل فيها تنظيف الازقة والشوارع وتقليل اسباب الاستنقاع



أهلها

قال بعض الكتاب ان في دمشق مائتا الف نفس وخالفهم العارفون بها وقالوا انهم ليسوا اكثر من مائة وخمسين ألفاً منهم نحو مائة وثلثين ألفاً من المسلمين ونحو ١٥ ألفاً من المسيحيين وخمسة الاف من اليهود . وقد عدلوا مؤخراً هكذا بحسب أجناسهم عرب ١٢٦,٧٠٠ نفس ومغاربة ٤٢٠٠ واتراك ٤٠٠٠ واكراد ٦٠٠٠ وايرانيون ٦٠٠ وارمن ٦٠٠ وافرنج ويونان ٢٠٠ المجموع ١٤٢ ألفاً و٧٥٠ نفساً . وبحسب مذاهبهم هكذا مسلمون سنية ١١٤,٠٠٠ ومسلمون شيعة ٥٤٠٠ ودروز وغيرهم ٢٥٠٠ وروم ارثوذكس ٧٠٠٠ وروم كاثوليك ٧٠٠٠ ويهود ٥٤٠٠ وارمن كاثوليك ٤٥٠ وسريان كاثوليك ٢٠٠ وموارنة ٢٠٠ وغرباءُ مستوطنون ٢٠٠ وارمن كاثوليك ١٤٠ وبروتستانت ٦٧ ولاتينيون ٥٠ فالمجموع كما تقدم

وفي دفاتر الحكومة ان لواءَ الشام اي دمشق مؤلف من قضاء الشام وهو دمشق نفسها وناحية الغوطة وناحية المرج وناحية وادي العجم وناحية وادي بردى وناحية اقليم البلان وناحية جبل القلمون . وقضاء بعلبك . راجع بعلبك . ذكر هناك ان عدد سكان بعلبك الف نفس فهذا عن دفاتر الحكومة وعددها الآن حسب تعديل العارفين نحو ٧٠٠٠ نفس . وقضاء البقاع العزيز وقضاءِ حاصبيا وقضاءِ راشيا . وفي دمشق ١٢٧٨٠ خانة اي بيتاً أو منزلاً للمسلمين و ٦٤٥ للروم الارثوذكس و٧٠٢ للروم الكاثوليك و ١٤ للارمن الارثوذكس و١٦ للأرمن الكاثوليك و٤٤ للسريان الارثوذكس و٢٢ للسريان الكاثوليك و٢٨ للموارنة و٨ للاتين و ١٠ للبروتستانت و١٧ للاقباط و٢ لليونان و٤١٥ لليهود و٥٢ جامعاً و٧١ مسجداً و١٤ تكية و١٩٤ ضريحاً ومزاراً للاولياء و٢٩ مدرسة و٦ محاكم شرعية و٢٥ كنيسة و ٧٤ مكتباً فيها ١٢٥٧ تلميذاً و٢٨ مكتباً للاناث فيها ٢٩٤ تلميذة و١٩ مكتباً بها ٨٧٥ تلميذاً و٦ مكاتب اناث بها ٢٢٦ تلميذة و١٢ مكتباً لليهود فيها ١٠٧

تلاميذ وقلعة و٦٦٠٦ دكاكين و١٢٩ خاناً و٥٧ طاحوناً و٥٨ حماماً و١١٤ مخزناً ومعمل واحد و١٧٢ قهوة و٥ مصابن و٦١٦ سبيلاً و٩ معامل للنشاءِ ومحل للعجانين و٢٢ معملاً للنقش و١٨ مصبغة و١٩ معصرة و٢ مستشفيات

واما ناحية الغوطة فهي مؤلفة من ٢٨ قرية وهي قابون وفيها ١٢٠ خانة او بيتاً وبرزة ٢١٥ وحرستا البصل ٢١٨ وعربين ٢٩٩ ومديره ٤٢ ومسرابا ٥٢ ودوما ٧٤٩ وقصير ٩٦ وريحانة ٦١ وحوش محمدية ١٢ وحوش الاشعري ٥ وافتريس ٤٧ وبيت سوا ٨٨ وحمورة ١٥٧ وسقبا

وأما ناحية الغوطة فهي مؤلفة من ٢٨ قرية وهي قابون وفيها ١٢٠ خانة وبيتاً وبرزة ٢١٥ وحرستا البصل ٢١٨ وعربين ٢٩٩ ومديره ٤٢ ومسرابا ٥٢ ودوما ٧٤٩ وقصير ٩٦ وريحانة ٦١ وحوش محمدية ١٢ وحوش الاشعري ٥ وافتريس ٤٧ وبيت سوا ٨٨ وحمورة ١٥٧ وسقبا ١٩٢ وكفر بطنا ١٢٠ وجسرين ٧٩ وجديدة الجرش ٤٠ وزبدين ١٠١ ومليحة ١١٦ وبلاط ٥٧ وعقربا ٨٥ وبيت سحم ٧٥ وجرمانا ٩٦ وعين ترما ٦٢ وحزة ٨٦ وزملكا ١٥٥ وجوبر ٢١٥ . وفي هذه الناحية ٢٥ جامعاً و١٤ مسجداً ومقامان للاولياء وكنيسة ومكتبان بهما ٤٠ تلميذاً . وفي ناحية المرج ٤١ قرية وهي شفونية بها ٧٧ خانة وبيتاً واوتايا ٧٢ وبيت نايم ٥١ وبالا ٢١ وحرستا القنطرة ٢٢ وبزينه ٢٩ وخيارة نوفل ١٦ وحوش عرفيض ٢ وعدرة ١٢٦ وميدعا ٢١ ومجارية ٢٥ وغريفة ٦٢ وعبادة ٢٩ وعتيبة ٢٩ وحمار ٢ وقيسا ٥٤ وقاسمية ٢٠ وحزرما ٦١ ومتبن ٤ وخرابو وصالحية ٢ ونشابية ٢٦ وبلاليه ٤٠ ودير سلمان ٦٦ ونوله ٢٢ ودير العصافير ٢٢ وجعيدية ٢١ وحران ٩٠ وكفرين ٤٧ وجديدة الخاصر ٥٢ وهيجانة ٢١ وغزلانية ٧٦ وقرحة ٢٥ وجديدة التركمان ٧٩ ودويرة وسكا ١٨ ودلبه ٢٦ واجل يقين ٤ وفاره ٢ ونجها ٨ وشبعة ٦ . وفي هذه الناحية مسجد ومقامان لوليين و٢١ دكاناً . واما ناحية وادي العجم فيها ٤٤ قرية وهي مزة بها ٢٤٢ خانة أو بيتا وقدم شريف ١٦٤ وكفرسوسة ١٦١ وحوش ريحان وسبينة الصغيرة ٢٢ وسبينة الكبيرة ٦٦ ويلده ٤٧ وببيلة ١٠٦ وحرجلة ٩٥ وقبر الست ٩٨ وبويضة ٨٢ وعادبة ٣٧ وحجيرة ٥٢ وكسوة ٢٥٠ وخيارة دنون ٤٠ زاكية ٨٥ وميراني ٤ ومقيليبة ٢٦ وطيبة ٤٨ ومجبدية ٥ وديرعلي ٤٦ وداريا ٥٨١ وبيت خولاني ١٠ معظمية ١٠٢

واشرفية٧٨ وصحنايا ١٠٥ وكوكب ٢ وجوني ٢ وجديدة ١١٥ وعرطوز ٤٠ وبويضة (جفنلك) أوخان الشيخ ٢ وبيت سابر ٢٢ وسعسع ١٥ وجبات الخشب ٢٥ وسحيتا ١٢ ودير مركر ١٧ وسقحب ١٠ وحوش النفور ١ وحوش الحسَينة ٥ واشرفية ١ وعباسية ٢٨ وكناكر ١٦٢ ودير خبية ٢٩ وفي هذه الناحية ١٤ جامعاً و٢ مساجد و٤ مقامات للاوليا وكنيسة و٥٢ دكاناً . وفي ناحية وادي بردى ٢٧ قرية وهي دمر بها ٩٢ خانة او بيتاً وأدميا٧٤ والهامة ١٢٢ وجديدة ٢٤ واشرفية ٥٤ وبسيما ٥٥ وعين الفيجة ٤٦ ودير مقرن ٢٩ وكفير الزيت ٤١ ودير قانون ١٨ وحسينية ١٩ وكفر العواميد ١٩ وبرهلية١٢ وسوق ٥٧ وحوش محمد ١٢ وبطرونة ٧٢ ومضايا ١٠١ وبقين ١٧ وزَبداني ٤١٢ وعطيب ١٨ وسرغايا ١٥٥وعين حور ١٧ وبلودان ٧٧ وهريرة٢٨ وأفرة ٥٤ ويعفور وراس عين ١٤ وصبورة ٤٢ وبها ٥ جوامع ومقام ولي وكنيسة واحدة . واما ناحية اقليم البلان فيها ٢٢ قرية وهي قطنا فيها ١٥٦ خانة او بيتاً وكفر قوق ١٢ ومبيا أو كفر حور ٢٢ وحينة٤٥ ودربول ١٧ وعين الشعرة ١٥ وبيت جن ٥٢ وحذر ١٣وعرنة ٤٤ وريمة ١٥ وخربة البورة ١٥ وبقعسم ٧ وقلعة جندل ٥٢ وبرقش ١ ورخلة ٩ ودير العشاير ١٩ ودير العشاير أيضاً ٨ وبكا ١٤ وحلوة ١٥ وديماس ٢٦ . وبها جامع واحد ومقام ولي .

وأما ناحية جبل القلمون فيها ٣٨ قرية أكبرها يبرود بها٦٥٠ بيتاً للمسلمين و٨ للروم الأرثوذكس و٢٣٠ للروم الكاثوليك و٨ للسريان و٣ جوامع ومسجدان وكنيستان و٥٠ دكاناً وحمامان وخان و٥ مدارس بها ٣٩٢ تلميذاً وقرية نبك بها ٥٧٧ بيتاً ودير عطية ٤١٢ وجيرود ٧٠٠ ورحيبة ٧٥٠ وعطنة ٤٠ ومعضمية ٤٠٠ وضمير ٤٤٥ وقطيعة ٤٥٠ وسحل ٦٠ وفليطة ٨٠ ومعرة باش ١٠١ وجبة ٨١ وعسال ١٢٠ وحوش العرب ١٥ ورنكوس ١٩٩ وصيدنايا ٣٧٠ وتلفيتة ١١ وحلبون ٥٠٠ ودريج ١٨ ومعربا ١٤٩ وحرنة ٨ وتل ٦٠٠ ومنين ٤٥٠ ومعرونة ٥٠ وحفير التحتا ١٥ ومعرة صيدنايا ١٩ وبدا ٥٠ وحفير الفوقا ٣٠٠ وعكوبر ٣٥ وتواني ١٥٠ وحلا ٥٥ وعين التينة ١٨٠ ومعلولا ٢٩٥ وجبعدين ١٤٠ وبخعا ٤٠ ورأس العين ١٥ وقلودن ٥٠ وقسطل ٥٠ وفي هذه الناحية ٢١ جامعاً و ٤٩ مسجداً و ٥مقامات للأولياء و ١١ كنيسة و ٤ أديرة

و٢٧ مدرسة بها ٢٧٣٠ تلميذاً و٥ خانات و ١٣٢ دكاناً و ٧ حمامات . وأما سائر أقضية لواء الشام فلتطلب أو تراجع في أبوابها . ومنذ القرن السادس عشر جعلت مقاماً لبطريركية الروم الأرثوذكس الأنطاكية . وبها أيضاً مقام بطريرك الروم الكاثوليك الأنطاكي والأورشليمي والاسكندري ومقام مطران السريان ومطران الموارنة الذي يسكن جبل لبنان ويستنيب عنه فيها كاهناً .

ولما كانت دمشق على ما تقدم من جمال المتنزهات كان لا بد أن يقوى في أهلها حب التنزه والانبساط والانشراح ففاقوا بذلك سائر أهل بر الشام وصرفوا إليه عنايتهم وروضوا به أجسادهم بعد تحمل أتعاب الأعمال وخصوا بذلك أياماً يكون فيها الخروج الى الحدائق والجنات أعم مما في سواها وهي سبع ثلاثاوات وسبعة سبوت وخمسة أخماس بداءتها في أول شهر آذار (مارس) أيام أزهار النبات . ففي الثلاثاوات يخرجون الى الصوفانية ويجتمعون على ضفاف الأنهار الجارية تحت أجمل الأشجار ويزورون مقام الشيخ أرسلان . وفي السبوت يتنزهون في المرجة ألوفاً رجالاً ونساء وكانوا في الأيام السابقة يقطعون فيها عن الأعمال الى البسط والانشراح . وفي الأخماس يذهبون الى مكان يسمى بالأربعين في جبل قاسيون . وفضلاً عن ذلك يكون التنزه عندهم عاماً واليوم الثاني عشر من شهر آذار (مارس) ويسمونه يوم النيروز يبكرون فيه بالخروج الى البساتين والحدائق ويرجعون بعد الشروق ببرهة وجيزة . وهم دمثوا الأخلاق وسهلوا الكلام كرماء لطفاء ظرفاء حسان أولو مروة ونخوة وأدب . شأنهم إكرام الضيف وإنجاد الفقراء والمحتاجين :

ما بين جابيها وباب بريدها قمر يغيب وألف بدر يطلع

★

علومها ومعارفها

لم تكن شهرة دمشق في علومها ومعارفها وآدابها وفنونها أقل من شهرتها بجمال متنزهاتها ولطف أهلها وغزارة مياهها وطيبها خصوصاً أيام الدولة الأموية إذ ملأتها بالمدارس والمكاتب وأنفقتها أحوالاً غزيرة في سبيل تعزيز العلم وإعلاء عماده وتوسيع نطاقه وتعميمه ووقفت لبيوته فيها أوقافاً كثيرة فسهل وعره وقرب بعيده واستفحل أمره واشتهر من أهلها كثيرون من العلماء الأعلام الذين ذاع صيتهم في الشرق والغرب وعم فضلهم العجم والعرب . ولم يزالوا على هذه الحال وبضاعة الأدب عندهم رواج الى أن تعاقبت فيها طوارق الحدثان وتكررت صروف الأزمان فكسد سوقها بعض الكساد بالقوة الغالبة وفقدان الأمن والراحة ولم تقدر بلاياها أن تتغلب على عزم أهلها وثباتهم وشجاعتهم في ميدان العلم والمعارف عن أن تسليهم ما فطروا عليه من حب الفضل والأدب ولم يضع قدره عندهم كما ضاع في بعض البلاد المشاركة لهم في ما طرأ عليهم من نكبات الدهر ورزايا الأيام فصانوا كرامته وأجلوا مقامه ونبغ فيها في هذا الزمان علماء جعلوا الاجتهاد شأنهم ونفع الناس ديدنهم بتدريس العلوم الدينية والفقهية والآلية والجد في سبيل جمع أشتات الكتب الكثيرة التي لعبت بها أيدي سبا وسلبتها مطامع الطامعين وجعلت قسماً كبيراً من أوقافها وأوقاف المدارس نسياً منسياً في حوزة غير أربابها . وأما المعارف العصرية والفنون غير الدينية والفقهية وأزهارها الزاهرة وعكفوا على تحصيلها وانكبوا باجتهاد يبشر بأن مدينتهم الفيحاء لا تلبث أن تعيد بضاعتها مع الربح وفي طليعة جيش الطلاب رجال أدركوا شأنها وعرفوا قدرها وعولوا على إحرازها . فالمدارس الدمشقية الإسلامية تدرس العلوم الدينية والفقه والالات فيها نحو سبعمائة طالب خلا الذين يدرسون في بيت العلماء وفي الجوامع . ولتعليم القراءة ٧٤ مدرسة وفيها ١٢٠٠ تلميذ و ٢٨ مدرسة للإناث فيها ٢٤٩ بنتاً . وللحكومة أربعة مدارس رشدية فيها ٢٥٠ تلميذاً ومدرسة حربية إعدادية فيها ستون طالباً ومدرسة حربية كبرى فيها مائة طالب و ٨ مدارس أخر بها نحو ألف ومائة تلميذ وتلميذة ومدرسة للبنات فيها ١٥٠ طالبة .

وأما المدارس التي أنشأها النصارى بها فهي تسعة يومية للروم الأرثوذكس لتعليم العربية والتركية والفرنسوية واليونانية والجغرافية والحساب فيها ٢٩٠ تلميذاً ومدرسة لتعليم القراءة فيها ٤٥ تلميذاً . ومدرستان للروم الكاثوليك أعظمها البطريركية القائمة بمعاونة غبطة البطريرك فيها ٢٥٠ تلميذاً يتعلمون العربية والتركية والفرنسوية وفي الثانية ستون تلميذاً . ومدرسة إنجيلية فيها ١٢٠ تلميذاً يتعلمون العربية والتركية والانكليزية والحساب والجبر والهندسة واللوغرتمات والطبيعيات ونفقتها من مجمع كنيسة ايرلاندة القسية ومدرسة انكليزية للقراءة بها ٥٠ تلميذاً . ومدرسة للسريان الكاثوليك للعربية والفرنسوية بها خمسون تلميذاً وأخرى للأرمن الأرثوذكس للعربية والأرمنية بها ٢٥ طالباً وأخرى للسريان الأرثوذكس للعربية والسريانية بها ٢٥ تلميذاً . وأخرى للرهبان العازريين بها ١٦٠ طالباً يتعلمون الأمور الدينية والعربية والفرنسوية واللاتينية والحساب والتاريخ والجغرافية . ومدرسة للرهبان الفرنسيسكانيين للقراءة بها ٥٠ تلميذاً . ومدرسة إنكليزية لتعليم اليهود بها ٢٥ تلميذاً . يتعلمون العربية والعبرانية والتركية . فهذه مدارس الذكور للنصارى مجموع طلبتها ١١٤٥ وبها ٤١ معلماً .

وأما مدارس الإناث فسبع وهي مدارس الروم الأرثوذكس للعربية والفرنسوية والحساب والجغرافية بها ١٥٠ تلميذة . والمدرسة الانكليزية للعربية والانكليزية والحساب والجغرافية بها ١٢٠ تلميذة . والمدرسة اليسوعية فيها ١٤٠ طالبة يتعلمن العربية والفرنسوية . والمدرسة العازرية فيها خمسمائة طالبة .

والمدرسة الانكليزية لتعليم المسلمات بها ٣٥ طالبة . ومدرسة الكاثوليك في الميدان بها ٦٠ تلميذة . والمدرسة الانكليزية بها ٥٥ طالبة المجموع ١٠٧٠ تلميذة و٣٢ معلمة ونفقتها سنوياً ثلثة آلاف ليرة نصفها من أبناء الوطن والنصف الآخر من الغرباء .

ولليهود ١٢ مدرسة بها ٢٥٠ تلميذاً يتعلمون الأمور الدينية باللغة العبرانية والقراءة العربية البسيطة .

وكانت مكاتب دمشق عديدة كثيرة الكتب طائرة الشهرة عالية الشأن ولكن لم يبق منها إلا القليل . ومنها المكتبة العمرية في المدرسة المسماة باسمها في الصالحية كتبها خط نفيسة نادرة . ومكتبة الشيخ خالد بالقنوات في بيت الشيخ عمر الحضرة كتبها خط . ومكتبة عبد الله باشا في المدرسة المنسوبة إليه كتبهـا خط منهـا تاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين جزءاً . ومكتبة الأشماسية قريبة من الجامع الأمـوي كتبها خط أيضاً . وكانت مكاتب النصارى حاوية كتباً عربياً ويونانية نادرة ولكنها احترقت سنة ١٨٦٠ م وجمع الدكتور بترسن الأميركي مكتبة صغير شاملـة كتـب مفيدة لتكون وقفاً للطائفة الانجيلية لا تزال العناية مصروفة في سبيل توسيعها .

وبها جمعيتان أدبيتان جمعية رباط المحبة وهي فرع من جمعية اتحاد الشبان بلندن غايتها مضادة الكفر والعادات الرديئة وتهذيب الشبان المسيحيين وترسيخ المبادىء الدينية العامة في المذاهب النصرانية كلها فيهم وإعانة المرضى والفقـراء أعضاؤ هـا ٣٨ قانونيين وإكراميين ومراسلين . والجمعية التاريخية للبحث عن الأمور التاريخية أعضاؤ ها أكثر من سبعين .

★

صنائعها

كان لدمشق شهرة صناعية طائرة في الآفاق ولا سيما المنسوج الموشى المنسوب إليها عند الأفرنج . وصناعة الشفار والنصال وسيأتي الكلام عليها . والدهان والنسج والدباغة والتنزيل أو الترصيع بالصدف المعروف بالتطعيم وبغير ذلك وفضلاً عنها الصنائع العادية الكثيرة كالصياغة والحلويات والحدادة والنجارة والخياطة والصياغة والصابون والسروج واللحم وغيرها . وتيمور أول من نكب الصناعة الدمشقية بتخريب المدينة وإجلاء المهرة من أرباب الصنائع . وفي كتاب عجائب المقدور وبعد أن أمست النار تلعب بأنحاء المدينة وتهلك أبنيتها الحسنة الجميلة سار تيمور عنها يوم السبت في ٣ شعبان سنة ٨٠٣ قاصداً الجهة الشمالية التي منها أتى وقد أجلس معه بعض الأعيان وأصحاب الفضل وكل ماهر بفن من النساجين والخياطين والذين يصنعون السيوف البواتر التي اشتهرت بهم دمشق . انتهى . أما الشفار والنصال الدمشقية فطار صيتها في الدنيا ولم يعرفها الأوروبيون إلا بالحروب الصليبية مع أنها كانت مستعملة قبل الميلاد بزمان طويل عند أمم غير متقنة للصناعة المعدنية . وأفرغ أرباب الصناعة في أوربا جهدهم ليكتشفوا كيفية صنعها ولم يحصلوا على المراد إلا منذ سنين قليلة . والظاهر أنه كان يؤ تى بالفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الألومين والسليكا الى الشام من غلكندة في هندستان منذ زمان متوغل في القدم . ولا تزال تصنع النصال في ايران بحسب أصول الصناعة القديمة البسيطة . وكان الدمشقيون يصنعون من هذا الفولاذ نصالاً أي حديداً للسهام والرماح والسيوف والسكاكين صلبة جداً حادة ماضية كثيفة مرنة ذات لمح من لون زاهٍ . وأما أسطحتها المصقولة فمغطاة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبيضاء فضية اللون متحاذية أو متقاطعة على شكل ضميات ليفية متقاطعة في زوايا مختلفة وعلى شكل عقد أو عناقيد . وربا كانت تصنع بوسائل بسيطة ومع ذلك قصر الحاذقون من أرباب الصناعة الحديثة عن أن يصنعوا نصالاً ذات خواص كالنصال الدمشقية النادرة ومرقشة ومديحة مثلها يبدو على سطحها ما هو كالماء واخترعوا طرقاً عديدة

صعبة توصلوا بها الى صنع ما يشابهها . ولكنهم لم يفوزوا باكتشاف الطريقة الموصلة الى المرام إلا بعد امتحانات موسيو بريان والجنرال اتوسوف الروسي منذ نحو ثلثين سنة ولمعرفة تلك الطريقة اطلب سلاح في حرف السين .

وأما المنسوج الموشى المعروف بالديباج وعند الأفرنج باسم دماسكو نسبة الى دمشق . فكان يحاك من الحرير ويرقش بصور الأثمار والأزهار والحيوانات والحقول الزاهرة . ولا يزال ممتازاً بهذا التدبيج وبطريقة حياكته . والديباج الحديث سداه ولحمته غالباً من الكتان أو الصوف أو القطن أو من القطن والكتان . والقطن لا يوافق لأنه غير جميل وغير متين فلا يبقى بياضه على حاله إلا بعد تكرار القصر والاعتناء العظيم . ويحاك دون تقاطع السدى واللحمة بالتعاقب ولكن بعد ثمانية خيوط أو خمسة . وأما صناعة التنزيل أو الترصيع وهي تنقيش الحديد أو الفولاذ بالذهب أو الفضة أو معدن آخر فتسمى بالأفرنجية داما سكين نسبة الى دمشق لأن الأفرنج أخذوها عنها . وهي في الغالب لتزيين السلاح . وتصنع بحفر ثلم عميق في المعدن وحشوه بخيوط ثخينة من الذهب أو الفضة فهذا هو الترصيع الجيد . وأما العادي فيكون سطحياً إذ يسخن المعدن الى أن يزرق ثم تحفر فيه خطوط صغيرة بسكين ويرسم الشكل المطلوب بآلة حادة تعرف بقلم الحفر ثم يمد خط ذهبي أو فضي وينزل في الثلم باعتناء بآلة نحاسية . وأما الآن فيحفر الثلم المذكور بحامض أكَّال لتنزيل الذهب أو الفضة فيه . وأتقن الدمشقيون القدماء هذه الصناعة . وقال المؤرخ هيرودوتس أن مخترعها غلوسيوس من ساقص وقيل أن الدمشقيين اخترعوها أو أوصلوها الى درجة الكمال التي بلغتها عندهم ولم يبق منها غير الترصيع الخشبي بصدف اللؤلؤ وهي صناعة متقنة عندهم .

أما صناعة النسج فضاع شيء منها وحفظ شيء دون أن يحسنوا آلاتها وكانت رائجة جداً قبل دخول البضاعة الأفرنجية الى المشرق وقد أخذ بعضهم يحسنها بعد أن طرأ عليها تأخير عظيم برخص النسيج الأفرنجي بالآلات التي سهلت النسيج جداً وليس في دمشق إلا ألف وستمائة نول لنسج الالاجة و٦٥٠ نولاً لصنع القطن و ٢٣٠٠ نول لحياكة الديما و ١٥٠ لشالات الحرير والقطن و ٢٥٠ للكفيات

الحريرية والقطنية و ٥٠ للفوط والمآزر من حرير وقطن و ٢٠٠ لنسج آخر . مجموع أنوالها ٥٢٥٠ .

وأما صناعة الدهان فتكاد تفقد ولا يزال دهان بيوت كثيرة يدل على إتقان هذه الصناعة فمضى عليه ثلثمائة سنة فيها ولم يطرأ عليه تغير . والراجح أن العرب أخذوا أكثر هذه الصنائع عن أهلها القدماء . وأصبح أربابها يبارون الأفرنج في بعضها .

★

تجارتها ومحصولاتها

كانت دمشق من الأسواق التجارية الرائجة النامية بعد سقوط تدمر إذ تحولت إليها تجارة الهند والعجم والعراق وقصدتها تجارة أوربا . فغزرت ثروتها وعلا شأنها وكان من أعظم أسباب تقدمها اجتماع الحج البري فيها ألوفاً فتكون حينئذ كسوق عامة لتجارة متنوعة كثيرة الرواج . ولم تنحط التجارة فيها إلا في أواسط هذا القرن لما أخذت السفن التجارية تمخر في شرقي البحر المتوسط فخسرت التجارة البرية الجارية بينها وبين القسطنطينية والروم ايلي والأناضول وغيرها . ولما فتحت ترعة السويس نكبت نكبة عظيمة لأنها سلبتها التجارة البرية العراقية والهندية والعجمية وغيرها وقربت طريق الحجاز فقل الحج البري كثيراً بعد أن كان يجتمع فيها نحو ثمانية آلاف نفس ذهاباً وإياباً ويتجهزون فيها للسفر الى الحجاز ويشترون البضائع للتجارة أو ليحملوها هدايا لقومهم وأقاربهم فكان ينفق كل منهم ٥٠ ليرة فتقبض المدينة أربعمائة ألف ليرة أو نصف ذلك على الأقل . وخروج الحج يكون في منتصف شوال ويعود إليها في أواخر صفر وإما الآن فقد قل هذا كثيراً ومع ذلك لا تزال تجارتها ذات شأن ولا تعرف الأشياء التي تخرج منها وتجلب إليها وتباع فيها إلا بالتقريب .

وما يأتي هو تعديل ما يخرج منها الى الأستانة ومصر وسورية وأوربا :

صناف	ثمنه غروشاً	قنطار
نقوع	٩٠٠	٣٥٠
قمر الدين	٢٥٠	٢٥٠٠٠
بزر مشمش	٦٠٠	٣٠٠
انيسون	٩٠٠	٣٠٠
زيت	١٠٠٠	٥٠٠٠
زبيب	٠٢٥٠	٢٥٠٠
جوز	٢٥٠	٢٥٠٠
تنباك	٢٠٠٠	٦٥٠
تبغ	١٠٠٠	٥٥٠
عرق السوس	٥٠	٢٥٠٠
فوة		٣٥٠
صوف مغسول	٢٥٠٠	٢٠٠٠
جلد الماعز	(سعر ٤)	٢٥ ألف جلد
وتر	(سعر ٢)	١٠٠ ألف
حبال وخيطان	٩٠٠	٣٥٠٠٠
قشر قنب	٨٠٠	١٠٠٠
طحين وحنطة	٣٠٠	١٠٠٠٠٠
مربيات ومعاجين	١٥٠٠	٢٥٠٠

أما جلود البقر والخراف فعددها مجهول . والفواكه التي ترسل منها الى أنحاء مختلفة مقدارها مجهول أيضاً وإنما يخرج منها من مصنوعاتها فهو من النسيج المعروف بالالاجة خمسمائة طاقة أي قطعة ثمن الطاقة ٨٥ قرشاً ومن الديما مليون طاقة ثمن

الواحدة ١٧ قرشاً ومن الشالات ٧٠ ألف شالة حريرية وقطنية . ومن الكيفيات تسعون ألف كيفية حريرية وقطنية ومن الزنانير ١٨ ألف زنار حريري وقطني وعشرة آلاف ملاية حريرية وقطنية . ومن الكريشة ٧٣٠٠ طاقة حريرية . فهذه كلها تباع في دمشق وسورية وازمير والأستانة والأقطار المصرية وبغداد والأناضول وغيرها . ويرسل الى أوربا من الخشب المنقش بالصدف المعروف بالمطعم ما ثمنه عشرة آلاف ليرة والزجاج الذي يصنع فيها يباع فيها . ويرسل الى اوربا أيضاً من النحاس المنقوش ما قيمته أكثر من خمسة آلاف ليرة ومن الصيني بعشرة آرف ليرة ونيف . وأما الأشياء التي ترد دمشق فهي كثيرة متنوعة مجهولة المقدار .

★

تاريخها

مرَّ في الكلام على جغرافية دمشق أقوال المؤرخين عن بانيها . وأول ذكر لدمشق في سفر التكوين ورد عند الكلام على ابراهيم . وفي الإصحاح الخامس عشر منه العدد الثاني ما نصه .

قال ابرام (أي ابراهيم) اللهم يا رب ما تعطيني وأنا منصرف عقيماً وقيم بيتي اليعازر الدمشقي. ويستفاد من اسم اليعازر ومن وقول يوسيفوس المؤرخ أنها مدينة آرامية وأنها كانت حاضرة سامية . وقال نيقولاوس الكاتب الدمشقي أن ابراهيم أقام مدة بعد خروجه من أرض حاران وقبل دخوله أرض الميعاد وأنه ملك عليها أثناء سكناه فيها . وكان اسم ابراهيم مشهوراً في دمشق في أيامه والدمشقيون يقولون أنه كان يسكن قرية قريبة من المدينة باسمه . فلو ملك عليها لسكنها . ولا ذكر لدمشق بعد ذلك إلا في أيام داود لما جاء أراميو دمشق لنجدة هدد عازر ملك صوبة فقتل داود من الأراميين ٢٢ ألفاً . فاستولى على البلاد وأقام محافظين في أرام دمشق

فكان الأراميون عبيداً لداود يودون الجزية (١ صموئيل ٨ : ٥و ٦ و ٢ أيام ١٨ : ٥) وقال نيقولاوس المذكور أن ملك دمشق أوانئذ كان هدد وكان مالكاً جميع سورية خلا فينيقية وذكر حملته على داود وانتشاب القتال بينهما مراراً فدارت عليه الدائرة أخيراً على ضفة الفرات . وفي تاريخه أن هدد الأول خلفه ابنه وسمي باسمه وكذلك نسله على عشرة أجيال . ولا ينطبق هذا الخبر على ما جاء في التوراة . وكان رزون بن الياداع قد هرب من عند مولاه هدد عازر لما ظفر به داود ففي أيام سليمان جمع رزون إليه رجالاً وصار رئيس غزاة وانطلقوا الى دمشق وأقاموا بها وملكوا فيها فصار رزون فاتناً في اسرائيل كل أيام سليمان فضلاً عن شر هدد وأعنت اسرائيل وملك على ارام . وبعد ذلك استردت عائلة بنهدد العرش وحالف ملك اسمه بنهدد بعشا ملك اسرائيل على مقاومة آسا فبنهدد هذا ربما كان بنهدد الثالث الذي ذكره نيقولاوس أي حفيد عدو داود المار ذكره (١ ملوك ١٥ : ١٩ . و٢ أيام ١٦ : ٣) ثم حالف آسا على بعشا (١ ملوك ١٥ : ٣٠) وحمل على بلاد اسرائيل في أيام عمري وفتح عدة مدن وضمها الى مملكته والظاهر أنه تسود على السامرة نفسها إذ بنى فيها أزقة . وخلفه ابنه هدد الرابع وهو بنهدد الثاني المذكور في التوراة وابن ادري المذكور في اثار اعور الذي حمل على احاب ملك اسرائيل ومعه ٣٢ ملكاً وحصر السامرة (١ ملوك : ٢ : ١) ولم يظفر به وعقبت ذلك حروب كثيرة ظهر بها الاسرائيليون ثم أسر بنهدد وأجبر على معاهدة ملك اسرائيل وعلى رد المدن التي أخذها أبوه وخضع لسيادته بعد أن كان سائداً عليه وبعد ذلك بثلث سنوات استؤ نفت الحرب لادعاء احاب براموث جلعاد (١ ملوك ٢٢ من ١ الى ٤) فانكسر اخاب ومات فيها وتمكن الدمشقيون السريان من العود الى المهاجمة فعاثوا في البلاد وحصروا السامرة . وفي سفر الملوك الثاني ٦ : ٢٤ و ٧ : ٦ الى ٧ خبر رجوعهم عنها بأعجوبة ولم يحملوا بعد ذلك على اسرائيل . وظهر من الكتابات في الآثار أن فاتحاً عظيماً وجباراً عنيداً حمل على بنهدد في آخر أيامه طالباً تسلط آشور على سورية وفلسطين . وحمل على بنهدد ثلث مرات وكان الفينيقيون والحثيون وغيرهم يعاونون بنهدد ومع ذلك لم يقدر أن يدفعهم فانكسر جيشه تكراراً وهلك عشرون ألفاً من رجاله فتقوى حزائيل عبد بنهدد بهذه الحوادث وقتل مولاه واختلس ملكه وتمت بذلك نبوة اليشع . وربما رأى أن السوريين يرضون بخلع ملك تكاثرت مصائبهم

في أيامه ولم ينتفع السوريون بهذا التغيير . ففي نحو سنة ٨٨٤ ق م بعد تبوإ حزائيل العرش بزمان قصير حمل على الأشوريون عليه وهزموه في عقاب الجبل وقتلوا خلقاً كثيراً من عساكره . وفاز بحروب أخرى فدفع عن راموت جلعاد جنود اخزيا ملك يهوذا ويورام ملك اسرائيل المتحدين عليه (٢ ملوك ٨ : و ٢٨ و ٢٩) وعاث في أراضي اسرائيل في شرقي الأردن (٢ ملوك : ١ .٣٢ و ٣٣) وحصر جت وفتحها (٢ ملوك ١٢ : ١٧) وتهدد أورشليم فلم تنجُ إلا بدفع غرامة وافرة . (٢ ملوك ١٢ : ١٨) وتسود على اسرائيل الى أن مات وخلفه ابنه بنهدد (٢ ملوك ١٣ : من ٣ الى ٧ و ٢٢) وفاز في أول أمره كأبيه وظلم اسرائيل كما ظلمهم أبوه وضم عدة مدن اسرائيلية الى أملاكه (٢ ملوك ١٣ : ٢٥) الى أن ظهر مخلص اسرائيل يوآش بن بواحاز وأخذ من يد بنهدد بن حزائيل المدن التي كان أخذها من يد بواحاز أبيه في الحرب وضربه يواش ثلث مرات واسترد مدن اسرائيل (٢ ملوك ١٣ : ٢٥) وفي أيام خلفه فاز الاسرائيليون بأمور أخرى فإن يربعام الثاني فاز في نحو سنة ٨٣٦ ق م باسترجاع دمشق (٢ ملوك ١٤ : ٢٨) فلا بد أن يكون فتحها أو اكتسب حقوقاً فيها . وبعد هذا تنقطع أخبار دمشق زماناً طويلاً فيستنتج من ذلك أن السوريين كانوا مسالمين للاسرائيليين فيه . وذكروا بعد ذلك في نحو قرن سنة ٧٤٢ ق م محالفين لاسرائيل في قتال يهوذا (٢ ملوك ١٥ : ٣٧) ولعل سبب اتحاده بعد عداوة طويلة التزامهم بالتعاون لدفع الأشوريين الذين كانوا يتقدمون بثبات الى صوبهم . وذكرت التوراة حملة فول (٢ ملوك ١٥ : ١٩ و ١ أيام ٥ : ٢٦) وحملة تغلث فالأسر (٢ ملوك ٢٥ : ٢٩ . و١ أيام ٥ : ٢٦) والمظنون أن جميع ملوك أشور حملوا على سورية وفلسطين . وعند توقف الحروب الأشورية برهة اتحد رصين ملك دمشق وفاقح ملك اسرائيل على مهاجمة أورشليم لخلع أحاز وإقامة ملك ينقاد إليهما (أشعيا ٧ : ١ الى ٦ . و٢ ملوك ١٦ : ٥) وربما اتهموا أحاز بمجاراة أشور أو قصد إنشاء قوة قادرة على مصادمة أشور ولم ينجحا بل قربا ضرراً كانا يرغبان في إبعاده . وفتح رصين ايلة وكان قد بناها عزريا ملك يهوذا في أرض عدّت من أملاك سورية (٢ ملوك ١٤ : ٢٢) فاستردها رصين (٢ ملوك ١٦ : ٦)فالتزم أحاز أن يلجأ الى ثغلث فلأسر مستنجداً راضياً بأن يكون من الملوك الخاضعين لسيادة أشور (٢ ملوك ١٦ : ٧ و ٨) فأنجده فقتل رصين وانتهت المملكة الدمشقية وخربت

دمشق ونقل سكانها الى أشور (أشعيا ٧ : ٨ وعاموس ١ : ٥) ولم تنهض دمشق من هذا الخراب إلا بعد ذلك بزمان طويل وكان قد تنبأ أشعيا وعاموس على ذلك إبان مجدها وقال أولهما هو ذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم (أشعيا ١٧ : ١) وقال الثاني من أجل ذنوب دمشق الثلثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد فأرسل ناراً على بيت حزائيل فتأكل قصور بنهدد وأكسر مغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة آون وماسك القضيب من بيت عدن ويسير شعب أرام الى قير (عاموس ١ : ٣ و ٤ و ٥) وقال إرميا النبي عنها ارتخت دمشق والتفتت للهرب . أمسكتها الرعدة وأخذها الضيق والأوجاع كماخض . كيف لم تترك المدينة الشهيرة قرية فرحى لذلك تسقط شبانها في شوارعها وتهلك كل رجال الحرب في ذلك اليوم يقول الرب . وشعل ناراً في سور دمشق فتأكل قصور بنهدد (إرميا ٤٩ : ٢٤ الى ٢٧) ولا يعرف زمان ترميمها . وقال استربوان المؤ رخ أنها كانت أشهر مدن سورية في الدولة الفارسية . وقبل معركة أسوس بعث داريوس إليها خزائنه وجواهره ليطمئن عليها ثم صارت محلاً يونانياً عظيماً لا يفوقه إلا إنطاكية .

وخضعت دمشق للأشوريين الى سنة ٧٢١ حين استولى البابليون والفرس عليها . ثم جاهر أهلها مع سائر السوريين بالعصيان على بختنصر ملك بابل فدوخها بعد أن أحرق المراعي والحقول وقتل المواشي وسبى كثيرين من أهلها. ثم خضعت لملك مادي بتسلطه على بابل . وسنة ٣٢١ ق م استولى الاسكندر ذو القرنين عليها . ثم صارت من مملكة السلوقيين اليونانية الى زمن استيلاء الرومان عليها سنة ٦٤ ق م . وأما أخبار الغسانيين فيها تطلب في غسان . وسنة ٥٩ ق م قتل فيها كثيرون من الاسرائيليين والسبب في ذلك أن بعض أعيانهم حاولوا الانخراط في عضوية الديوان الروماني فقاومهم السوريون فثاروا في دمشق وقتلوا خلقاً كثيراً من السوريين فأمر الوالي بهم فاوقع جنده بهم وقتلوا كثيرين واحرقوا منازلهم . وفي نحو سنة ٢٠ ق م عاد الاسرائيليون اليها . وبعد صعود المسيح بمدة وجيزة جاءَها حنانيا ودعا الى النصرانية فأجاب بعضهم دعوتهُ وفي نحو سنة ٢٧ للميلاد اتاها بولس وكان مستولياً عليها وقتئذٍ مؤ قتاً الحارث الغساني العربي حمو هيرودوس الكبير . وفي ايام الامبراطورين الرومان كانت من اعظم ترسانات

الامبراطورية في اسيا وسماها يوليانوس عين الشرق كلهِ . ولما تنصرت الدولة الرومانية ذاعت النصرانية في دمشق وأمر ثيودوسيوس بابطال عبادة الاصنام . وفي ايام ابنهِ اركاديوس هدم بعض الهيكل فرممهُ وجعلهُ كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان . وفي برهة وجيزة تنصر أهلها جميعاً خلا الاسرائيليين منهم . وسنة ٥٤٠ للميلاد فتحها الفرس ودمروا كثيراً من ابنيتها . وعادت بعد برهة قصيرة الى المملكة الرومانية وكان عمالهم فيها بنو غسان . وسنة ٦٢٢ ميلادية فتحها المسلمون على مامر بك واستعمل عليها عمر معاوية بن ابي سفيان وكانت مدة امارتهِ عليها عشرين سنة . وسنة ٤١ هجرية بايعهُ الناس بالخلافة فهو مؤسس الدولة الاموية التي جعلت دمشق قاعدة الممالك الاسلامية راجع امية في الجزء الرابع وجه ٤١٩ . وظلت كذلك الى سنة ١٢٢ هجرية اي من سنة ٦٦١ الى سنة ٧٤٩ ميلادية . وعظمت دمشق في ايام هذه الدولة وتفخم امرها وعلا شأنها وزهت وبلغت اسمى درجات الحضارة بالعلوم والمعارف والانتظام والترتيب والفنون والزراعة والتجارة والبناء . فخلفت تدمر في الشأن والعظمة واصبحت مقصداً للناس وملجأً للمظلومين ايام عدة من الخلفاء الامويين الذين اراحوا النصارى والاسرائيليين وجعلوا بعضهم في ارفع المناصب ومنهم القديس يوحنا الدمشقي وولدهُ . فالذين ملكوا في دمشق من اولئك الخلفاء ١٤ أولهم معاوية واخرهم مروان الثاني ولم تعد اليها خلافة بعد ذلك .

وفي ٥ رمضان سنة ١٢٢ هجرية حصر دمشق عبد اللّه بن علي قائد عساكر السفاح من بني العباس بعد ان هزم عساكر مروان شر هزيمة وشدد عليها وحارب عساكرها مدة الى ان تمكن من فتحها عنوة وقتل كثيرين من اهلها من جملتهم الوليد والي المدينة واستولى عليها . ثم جاهر اهلها بالعصيان على السفاح فساق عليهم عساكرهُ وارجعوهم الى ربقة الطاعة . فهدمت ابنية كثيرة من ابنيتها الفاخرة واخذت في الانحطاط وصارت قصبة معاملة بعد ان كانت قاعدة الممالك الاسلامية

---

(١) يلاحظ اعتماد النص على المصادر التوراتية التي اساسها التوراة كتاب اليهود الذين دونوا تاريخهم وفق اهوائهم .

كلها . واستعمل السفاح عليها عمهُ عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن عباس . ولما خلف المنصور السفاح ادعى عبد اللّه هذا الخلافة على الشام فتغلب المنصور عليهِ واستعمل على الشام غيره . وسنة ١٧٦ وقعت فتنة فيها بين المضرية واليمنية استمرت اربع سنوات . وبعد خمود نيرانها ضمت الى ولاية مصر . وسنة ٢٢٧ عاث القيسيون فيها وافسدوا فدوخهم الخليفة الواثق وقتل منهم ١٥٠٠ . وجاءَها المتوكل سنة ٢٤٢ ونقل دواوين الملك اليها ولكنهُ استوبأها واستثقل ماءَها فرحل عنها بعد ان اقام فيها شهرين واياماً وسنة ٢٥٢ عصى بها عيسى بن الشيخ العامل في الرملة بعد ان تغلب عليها مدة . ولما تقوى احمد بن طولون في مصر عصى العباسيين واستولى على دمشق وحكمها قومهُ . وسنة ٢٧٠ خرجت من طاعة خمارويه بن احمد بن طولون فأخضعها . ثم انجدتها عساكر بغداد ودخلتها سنة ٢٧١ وتبعتهُ الى الرملة وقاتلتهُ فدارت الدائرة عليهِ . غير انهُ لمَّ شعثهُ واستأنف القتال وظفر بعساكر المعتضد البغدادية فتقهقرت الى دمشق فلم تقبلها اهلها فرحلت عنها وعادت الى طاعة خمارويه . وسنة ٢٨٤ استبد طفج في دمشق بعد اختلال حال هارون الطولوني في مصر . وسنة ٢٨٩ قاتل القرامطة وانكسر فتغلبوا على دمشق وصالحهم اهلها على مال فانصرفوا عنهم . وسنة ٢٩٢ استولى عليها المكتفي ولما غاب عاملها في مصر قصدها القرامطة ونهبوها وقتلوا خلقاً كثيراً . وسنة ٢٢٧ استبد بها ابن رائق فقاتلهُ عليها الاخشيد وبعد حروب عديدة استقرت الشام لابن رائق وسنة ٢٢٢ حمل عليها سيف الدولة الحمداني وحاصرها وارتد عنها ثم استولى عليها لما حكمها كافور بالوكالة عن ابي القاسم محمود بن الاخشيد . ثم اخرجهُ اهلها لطمعهِ بالغوطة وجعلوا كافوراً عليهم فاستولى على دمشق بدر الاخشيدي . ومات كافور سنة ٢٥٧ وخلفهُ ابو الفوارس احمد بن علي بن الاخشيدي وفي السنة الثانية من ولايتهِ سير المعز العلوي جيشاً كبيراً عليهِ جعفر بن فلاح فظفر بالمدينة ونهب بعضها واقام الخطبة فيها للمعز لدين اللّه العلوي وقطع الخطبة العباسية وذلك في محرم سنة ٢٥٩ . فنشأ عن ذلك فتنة بين اهلها وبين جعفر تبعتها حروب عنيفة ثم قطعوا الخطبة العلوية . ثم عاد اليها جعفر وتغلب عليها وارجع الخطبة العلوية . وجاءَها القرامطة سنة ٢٦٠ وقتلوا جعفراً في ظاهر المدينة واستولوا عليها . وسنة ٢٦٢ ظفر المعز لدين اللّه بالقرامطة وسير اليها ابن موهوب العقيلي فدخلها وعظم امرهُ فيها وما لبث ان ثارت

فتنة بين المغاربة وبينهُ فاستمرت الى سنة ٣٦٤ فولي حينئذٍ عليها ريان الخادم . وسنة ٣٦٥ وافق اهلها افتكين احد موالي عز الدولة على خلع اميرهم ريان فاستبد بها وقطع خطبة الخليفة وتغلب على عساكر العزيز بانضمام القرامطة اليهِ . فقصدهُ العزيز بنفسهِ وقاتلهُ فركن الى الفرار ثم سلم فاكرمهُ العزيز الى ان مات افتكين . واستعمل العزيز في الشام قساماً من اتباع افتكين ودفع ابا تغلب عن دمشق . ثم عصت على العزيز فارسل بكتكين لتدويخها فظفر بقسام واسرهُ وملك فيها وسنة ٣٧٣ ولى العزيز عليها بكجور فضجر اهلها من سوءِ تصرفهِ وشكوه اليه فارسل منيراً الخادم في جيش ليعزلهُ فحاربهُ وظفر بهِ وتآمر في دمشق . وسنة ٤٥٥ تزلزلت بلاد الشام فخرب كثير من بلدانها وفي نهاية الزلزلة ارسل المستنصر بدراً والياً على دمشق فرحل عنها لمقاومة اهلها لهُ . وفي فتنة سنة ٤٦١ وقعت فتنة بين المغاربية والمشارقة فاتصلت نار بالجامع الاموي فاحترق . وسنة ٤٦٧ رجع السلطان الب ارسلان خائباً عنها بعد ان حصرها وضايقها . وعاد اليها سنة ٤٦٨ فملكها وقطع الخطبة العلوية فيها واقام الخطبة العباسية . ولم يخطب للعلويين فيها بعد ذلك وصارت للسلاجقة وسنة ٤٧٠ فتحها العلويون فانجدها تتش صاحب حلب وهزمهم . واستأنفوا الحصار سنة ٤٧٨ دافع تتش عنها فارتدوا عنها . وسنة ٤٨٨ استولى عليها ابنه دقاق بعد نزاع طويل

ولما احتل الافرنج طرابلس الشام وذلك سنة ٥٠٢ رحل كثيرون من اهلها الى دمشق . و٥٠٨ اتاها ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين واتفق مع واليها طغتكين على الكتابة الى الافرنج والاعتضاد بهم ثم نقض طغتكين العهد وسنة ٥٢٠ نزل الافرنج في المرج الصغير عند قرية شقحب فقاتلهم طغتكين وانهزم . ثم جاءَها بهرام الاسماعيلي البغدادي ودعا اهلها الى مذهبهِ فتبعهُ خلق كثير واستفحل امرهُ فقاطعهُ الوزير طاهر بانياس وملك عدة حصون في الجبال . ولما قتل خلفهُ اسماعيل الاسماعيلي وجعل أبا الوفاء الاسماعيلي على دمشق عوضاً عن بهرام فعظم امرهُ وكاتب الافرنج بان يسلمهم دمشق فيعطونهُ مدينة صور فأجابوه فعلم تاج الملوك بوري ابن طغتكين بذلك فأمر بقتل جميع الاسماعيلية الذين في دمشق فقتل اهلها منهم ستة آلاف شخص . ولم يلاقِ الافرنج ما املوا عندما بلغوها فحصروها

وعجزوا عن فتحها فارتدوا فناثرهم تاج الملوك وقتل منهم كثيرين . وسنة ٥٢٩ تولاهاشهاب الدين محمودأخو اسماعيل بن تاج الملوك فحمل عليها عماد الدين زنكي صاحب حلب وضيق عليها ولم ينل منها ارباً فصالح اهلها وارتد عنها . واستأنف حصارها سنة ٥٢٢ بعد الزلازل فمات حينئذٍ جمال الدين محمد اخو شهاب الدين وخلفهُ عليها مجير الدين فالزم زنكي بالرجوع عن المدينة . وسنة٥٤٢ حصرها الافرنج الصليبيون وكان على تدبيرها معين الدين اتز فأنجدهُ سيف الدين غازي صاحب الموصل ووقع الشقاق بين الافرنج فحبطت مساعيهم وارتدوا عنها بعد ان كانوا موملين بان ينالوا سائر البلاد بامتلاكها ويأمنوا هجمات المسلمين . وكان ملك الالمان من المحاصرين فكاتب اتز افرنج الشام بأن يعطيهم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الالمان واشاروا عليهِ بالرحيل وخوفوهُ من امداد المسلمين فرحل عنها وعاد الى بلادهِ وسلمهم اتز القلعة . وخسرت دمشق في هذا الحصار القائد المشهور نور الدولة شاهنشاه ابن ايوب اخا السلطان صلاح الدين الايوبي . وسنة ٥٤٤ خشي نور الدين صاحب حلب نفوذ الافرنج في دمشق وان يملكوها فاستمال اهلها سراً وحصرها ففتحوا لهُ الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين صاحبها في القلعة ثم صالحهُ على قطائع لم يعطها لهُ بل اعطاهُ غيرها فلم يرضَ . فجعل نور الدين عليها اخاه نجم الدين ايوب الذي شاد المدارس وروج العلم وابطل المكوس وعدل في الرعية . وكانت اعمالهُ من اسباب تقوية صلاح الدين الايوبي مؤسس الدولة الايوبية ومات وهو على همة الحمل على مصر لامتناع صلاح الدين عن طاعته وخلفهُ ابنهُ الملك الصالح اسمعيل ولهُ من العمر ١١ سنة فدبر الامور الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم . واطاعهُ صلاح الدين بمصر وخطب لهُ وضرب النقود باسمهِ . ولما سار الملك الصالح الى حلب وكان في حلب سعد الدين كمشتكين متغرباً من الملك خافهُ أمراء دمشق فدعوا الملك صلاح الدين الى الملك عليهم فأجاب فملك المدينة دون القلعة وكان فيها خادم اسمهُ ريحان من قبل الملك الصالح اسمعيل واستمالهُ الملك صلاح الدين بالمراسلة فسلمهُ القلعة ثم استعمل عليها اخاهُ سيف الاسلام طغتكين بن ايوب . ولما فتح البلاد صالحهُ الملك الصالح اسمعيل على ان يبقى الذي فتحهُ في يده فأبى الاّ ان تكون الخطبة والسكة باسمهَ وهكذا تم . ثم عزل اخاهُ عن دمشق وجعل عليها اخاه عز الدين فرخشاه وسنة

٥٧٧ سار بجنوده من دمشق لمحاربة البرنس دي شالتيليون صاحب الكَرك الذي سار قاصداً فتح الحجاز فانكسر وعاد الى دمشق وبقي الملك صلاح الدين في مصر يشن الغارة ويفتح البلاد ويدوخ الافرنج الى ان هادنهم وعاد الى دمشق ومات في قلعتها سنة ٥٨٩ بالحمى . وهذا الملك هو مؤسس الدولة الايوبية وبعد وفاتهِ قسمت المملكة بين اولاده واخوتهِ فكانت دمشق للملك الافضل نور الدين علي . سنة ٥٩٠ حصرها العزيز اخو ملكها لوحشة وقعت بينهما ثم اصطلحا وسنة ٥٩٠ عاد العزيز الى محاربة اخيه فأعانهُ وردهُ الى مصر ولولا الصلح لاستوليا عليها . وسنة ٥٩٢ استلمها العزيز وعمهُ العادل لان الملك الافضل لم يحسن السياسة فضعفت المدينة فأخذت منهُ واعطيت للعزيز صاحب مصر . وسنة ٥٩٤ مات العزيز فسار اليهِ الافضل فاشير عليهِ باسترداد مصر من العادل فجمع جنداً وقاتل صاحبها فانكسر وفر الى مصر فتبعهُ العادل صاحب دمشق واستقل بالمملكة في مصر وخلف عنهُ في دمشق ابنهُ شرف الدين عيسى . واتحد الظاهر صاحب حلب مع الافضل وحصرا دمشق فاختلفا لما اوشكا يفتحاها رجعا عنها . وسنة ٥٩٢ زلزلت سورية فاندكت مدن كثيرة من مدنها . ورمم العادل قلعة دمشق بعد ان هدمت بعضها الزلازل والحروب . وسنة ٦١٤ خلع عليهِ الخليفة وقلدهُ البلاد التي كان مستولياً عليها فخاطبهُ الناس بالعدل شاهنشاه امير المؤمنين اي ملك الملوك . ولما مات خلفهُ ابنهُ عيسى وخلف هذا ابنهُ الناصر صلاح الدين داود . ولما ضايقهُ الكامل استنجد عمهُ الاشرف فأجابه وسار الى نابلس واسترجعاها منهُ فلبث الناصر بها وذهب عمهُ الاشرف الى غزة ساعياً بمصالحهِ مع الكامل . فعوضاً عن ذلك تعاهدا بان تكون دمشق للاشرف وهو يعوض عنها للاشرف بعض بلاد من بلادهِ . فساءَ ذلك الناصر وعاد الى دمشق فحاصرهُ فيها عمهُ الاشرف وعاونهُ الكامل عليها وفتحها عنوة بعد العناءِ واقطع الناصر عوضاً عنها واقام الاشرف فيها الى ان مات وشاد الابنية الجميلة فيها . وخلفهُ اخوهُ الصالح اسمعيل . ثم حمل الكامل على دمشق وحصرها فاحرق الصالح اسمعيل حي العقيبة خارج السور في الجهة الشمالية الغربية فسلم الصالح اسمعيل المدينة لاخيهِ . وخلفهُ فيها يونس بن مودود بن الملك العادل ابي بكر نائباً عن ابن عمهِ صاحب مصر . وسنة ٦٢٦ سلم يونس المدينة الى أيوب ابن الملك الكامل فاقطعه غيرها . وسنة ٦٢٧ حمل الصالح اسمعيل صاحب بعلبك على

دمشق واستولى عليها وقبض على المغيث فتح الدين بن ايوب الذي كان عاملاً عليها . وسنة ٦٤٢ حصر صاحب مصر دمشق فسلمها الملك الصالح اسمعيل الصالح ايوب صاحب مصر. وكان الخوارزمية مساعدين لهُ طمعاً بالقطائع ولما خاب املهم انحازوا الى الصالح اسمعيل وانضم اليهم صاحب الكرك وحملوا جميعاً على دمشق وضايقوها وشددوا عل أهلها جداً وطال بلاؤ هم فاتفق الحلبيون واهل حمص مع الصالح ايوب ودفعوا الخوارزمية عنها فضعف الصالح اسمعيل ورجع عنها . وابى الدمشقيون مبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح ايوب والدة الملك المنصور خليل وكاتبوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب من سلالة صلاح الدين الايوبي فسار اليها سنة ٦٤٨ وملكها . ثم جهز لمحاربة الاشرف في مصر وانكسرت عساكرهُ عند العباسية ولكنهُ ردهم عن القاهرة واستولى على غزة. وسنة ٦٥١ تصالحوا على ان يكون للمصريين الى الاردن وما وراءَهُ للناصر وسنة ٦٥٢ جددوا عهداً بان يكون لصاحب دمشق الى العريش وما وراءَها جنوباً للمعزاييك صاحب مصر . وسنة ٦٥٦ استولى التتر على بغداد وانقرضت دولة بني العباس . ووقع الوباءُ في أرض الشام ولاسيما دمشق حتى لم يكن فيها مغتسل للموتى . ولما رأى الملك الناصر صاحب دمشق ان أمر التتر يتقوى في بغداد راسل هولاكو صاحبهم وبعث إليه بالهدايا . ولما صالح الناصر المغيث صاحب الكرك عاد إلى دمشق فبلغه وصول التتر إلى حلب وإيقاعهم بها فرحل بجنودهِ نحو مصر فملك التتر بلاد الشام وتسلموا دمشق من أهلها بالامان فلم يضروا بها وجعلوا على قضائها محيي الدين الذكي . ولم تسلم القلعة فحصروها ثم تسلموها بالامان واعتقلوا محافظها ونهبوها وخربوا اسوارها . وسنة ٦٥٨ أوقعوا بالنصارى ونهبوا بيوتهم لانهم قرعوا الناقوس وهدموا الكنيسة المريمية فاشتد الوبال على المسيحيين فيها . وفيها حاربت العساكر المصرية التتر في الغور فانكسروا شر كسرة وفني أكثرهم ودخل الملك المظفر دمشق ففرح المسلمون فأمر بشنق المنتمين الى التتر ثم استناب الامير علم الدين سنجر الحلبي على دمشق وعاد الى مصر . وشرع النائب يرمم القلعة ولما قتل الملك المظفر بايع الدمشقيون الامير علم الدين ولقب نفسهُ الملك المجاهد وخطب لهُ بالسلطنة وضربت السكة باسمهِ . وسنة ٦٥٩ سار الملك المنصور واخيه الافضل صاحب حمص الى دمشق ونزلا بدورهما وفيها نازل الملك الظاهر بيبرس دمشق فلاقاهُ

صاحبها الملك المجاهد فانهزم ولجأ الى القلعة ولما جن بهِ الليل ركن إلى الفرار فأسر . فصارت دمشق ملكاً للظاهر بيبرس وخطب له فيها . وانتهت بهِ الدولة الايوبية في دمشق واستولى المماليك عليها واستقر ايدكين البندقداري الصالحي بها وعاد المنصور إلى حماه والاشرف إلى حمص

وبعد ان استولى بيبرس على دمشق ببرهة وجيزة أُتي برجل الى مصر وادَّعى انهُ من بني العباس فقصدهُ بيبرس وسار معهُ الى دمشق وانزلهُ في الصالحية وبعد ذلك بأيام قليلة سار هذا الرجل الى بغداد قاصداً الاستيلاء عليها فقتلهُ التتر في الطريق وفرقوا قومهُ وسنة ٦٧٦ توفي بيبرس في دمشق ودفن بالقرب من الجامع وخلفهُ ابنهُ الملك السعيد علي . وسنة ٦٧٨ خلع بشرط بقاء الكرك لهُ وخلفهُ أخوهُ ولهُ مَن العمر سبع سنوات وخلع فيها وخلفهُ قائد جيوشهِ وسمي السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي . وطمع حينئذٍ نائب المملكة سنقر بالمملكة فبايعهُ الامراءُ والعساكر ولقب الملك الكامل شمس الدين سنقر فساق قلاوون العساكر عليهِ فكسر وفر ملتجئاً الى التتر . وسنة ٦٨٠ جاءَ قلاوون وقتل قوماً من الظاهرية كان قبض عليهم في بيسان . وكان جيش التتر يدنو من الشام ولما حاربهم انكسر أولاً ثم بدد شملهم . وسنة ٦٨٢ بليت دمشق بسيل عظيم هدم العمارات واقتلع الاشجار واغرق خلقاً كثيراً ومالا يحصى من الخيل والجمال والماشية . ومات قلاوون سنة ٦٨٨ وخلفهُ ابنهُ الملك الاشرف صلاح الدين خليل الذي طرد الافرنج من جميع البلاد وانتهت بانتصاراتهِ الحروب الصليبية . وسنة ٦٩٢ قتل وخلفهُ أحد قتلتهِ وقتل بعد توليه بساعات وخلفهُ السلطان الاعظم الملك الناصر ابن صلاح الدين خليل . وسنة ٦٩٤ خلع وخلفهُ الامير زَين الدين كتبغا المنصوري ولقب نفسهُ الملك العادل واتى دمشق واستناب عنهُ مملوكهُ سيف الدين غرلو وعاد بعسكره الى مصر فلقبه نائبهُ فيها لاجين وقصد خلعهُ فعاد هارباً الى دمشق ولم يوافقهُ عسكرها على محاربة لاجين فخلع نفسهُ وراسل لاجين طالباً الامان فأمنهُ وأعطاهُ صرخد . فتبوأ العرش ولقب الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ثم قتل وارجع الملك الناصر . وسنة ٦٩٩ ظفر التتر تكراراً بعساكر البلاد وغزوا دمشق وساروا بأثرهم الى القدس وغزة والكرك . وسنة ٧٠٨ خلع الجاشنكير السلطان وخلفهُ بموافقة أمراء مصر والشام

ولقب الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري . ثم ابتعد عنهُ عسكر دمشق ودعوا السلطان المخلوع فأتاها واستناب عنهُ فيها سيف الدين تنكز . وكان محباً للاصلاح والعمران فرمم باب توما ووسع الطرقات . واحترق جانب من دمشق في أيامهِ مرتين فاتهم النصارى فعذبوا وغرموا واستمرت دمشق خاضعة للمماليك الاتراك المصريين الى ان انقرضت بقيام الملوك الجراكسة

أما أول الملوك الجراكسة فهو الملك الظاهر برقوق وهو ابو سعيد برقوق بن انس بن عبد اللّه الجهاركسي الاصل تبوأ العرش سنة ٧٨٤ . وسنة ٨٠٢ حمل تيمور المغولي على دمشق . وكان قد فر بعض أهلها خوفاً منهُ . ولما سمع السلطان في مصر بما فعل تيمور بحلب سار بعساكرهِ الى دمشق وحصنها وأخذ ينتظر قدوم تيمور . ولما قدم هزم عساكرها في ظاهرها وقتل أكثرهم . ولما رأى تيمور منعة دمشق عمد الى الحيلة وارسل ابن اختهِ الى السلطان الناصر في المدينة مدعياً عداوة خالهِ والانحياز الى السلطان فصدقوه . ثم تظاهر تيمور بالرحيل وتقهقر عنها ففرح اهلها ثم انشق عسكرها وتفرق رأس القواد فرحل السلطان وجنودهُ الى مصر ظاناً ان المدينة في أمان . ولما خرج منها عاد تيمور اليها وضايقها وشدد على اهلها فسلموا ومنهم ابن خلدون المؤرخ المشهور . فدخلها ولم يؤذها . ثم حصر القلعة واستلمها ولم يفِ بعهدهِ فإنهُ نكب الاهالي وسلب اموالهم وعذب الامراءَ واحرق البيوت . وكان يسقي الامراءَ الكبار الرماد ويعذبهم بالماء والملح والكلس والكي بالنار واستخرج جنى الاموال منهم استخراج الزيت بالمعاصر . ثم امر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل والاحراق والاسر على الاطلاق . ففعل عسكرهُ ما لا يليق فعلهُ فاسروا المخدرات وكشفوا غطا المسترات وعذبوا الكبار والصغار . واستمر هذا البلاء الجسيم والعذاب العظيم والعدوان الذي لا يقدر ان يقوم بحق وصفهِ انسان ثلثة ايام . وكان في اصحابه من روافض الخراسانية فاطلقوا النار في جامع بني امية . وبعد ان لعبت النار بانحاء المدينة سار تيمور عنها في ٢ شعبان سنة ٨٠٢ وقد اجلى معهُ بعض الاعيان واصحاب الفضل واهل الصنائع وكل ماهر بفن . وضاعت منذ ذاك الحين صناعة الشفار والنصول . وسنة ٨٠٤ لما نزح تيمور عن سورية اخذ بقايا اهلها يعودون اليها فعمروا بعض خرابها ورمموا بعض اسوارها وما لبثت ان

عادت الى بعض ماكانت عليهِ ورجع اليها بعض ارباب الصنائع . وبقيت للمماليك الجراكسة الى ايام قانصوه الغوري الذي قتل سنة ٩٢١ هجرية وملك بعدهُ ابنهُ الملك الصالح تومان باي وقتل بعد استوائهِ على العرش بثلثة اشهر وخضعت دمشق بعدهما للسلطان سليم العثماني

ولما استولى السلطان سليم العثماني على دمشق نشر فيها العلم السلطاني فحضر اليهِ أمراءُ العرب واصحاب القطائع واعيان لبنان فأكرمهم . ثم سار وفتح مصر وعاد الى الشام سنة ١٥١٦ ميلادية . وسنة ١٦٠٠ سار جيش من دمشق واستولى على حلب . فاستنجد نصوح باشا والي حلب بحسين باشا والي كلس واخرجا الدمشقيين من حلب . وسنة ١٦٠٦ جمع احمد باشا الحافظ والي دمشق الجنود وحمل على الامير فخر الدين المعني انجدهما . وفي السنة التالية جمع يوسف باشا سيف العساكر ليوقع بعلي باشا جان بولاد لأنه كان يخالف الحكومة ويتعبها فانهزم يوسف باشا ثم جاءَ دمشق وجمع عشرة آلاف مقاتل في وادي بردى فاسعف الأمير فخر الدين علي باشا وامال هذا بعض اهل المدينة اليهِ فانهزم يوسف باشا فخاف الدمشقيون وقفَّلوا الابواب فدفع يوسف باشا لقاضي دمشق مائة الف غرش فداءً عنها وركن الى الفرار . فغضب علي باشا من هربهِ وامر جنودهُ بالنهب فنهبوا ظاهر المدينة ولم يكفوا الا بعد قبض الفدية مع ٢٥ ألف قرش جمعت من أهلها الذين استعطفوهُ . وبعد ان اضعف احمد باشا الحافظ المعنيين عاد الى دمشق وما لبث ان عزل خلفهُ جركس باشا سنة ١٦١٥ فأطاعه المعنيون وسار الى محاربة ايران . وفي السنة التابعة أمر بهدم قلعة شقيف ارنون . ثم عزل وخلفهُ احمد باشا وخلف هذا مصطفى باشا ثم سليمان باشا ثم مرتضى باشا ثم مصطفى باشا . وسنة ١٦٢٢ زحف في عشرة الاف مقاتل لمحاربة الامير فخر الدين المعني فانكسر عسكر والي دمشق وقتل منهُ خلق كثير واسر الوالي فأكرمهُ الامير وتصالحا . ثم خلفهُ محمد باشا فمنعهُ أهل المدينة عن الدخول وحاول مصطفى باشا البقاء فلم يرض الباب العالي فدخلها محمد باشا . ولما مات عـــــــــــــاد مصطفى باشا الى الولاية . ولما جعل الامير فخر الدين والياً على سورية كلها سنة ١٦٢٤ جاءت دمشق فسألوه الاعانة فأرسل حالاً ألفي حمل جمل من الحنطة وكذلك في الغد وامر

بان تنقل جمال حوران ودوابها الحنطة اليها وبان يباع رطل الخبز بقطعتين وتم ذلك فشكرهُ الاهالي . وكانت تلقبهُ الدولة بسلطان البر وربطت عليهِ الاموال . على انهُ طمع بالاستقلال فحاربهُ الباب العالي واسرهُ وسنة ١٦٥٠ كان بشير باشا والي دمشق فحارب الامير ملحم المعني وانكسر وخلفهُ محمد باشا الكبرئي فحمل على المعنيين والشهابيين لتمنعه عن دفع الاموال ففروا فجمعها وعاد . وسنة ١٧٢٢ صار عثمان باشا والياً . وسنة ١٧٢٢ صار سليمان باشا العظم والياً عليها فأخذ اتباع الامير ملحم الشهابي يخربون في البقاع فخرج الوالي لمحاربتهِ فاعتذر الامير وتعهد بدفع خمسين الف غرش ورهن اخاهُ فرجع وشرع يبني الخان المنسوب اليهِ . وسنة ١٧٤١ تولاها اسعد باشا العظم وولى الامير علياً على بعلبك فاغتاظ الامير ملحم وعاث في البلاد فحاربهُ اسعد باشا وانكسر ودخل دمشق مهزوماً . وسنة ١٧٥٧ تولاها عبد اللّه باشا الشتجي وفعل الطاعون فيها حينئذٍ فعلاً ذريعاً . وسنة ١٧٦٢ تولاها عثمان باشا الكرجي واساءَ معاملة اهل غزة فارسل اليهِ محمد بك المعروف بابي الذهب من مصر فظفر بهِ وبالوزراءِ الذين ارسلوا من قبل الباب العالي لنجدتهِ وهرب القواد والعساكر من دمشق فسلمت اليهِ ثم حصر القلعة ولرفع ضرر القنابل عن المدينة رجع عنها بعد ان تحقق فرار عثمان باشا منها وعاد الى مصر بعد ان نصب قاضياً ومفتياً . فعاد عثمان باشا ومعهُ يوسف اغا بن جبري من جبل الدروز ومعهُ خمسة الاف درزي فنزلوا فيها . وخلفهُ عثمان المصري الوكيل . وسنة ١٧٧٢ اختلف عثمان باشا والامير يوسف الشهابي فدارت بينهما حرب سجال . ثم استنجد الامير بعلي بن ظاهر العمر وبالشيخ ناصيف النصار كبير بني علي الصغير فانجده . فخاف عثمان باشا وهرب الى دمشق تاركاً المدافع والخيام والعلائف ففتحها الامير . ثم عزل عثمان باشا وخلفه محمد باشا العظم وسنة ١٧٨٢ قاتل هو والامير سيد احمد الشهابي احمد باشا الملقب بالجزار فانكسر وتقهقر الى دمشق ثم اصطلحا هدما قلعة الياس لأنهما عداها سبب الفتنة . وسنة ١٧٨٧ تولى احمد باشا
اصطلحاهدما قلعةقب الياس لأنهاعداها سبب الفتنة. وسنة١٧٨٧ تولى احمدباشا
الجزار وكان يقيم في عكا ويستنيب رجلاً عنهُ . ومات الجزار سنة ١٢١٩ هجرية وكان في سجنِهِ اسمعيل باشا فاطلقهُ طاها الكردي وجعلهُ عوضاً عنهُ مدعياً ان الجزار بايعهُ بالولاية ولم يعوفهُ نائب الجزار في دمشق وكتب الى الامير بشير عمر الشهابي

والي جبل لبنان بالمحافظة على الطرقات وامدادهِ برأيهِ فأجاب بانهُ تقتضيهِ الاحوال قبل ان بلغتهُ كتابتهُ وبالامتناع عن الاعتراف باسمعيل باشا لان الباب العالي لم ينصبهُ ، ولما وَلي ابراهيم باشا على دمشق سار في عسكر الامير بشير وظفر باسمعيل باشا وقتلهُ وجعل عليها سليمان باشا فرجعت دمشق ايالة على حدة وذلك سنة ١٢٢٠ هجرية وسنة ١٨٠٥ ميلادية . وسنة ١٨١٠ عزل الباب العالي يوسف باشا الوالي ونصب سليمان باشا والي عكا فامتنع يوسف باشا عن تسليم الولاية وحارب سليمان باشا فحبط مسعاهُ وركن الى الفرار لان جنود الامير بشير عاونت سليمان باشا وبعد معركة قطنا والجديدة سلم اعيان دمشق الى سليمان باشا فهرب العصي ودخلها الامير مع الباشا ووقعت وحشة بين درويش باشا واليها وعبد اللّه باشا الخزندار والي عكا في سنة ١٨٢١ والسبب في ذلك ادعاءُ درويش باشا بولاية دمشق وصيدا وادعاءُ عبد اللّه باشا بولاية سورية كلها . فتعاظم الخلاف واشتدت النفرة فتباها للحرب وطلب عبد اللّه باشا مساعدة الامير بشير فسير اليهِ الجنود اللبنانية . وكان الباب العالي راغباً في اذلال عبد اللّه فأمر والي حلب بانجاد درويش باشا ولكن اضرمت نيران القتال قبل ان بلغتهُ تلك الاوامر فسار عبد اللّه باشا والامير بشير وولدهُ الامير خليل في العساكر حاملين على دمشق فلاقتهم عساكر دمشق في قرية المزة وانتشب القتال وتصادم القومان وكانت قنابل الدمشقيين ورصاصهم تسقط على اللبنانيين كالمطر الهاطل على انهم ثبتوا وحملوا غير مبالين بالموت الاحمر واقتربوا من حيطان القرية بعد عناء عظيم وبلاء جسيم فتسلقوها واضرموا فيها النار والحرب قائمة على قدم وساق . ولما رأى فرسان دمشق دخان المزة صاعداً في الجو وفرسان والي عكا تضايقهم ورصاص المشاة يهلكهم ولوا الادبار وركن المشاة الذين كانوا داخل القرية الى الفرار فطاردتهم عساكر عكا ولبنان الى قرب دمشق ولم يؤذن الامير لعسكره بالدخول الى دمشق خوفاً عليها من النهب فرجع بهِ وعسكر في سهل المزة فقتل من عسكر دمشق اكثر من الف ومائتي رجل ومن جيش عكا ولبنان اقل من اربعين نفراً . فتحصن درويش باشا في القلعة واقام ينتظر نجدة والي حلب وادنه . ولما عرف الامير بشير بقدوم النجدات وبعزل الباب العالي لعبد اللّه باشا والي عكا وجعل درويش باشا على دمشق وعكا رحل بجنودهِ بعد ان ارسل يخابر مصطفى باشا والي حلب مخابرة لطيفة . وكان الجنود يعيشون في البلاد ولا يجازون من قوادهم

فانخرط في سلك العسكرية كثيرون من الاهالي ثم انقسمت المدينة الى حزبين انكشاري وقبقولي واشتد العدوان بينهما فكانوا يتخاصمون ويتقاتلون ويتعدون على أهل العرض والذمة حتى لم تكن الحسناءُ تجسر ان تخرج من بيتها بلا حارس قادر واذا تعذر ذلك تلبس ملابس رثة وتحني ظهرها . وكان الناس يخرجون الى اعمالهم مدججين بالسلاح . وامست أكثر الاحكام في يد رجل يسمى تفكجي باشي كان يجلس بباب السراي ويفعل مايشاءُ في من لا يقوى على رفع شكواهُ الى الوالي . وسنة ١٨٢١ كان والياً عليها سليم باشا وهو الصدر الذي اشترك في اهلاك الانكشارية في الآستانة وتنظيم العسكر الجديد فوضع خراجاً طفيفاً على المخازن والدكاكين وغيرها واجبر الناس على دفعهِ . ولم يكن الدمشقيون متعودين ذلك فجاهروا بالعصيان وتقودوا لما رأوهُ داخلاً دمشق حين اتاها بجيش منظم فظنوا ان القصد الإيقاع بالانكشارية . فضربوا الطبول وطافوا في المدينة فدخل سليم باشا القلعة بفرقة من العساكر لخلوها من الزاد والعلف الكافيين لجميع عساكرهِ فانتشب القتال فظفر الدمشيقيون بالجنود الذين كانوا خارج القلعة وقتلوا اكثرهم فلجأَ الذين نجوا منهم الى الجامع المعلق تحت قيادة قاضي قران وكان من القواد الاشداء ودافعوا عن انفسهم حال كون سليم باشا كان يطلق المدافع على المدينة من القلعة . ثم اخرب الدمشقيون السوق الجديدة وبنوا متاريسهم وشددوا الحصر على القلعة فاخربوا بعض سورها الجنوبي . وصادمهم الباشا الى ان نفذ زاده واكل عسكرهُ الحيوانات فالتزم ان يستأمن فأمنوهُ وجاءَ بيتاً في العصرونية ثم هاج القوم مدعين انهُ عامل على كيدهم فدافع عن نفسهِ فنقبوا السقف واحرقوهُ وعرضوا جثتهُ للناس . أما قاضي قران فنجا بمن معهُ . ووقع الخوف في قلوب النصارى اثناءَ تلك الحوادث فامنهم علي اغا الخزناكاتبي وصانهم مع الاسرائيليين من تعديات الجهلاء ولما قتل سليم باشا اقام الدمشقيون حكومة مؤقتة وأخذوا يتوقعون بطش الدولة بهم على انها اشتغلت عنهم بمحاربة ابراهيم باشا ابن الخديوي محمد علي باشا المصري وعدلت عن تأديبهم وولت على دمشق علو باشا فاطمان القوم . وبعد ان فتح ابراهيم باشا المصري عكا سار في عساكرهِ ومعهَ الامير بشير الشهابي وجنودهُ اللبنانيون قاصداً دمشق وعسكروا في داريا فلاقاهما علو باشا بعشرة الاف مقاتل من الدماشقة والاكراد فساق ابراهيم باشا بدو الهنادي علي فرسان الاكراد وامر عسكرهُ المنظم بان يقابل عسكر دمشق

ويطلق بنادقهُ في الجو . ولما التقى الفئتان اطلق عسكر ابراهيم باشا البنادق باتصال وطارد الهنادي الاكراد وقتلوا كل من ظفروا بهِ . فاجتمع مساءَ الاعيان وعولوا على الاستسلام وبعثوا اليهِ بوفد منهُ علي اغا عرمان متسلم القلعة فامنهم ودخل المدينة في الغد من باب اللّه ومعهُ الامير بشير والامير خليل . وجعل ابراهيم باشا دمشق قصبة سورية وأقام فيها محكمة القضاءِ العامة وولى عليها شريف باشا المصري وكان بحري بك من اعوانهِ . ولم يدخلها الاجانب قبل ذلك واول قنصل دخلها كان في ايامهِ وكان انكليزياً ورفع راية دولتهِ . وسنة ١٨٤٠ لما خرج ابراهيم باشا منها قتل علي اغا الخزناكاتبي وغيرهُ من الاعيان . فولى الباب العالي علو باشا المار ذكرهُ على الشام . وفي تموز (جوليه) سنة ١٨٥٢ اصيبت دمشق بالهواء الاصفر الاول المنتقل اليها من الحجاز فمات بهِ نحو ثلثين الف نفس وكان ذلك في رمضان . وسنة ١٨٦٠ فتك بعض الجهلاء من اهلها وبعض الغرباء الذين فيها بالمسيحيين فتكاً ذريعاً فقتلوا كثيرين منهم ونهبوا بيوت النصارى ثم احرقوها وسبوا بعض النساء ووقع تعدٍ على بعض الاعراض . وكان ذلك في اثر الفتنة الاهلية في لبنان . وبادر كثيرون من عقلاء المسلمين الى نجدة المنكوبين وتخليصهم من تعديات الجهلاء وسيوف العاتين ولا سيما المرحوم السعيد الذكر الامير عبد القادر الجزائري (اطلب عبد القادر) فانهُ بعث برجالهِ المغاربة واعوانهِ وانقذ الوفاً من المسيحيين وعالهم واواهم ولم يضبط عدد النصارى الذين قتلوا بذلك العدوان الذي لا سبب لهُ غير تعصب الجهلاء المخالف لنصوص الشرع الشريف وحقوق الانسانية والذمة والجيرة وهياجهم لما ظفر بالمسيحيين في بعض البلاد خصوصاً دير القمر وزحلة وحاصبيا . ولم يكن العقلاء يتوقعون امراً كهذا فناجاهم الخطب وهم مستأمنون

وبعد بداءة المنازلة بثمانية أيام جاءها معمر باشا والياً وسرح المنادين ينادون بالأمان ومنع العدوان فخمدت الفتنة وعاد المتعدون الى محالهم . وبعد ذلك بأيام حضر فؤاد باشا ناظر الخارجية العثمانية مفوضاً مطلقاً من الباب العالي بإصلاح الأحوال وإرجاع الأمن ومعاونة المنكوبين ومعاقبة المتعدين . فجاء دمشق بعد أن بلغت بيروت العساكر الفرنسوية وبوارج الدول الكبرى (اطلب لبنان) وأرسل أحمد باشا الذي كان والياً عليها أثناء الفتنة الى القسطنطينية ثم أعيد الى دمشق وعوقب

فيها بالقتل حالاً بإطلاق الرصاص وعوقب معه بالقتل أيضاً قائد العساكر التي كانت في حاصبيا وقائد العساكر التي كانت في راشيا بسبب ذبح المسيحيين فيهما وأما السبب في قتل أحمد باشا فقيل إهماله اتخاذ التدابير الموثرة لمنع النكبة مع أنه كان والي دمشق وقائد الجيش الخامس السلطاني وقيل غير ذلك . ولما بلغ فؤاد باشا دمشق دخل القلعة التي لجأ إليها المسيحيون المنكوبون فرآهم جياعاً عراة ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً مرضى وجرحى ونفاسى فبكى وأمر بإطعامهم وكسوتهم ولاطفهم ووعدهم بعقاب المتعدين وتحصيل حقوقهم وفي الغد أمر بجمع الأشياء التي سلبت من السالبين فجمعت بسرعة بلا ترتيب كافٍ ويقال أنه ضاع قسم عظيم منها . أما الجواهر والحلى الثمينة فلم ترد كلها . وكان الرعب قد وقع في قلوب المسيحيين فأذن لهم بالمهاجرة فرحل كثيرون منهم الى بيروت وثغور أخرى . وأما الذين بقوا في دمشق فأفرغ لهم بيوتاً من منازل المسلمين وأسكنهم فيها وكانوا ينفقون من الخزينة السلطانية ولما علمت أوربا وأميركا بهذا المصاب العظيم والخطب الجسيم بعد أن سمعت بنكبات الجبل أرسلت إحسانات وافرة وإمدادات نافعة للذين أصيبوا من جميع الملل . ثم أقام فؤاد باشا مجلساً للبحث عن المذنبين فحكم على بعضهم بالقتل أو النفي فشنق نحو سبعين رجلاً وقتل بإطلاق الرصاص مائة واحد عشر رجلاً ونفى بعض الأعيان والعلماء ونحو أربعة آلاف نفس من العامة والشبان منهم أدخلهم السلك العسكري . فاستقر الأمن وتوطدت الراحة وحصل المنكوبون على تعويض خطير دفع لهم مجموعه . ثم أخذ الدمشقيون يعودون إليها ولكن سكن كثيرون منهم بيروت والأقطار المصرية . وخسر النصارى لما رمموا بيوتهم بارتفاع أثمان مواد البناء وأجور البنائين والفعلة .

وخلف معمر باشا في دمشق شرواني زاده . وسنة ١٨٦٤ جعل الباب العالي سورية ولاية واحدة قصبتها دمشق . وخلف شرواني زاده مخلص باشا ثم محمد راشد باشا الذي كبح جماح المتعدين ونشر لواء الأمن وقام بإصلاحات كثيرة في السنين الست التي تولى فيها إدارتها . وسنة ١٨٧١ خلفه صبحي باشا ثم حالت باشا ثم أسعد باشا ثم حمدي باشا ثم ناشد باشا ثم ضياء باشا ثم عزت باشا مشير الجيش بالوكالة سنة ١٨٧٧ أثناء الحرب الروسية فساق عساكر كثيرة . ثم عمر فوزي باشا

ثم جودت باشا ثم مدحت باشا وشرع في تمهيد الطرق وإنشاء المدارس ثم حمدي باشا ونذكر ترجمته في ختام الكلام على دمشق . وبعد سنة ١٨٦٤ أخذت دمشق في التأخر من كساد التجارة والصناعة . وسنة ١٨٦٥ دهمها الهواء الأصفر وأمات نحو عشرة آلاف نفس وأمات سنة ١٨٧٥ فيها ٩٢٠٠ نفس .

وأما واليها الحالي أحمد حمدي باشا المشار إليه فهو ابن يحيى بك ابن الوزير ملك أحمد باشا كان والده من الممتازين بين رجال السلطان محمود العثماني أما جده فكان الوزير الأعظم عند السلطان محمد المشهور بلقب (أوجي) ولد في القسطنطينية في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ١٢٤٢ وقرأ على بعض المشايخ ما يلزمه من العلوم الدينية والدنيوية كالصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والعلوم الرياضية ولمعاً من الحكمة الطبيعية وأتقن فن الإنشاء علماً وعملاً ونبغ في التركية والعربية والفارسية ثم انتظم في سمط كتبة النظارة الداخلية في الباب العالي ثم انتقل الى ديوان كتاب الصدارة العظمى متمماً ما تعلمه على مشايخه من الإنشاء . وفي سنة ١٢٦٣ للهجرة تفرس فيه رؤ ساء الكتبة النجابة فأعطيت له الرتبة الرابعة ونقل الى باب السر عسكر فكان مأمور الكتبة في شورى الأمور العسكرية ثم رقي الى الرتبة الثالثة وجعل معاوناً للكاتب الأول في الشورى المذكورة ثم رقي الى الرئاسة الثانية في ديوان كتاب رئيس الجيوش (السر عسكر) . وفي سنة ١٢٧٥ رقي الى رئاسة كتاب شورى العسكريةوبعد قليل جعل عضواً في الشورى المذكورة فضلاً عن رئاسة الكتاب المنوه عنها . ثم أنعم عليه المغفور له السلطان عبد المجيد بالرتبة المتمايزة ثم الرتبة الأولى في الصنف الثاني ثم الأولى من الصنف الأول وأدار أعمال هذا المنصب تسع سنين وأحسن إليه بالوسام المجيد ي من الطبقة الثالثة . ولما كانت سنة ١٢٨٤ للهجرة فوضت إليه رئاسة وكالة دائرة الحقوق من ديوان الأحكام العدلية نحواً من شهرين ثم صار من الوزراء ووكلاء السلطنة بتوجيه نظارة الأوقاف عموماً إليه وبعد ٨ أشهر عين مستشاراً للسر عسكرية الجليلة مع ضم المختصات لعهدته وعلى أثر ذلك أحرز الوسام العثماني من الطبقة الثانية . وفي ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ رقى الى درجة الوزارة السامية وعين ناظراً للمالية وبعد ذلك بمائة يوم أحيلت إليه ولاية آيدين على أثر التبديلات العظيمة التي طرأت على الوكلاء بعد وفاة المرحوم علي باشا الوزير

الأعظم . وأثناء ولايته هذه وقع بين روم أزمير واسرائيليتها نزاع أزعج العالم المتمدن وخيف من تغير السياسة العامة فتوفق بدرايته وعلو الهمم الى تسكين جأش القوم وقطع دابر المفسدين فلم يدع لتيرها سبيلاً . فأحسن إليه السلطان عبد العزيز مكفأة بالوسام المجيدي من الرتبة الأولى ونال من الدول الأجنبية وسام فرنسوا جوزف من النمسا ووسام لورونا ايطاليا من ايطالية وكلاهما من الرتبة الأولى . وسنة ١٢٨٩ وجهت إليه ولاية الطونة فلبث بها أحد عشر شهراً يسدد أحكامها ويوطد دعائم العدل والأمن ونال حينئذ من الدولة الروسية وسام القديسة حنة من الطبقة الأولى . وفي صفر سنة ١٢٩٠ تبوأ ثانية منصب نظارة المالية وأحسن إليه بالوسام العثماني الأول وأحرز وسام خرشيد الايراني من الرتبة نفسها وفي محرم سنة ١٢٩١ أنيطت به ثانية ولاية آيدن فأدارها نحواً من أحد عشر شهراً بسياسة جمعت بين الرضا العالي والمنفعة العامة . ثم وجهت إليه ولاية سورية في ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٩١ فقام بما يستغنى عن بيانه ولكن انحراف صحته جعله يستقيل وذهب بقلوب الناس الى قاعدة السلطنة وصار فيها رئيساً للجنة القوائم وبعد أقل من عشرين يوماً صار رئيساً للدائرة الملكية في شورى الدولة وكان ذلك في ٢٣ رجب سنة ١٢٩٣ ثم بعد ثلاثة عشر يوماً عين ناظراً للخزينة الخاصة وبعد ستة عشر شهراً صار ناظراً للداخلية وفي ٥ محرم سنة ١٢٩٥ رقي الى الصدارة العظمى فبلغ ما بلغه جده المشار إليه . وفي ثاني صفر من السنة المذكورة عين ثالثة والياً على آيدين وبعد سنة أي في محرم سنة ١٢٩٦ وجهت إليه ولاية بغداد ولكن بعد ثلاثة أيام صدرت إدارة سنية ببقائه في مركزه إجابة لالتماس الأهلين أجمع في ولاية آيدين فأقام فيها ثلاثين شهراً ونال الوسام الألماني المعروف بالتاج من الصنف الأول وفي رمضان سنة ١٣٩٧ أنيطت به ثانية ولاية سورية . ومكافأة لخدمته المبرورةوآثاره المشكورة في هذه الولاية نال من عواطف الحضرة الشاهانية الوسام العثماني مرصعاً لحد أن أهداه امبراطور النمسا نيشان ليوبولد الأول ومما يثبت ما له من استقامة المسلك كتبة الباب العالي حتى الآن أي منذ اثنين وأربعين سنة لم يبق بلا منصب سوى ثلاثين يوماً على أثر استقالته المرة الأولى من ولاية سورية . وتسنى له مع اختلاف الأطوار وتضارب الأوطار وتقلب الأحوال وتغاير السياسات أن يكتسب في جميع المناصب الخطيرة رضى الدولة وثقتها وثناء الأمة ومحبتها في عصر تعدد فيه السلاطين العظام الذين كانوا

بجملتهم يرمقونه بعين العناية والالتفات جزاء لمآثره المشهورة وصداقته وهو مع سكونه بعيد الهمة نبيل القصد عفيف معتدل الرأي خالي الغرض يتغلب على المصاعب بالثبات والصبر والحلم والاجتهاد في الإصلاح بالحمية والغيرة لنفع الوطن وتشييد عماده وثناء أهل آيدين عليه دليل أعماله الخطيرة ومساعيه المشكورة في سبيل عمران تلك الولاية وإنماء ثروتها وتوطيد راحتها واستئصال شأفة اللصوصية من أنحائها وضواحيها مع أنه كان محفوفاً بارتباك أحوال تغل الأيدي . ولما كانت ولايته الحالية مشمولة بعناية خصوصية من لدن حضرة صاحب الشوكة والاقتدار مولانا السلطان عبد الحميد خان المعظم وكان حضرة حمدي باشا المشار إليه منصباً على تنفيذ نواياه الخيرية لإسعاد التبعة والرعية جاء بآثار جليلة وأعمال جميلة أكثرت في الولاية السورية أسباب العمران .

وفي الولاية السورية عدد ليس بقليل ما برح سائباً في فيافي الهمجية مغلولاً بأصفاد الجهل محباً للسلب وشن الغارة مكدراً لصفاء الأمن بالاعتداء على أبناء السبيل متعوداً التمرد مكابراً للإصلاح . وطالما كان هذا الفريق موضوعاً لاهتمام أسلاف أبهته من الولاة العظام دون أن يترتب على ذلك الأثر المطلوب لأن بعضهم كان يأخذ بالعنف ويقابل خشونته بالقسوة والجفاء فيعاقبه تارة بالضرب وطوراً بالتنكيل وآونة بالحرب والتدميرفكان يزداد تمادياً في البغي وتطاولاً في العتولان ذلك كان عبارة عن مقابلة الخشونة بما يشاكلها فكان أولئك القوم كالنقطة السوداء في صفحة تاريخها البيضاء وأما حمدي باشا فأخذ يلين قسوتهم بالحلم والرفق والحكمة داخلاً البيوت من أبوابها فتسنى له المطلوب دون أن يريق قطرة من الدم أو يسلب لأحد مقدار ذرة فإن السواد الأعظم منهم دخل ربقة الطاعة وذاق حلاوة السكون والتمتع ببركات الوطن تحت ظلال الأمن والراحة وأوشك أن يعرف فضل العلم فتمسك بأسبابه وتعلق بأهدابه فترى المدارس تنشأ في أعالي الجبال وأعماق الأودية لتثقيف العقول وتهذيب الأخلاق والأراضي المهملة تصلح وتفلح بأيدٍ لم تتعود إلا هز السيوف وتشريع العوامل وطرقات تمهد وتسلك بعد أن كانت وعوراً لا تكاد تسمع منها سوى عويل المسلوبين وأنين الجرحى من أبناء السبيل ومعاقل تبنى وتشاد لقيام قوات من الجند يتكفل وجودها بإرهاب العتاة وإخافتهم وغل أيديهم عن

السلب والنهب . ومن تأمل في حالة النصيرية ودروز حوران وأهلها وعرب البادية واللجاة من قبل ورآها الآن يرى الفرق بينها . وأعظم التدابير التي تمت بهذه النتيجة الحسنة إنشاء المنازل العسكرية في الجبال فإنه أنشأ في جبل الدروز ثلاثة حصون متينة أولها في قرية عرى والثاني في المزرعة والثالث على مقربة من بصرى الحريري ثم أنشأ حصناً آخر في حاصبيا ومثله في قرية ضمير (وهي تبعد ٦ ساعات شرقاً عن دمشق) حيثما يأتي أهل البادية للاستقاء وهذا خير رادع للبغاة أعداء الأمن لأنه ما من غاز إلا يضطر الى المرور بتلك البقعة فإذا أتاها أوقعت به حامية الحصن وردته عن عدوانه وبنى معقلاً عظيماً في منتصف جبال النصيرية قرب قرية تعرف بدير شميل لا تبعد عن مصياف نقطة قوة النصيرية ومنتدى جمهورهم أكثر من نصف فرسخ فكان مجموع هذه المعاقل ستة واحد منها كاف لثلاث فرق (طوابير) وثلاثة يكفي كل منها لفرقة واثنان لنصف فرقة .

ومن الأبنية التي شادها دون أن يثقل على خزينة السلطانية ببارة ثكنة ودائرة حكومة في حاصبيا وموقف حراس كبير في دمير . وموقفان للحراسة في بيروت وثكنة لطابور من العساكر ودائرة حكومة في جبال النصيرية ودائرة حكومة في مرج عيون وأخرى في جنين وغيرها في بانياس وفي النبطية وفي طرابلس وفي بيروت ومدرستان للصبيان في حوران ودائرة للعدلية في الشام ومن آثاره النافعة إصلاح طريق عجلات من طرابلس الى حماة وتأليف شركة وطنية لإدارتها ثم إكمال الطريق الواقعة بين شتورة وبعلبك وجعل العجلات تسير عليها دفعتين في الأسبوع والسعي بتمهيد طريق حوران وقد مهد نصفها ويتم النصف بعد برهة وجيزة والحصول على امتياز لإنشاء طريق حديدية من عكاء الى جسر المجامع واتخاذ التدابير لايصالها بدمشق مارة بحوران ومن المقرر أن هذا المشروع عبارة عن فتح باب يجري لأخصب أراضي سورية وأغزرها محصولاً هذا فضلاً عن طرق كثيرة مهدت بمساعي دولته دون أن تحمل الخزينة نفقاتها ومنها مد الأسلاك البرقية الى جميع الأقضية التي لم يكن فيها سلك برقي كراشيا والقنيطرة والناصرة وطبرية وصفد وغيرها وإنشاء كثير من المكاتب الابتدائية للذكور والإناث في دمشق وبيروت وطرابلس واللاذقية وحماة وحوران والبلقاء وسائر أنحاء سورية وفلسطين وايجاد أموال مستقلة تضارع نفقاتها . وتشييد

المدرسة الداخلية في بيروت على نسق المدارس العالية المنتظمة في السلطة وتجديد دائرة للحكومة في بيروت وأخرى في طرابلس كافية لمأموري الحكومة والمحاكم العدلية وقد بنيتا على الأصول الهندسية المختارة حديثاً في الممالك المتمدنة . هذا فضلاً عن عدة دوائر للحكومة ومراكز للتلغراف أنشأها في كثير من الأقضية والنواحي وعدد ليس بقليل من الجسور والمعابر أقامها على الأنهار الكبيرة خارج دمشق وذلك دون أن تتحمل الخزينة شيئاً ولا يزال يبذل قصارى الجهد لاستحصال امتيازات بإنشاء المرافىء لدفع نوائب النوء في بيروت وغيرها من الثغور مثل عكاء واللاذقية وطرابلس وهو ساهر على تأليف القلوب وبث العدل واجتهاده ما استطاع بإزالة شائبتي الظلم والاستبداد وتخويله كل فرد من أفراد الأمة حقه المشروع الى غير ذلك مما يضيق المقام دون تبيينه وتم له ذلك أجمع في مدة لا تزيد عن ثلاث سنين .

ودمشق الغرب هي غرناطة تسمى دمشق الأندلس لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس . وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار وقد أطل عليها جبل الثلج . وقال فيها ابن جبير :

يا دمشق الغرب هاتيـ ـك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب إليها

قال ابن سعيد أشار بن جبير الى أن غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تحتها تجري فيها الأنهار ودمشق في وهدة تنصب إليها الأنهار . وقال الشقندي أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس . اطلب غرناطة

وأبو المحاسن الدمشقي . راجع أبو المحاسن

ويوحنا الدمشقي . اطلب يوحنا



دمشـق
في قاموس الكتاب المقدس (1)

دمشق : عاصمة سوريا وأكبر مدنها . تقع على مسافة نحو خمسة وستين ميلاً شرقي البحر الأبيض المتوسط وعلى مسافة نحـو ١٣٣ ميلاً الى الشمال الشرقي من اورشليم . والمدينة مقامة في سهل عند السفح الشرقي لجبل لبنان الصغير . وينبع في هذه السلسلة من الجبال نهران يجريان شرقاً وهما : نهر إبانة وفرفر المذكوران في الكتاب المقدس (٢ ملـو ٥ : ١٢) . ويدعيان الآن بردى والأعـوج . ويتفـرع هذان النهران الى جداول كثيرة تسقي مياهها الحدائق والبساتين التي تحيط بدمشق . وتقع دمشق على ارتفاع نحو ٢,٣٠٠ قدم فوق سطح البحر وجوهـا معتـدل . وهي مركز هام لطرق التجارة . وهناك طريق يسير غرباً وجنوباً الى أن يصـل الى البحر الأبيض المتوسط ومصر . وطريق ثان يسير جنوباً الى شرق الأردن والجزيرة العربية . وطريق ثالث يسير عبر الصحراء الى بغداد . وطريق رابع يسير شمالاً الى حلب . ودمشق مشهـورة بأسواقهـا والأقمشـة التـي تروج تجارتهـا فيهـا وكذلك اشتهرت بالأواني المعدنية .

تاريخها : مدينة دمشق عريقة في القدم . وقد ورد ذكرها في عصر ابراهيم (تـك ١٤ : ١٥) . وكان اليعـازر الدمشقـي الموكل على بيت ابـراهيم من هذه المدينة . وكانت دمشق في عصر داود إحدى الممالك التي قامت في الهلال الخصيب . وقد غزاها داود وأقام فيها حامية (٢ صم ٨ : ٥ و ٦ و ١ أخبار ١٨ : ٥ و ٦) .

وبعد أن محق المملكة السورية في صوبة ، قام رجل يدعى رزون ، وكان هذا من رعايا ملك صوبة سابقاً ، وجمع حوله جماعة من الرجال وتمكن من أخذ دمشق حيث أسس المملكة السورية . ودامت الحرب بينها وبين المملكة الشمالية أو مملكة السامرة

(١) قاموس الكتاب المقدس طبع بيروت ١٩٦٥

آماداً طويلة (١ ملو ١١ : ٢٣ و ٢٤) وكانت دمشق عاصمة حزيون وطبريمون وبنهدد (١ ملو ١٥ : ١٨ و ٢٠ و ٢٠ : ٣٤ و ٢ ملو ٨ : ٧) وحزائيل (١ ملو ١٩ : ١٥ و ١٧ و ٢ ملو ٨ : ٨ - ١٥) ورصين . وكان هناك حلف بين طبريمون وبنهدد الأول وبين ملوك يهوذا (١ ملو ١٥ : ١٨ و ١٩ و ٢ ملو ١٦ : ٢ و ٣) ولقد اتفق آخاب على أن يبني أسواقاً في دمشق (١ ملو ٢٠ : ٣٤) وقد تحالف ملوك دمشق مع ملوك الفينيقيين واخاب ملك السامرة وقاموا بحرب ضد شلمناصر ملك

اشور واشتبكوا معه في الحرب في معركة قرقر في سنة ٨٥٣ ق . م . ومع أنه هزم المتحالفين إلا أنهم تمكنوا من وقف تقدم الأشوريين. ولكن شلمناصر عاد وهزم حزائيل ملك دمشق سنة ٨٤٢ على جبل حرمون واضطره الى أن يدفع الجزية ، ولما تحالف رصين ملك دمشق وفتح فلسطين في سنة ٧٣٤ ق . م . وأراد مهاجمة القدس استنجد آحاز ملك يهوذا بتغلا ثفلا سر ملك أشور فجاء الى دمشق وأخذها (سنة ٧٣٢ ق . م) وحمل أهلها في السبي الى قير وقتل رصين (٢ ملو ١٦ : ٥ - ٩ واش ٧ : ١ - ٨ : ٦ وعا ١ : ٣ - ٥) ولكن سرعان ما استعادت دمشق نجاحها ومكانتها وازدهارها (حز ٢٧ : ١٨) . وانتقلت من الأشوريين الى الكلدانيين ومنهم الى الفرس ثم انتقلت الى اليونان المقدونيين . وكانت دمشق إحدى المدن التي تكونت منها ديكابوليس أو العشر مدن . وقد أخذ القائد الروماني ميتللوس مدينة دمشق عام ٦٤ ق . م . وفي العام التالي أي ٦٣ ق . م . أصبحت سوريا مقاطعة رومانية . وكان عدد من اليهود يسكنون دمشق ، وكانت هناك عدة مجامع (أعمال ٩ : ٢ وحروب يوسيفوس الكتاب الثاني والفصل العشرون والفقرة الثانية) وبالقرب من دمشق ظهر المسيح لشاول الطرسوسي في الطريق إذ كان ذاهباً إليها ليضطهد المسيحيين فيها ، فسقط الى الأرض وسمع الصوت السماوي (أعمال ٩ : ٢ و ٣ و ٨ - ١٠ و ٢٢ : ٦ و ١٠ - ١٣ و ٢٦ : ١٢) وقد تدلى من أسوارها ليهرب من غضب اليهود فيها (أعمال ٩ : ٢٤ و ٢٥ قارنه مع ص ٢٦ : ٢١ وغلاطية ١ : ١٧) . وكانت المدينة في عصر الرسول بولس في يدي الحارث ملك البلاد العربية التي عرفت باسم «بيترايا» أو البتراء ولكنها سرعان ما عادت الى أيدي الرومان (٢ كو ١١ : ٣٢ و ٣٣) .

آثارها : بني جامع دمشق الكبير في مكان كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي كان قد بناها الامبراطور قسطنطين ويرجح أن هيكل رمون (٢ ملو٥ : ١٨) كان في نفس هذا المكان والشارع الذي يدعى «المستقيم» الذي أقام بولس بالقرب منه لما ذهب الى دمشق (أعمال ٩ : ١١) يدعى الآن سوق الطويلة وفيه أعمدة قديمة وربما ترجع الى عصر الرسول بولس . ويقع بيت حنانيا (أعمال ٩ : ١٠) كما يذكر التقليد في الحي المسيحي والمكان الذي تدلى منه بولس من السور زنبيل أعمال (٩ : ٢٥) مكانه الآن كنيسة» .

دمشق

في دائرة المعارف الاسلامية

«دِمِشْق» أو دِمَشْق ، أو دِمَشْق الشام ، ويقال لها أيضاً الشام فقط شأنها في ذلك شأن سورية : أكبر مدن سورية على خط طول ٣٦° ١٨ شرقي جرينتش ، وخط عرض ٣٣ ٢١ْ شمالاً ، وترتفع عن سطح البحر ٢١٣٠ قدماً ، وهي على حافة الصحراء العربية الشآمية في ظهر الحاجز المزدوج المكون من جبال لبنان وجبال لبنان الشرقية وهو جبل حرمون . وتحمى شعب هذه الجبال (وأقربها جبل قاسيون) سهل دمشق من الشمال ومن الجنوب . ويحمي الجبل الأسود وجبل المانع المدينة من الجنوب بعض الحماية ، ولكنها مكشوفة من الشرق . ومناخ دمشق لم يدرس بعد دراسة وافية ، ومع ذلك لا يمكن أن يقال أنه ملائم تمام الملاءمة للصحة . (وتسود دمشق الرياح الشرقية وإن كانت تهب عليها أيضاً رياح غربية تجلب الثلج والمطر ، كما تهب عليها في الربيع رياح الخماسين ومن وقت الى آخر ، وتتفاوت فيها درجة الحرارة بين ٦° مئوية في منتصف يناير و ٢٦° مئوية في منتصف يوليه) ولكنه في مجموعه خير من مناخ المنطقة المجاورة لها من الشرق .

وموقع دمشق مهم لأن نهر بردى (انظر هذه المادة) قد أنشأ فيه واحة متسعة هي الغوطة (انظر هذه المادة) المشهورة التي تنفرج من جبال لبنان الشرقية الى إقليم قليل المطر (ويقدر متوسط ما يسقط سنوياً من المطر بأربع عشرة بوصة) قبل أن تغيض مياهها أبعد من ذلك غرباً ، في بطائح عتيبة . وهذه الواحة الرائعة تعد بحق روضة من الرياض ، وقد كونت من الناحية الطبيعية مركزاً حضرياً للأرض الواسعة المتاخمة للساحل الشبيه بالفيافي . واستطاعت دمشق أن تجتذب تجارة شمال سوريا والعراق وأرض الجزيرة وبلاد العرب وبابل من ناحية ، والبحر المتوسط ومصر من ناحية أخرى ، بفضل الطرق الطبيعية الممتدة مسافات بعيدة في شمالها ثم في جنوبها ، وأن تصبح مركز هذه التجارة ، ذلك لأن المناطق المحيطة بها لا مثيل لها في خصب تربتها ولأن المدينة نفسها تقع على الطريق الممتد من الشمال الى الجنوب مخترقاً الأراضي الداخلية لسورية .

وقد أصبحت دمشق بفضل هذا الموقع مركزاً ثقافياً من الطراز الأول منذ أقدم العصور . وجلي أن اسم المدينة يرجع الى ما قبل العهد الإسلامي (ورد في قائمة تحتمس . تِمسقو ، وفي الأشورية : دمشقي وتمشكى ، وفي العبرية דַּמֶּשֶׂק ثم وردت بعد ذلك بفك الحرفين المدغمين דַּרְמֶשֶׂק كما في السريانية) ويظهر الاسم في العهد القديم بالفعل متصلاً بقصة ابراهيم (سفر التكوين ، الإصحاح ١٤ ، آية ١٥) . وقد توسعت الروايات في هذه الصلة ، بل إن المسلمين لا يزالون الى اليوم يمجدون مسجد ابراهيم في برزة شمالي دمشق Ἀβράμου οἴκησις الذي أورده يوسفيوس) ويجعلونه المكان الذي ولد فيه ابراهيم . كما أننا نجد بعد القرن العاشر قبل الميلاد مملكة آرامية في دمشق ذكرت في العهد القديم وفي النصوص الأشورية ، وقد دمرها الأشوريون عام ٧٣٢ ق م . ونحن نحيل القارىء إذا أراد دراسة تاريخ هذه المملكة والأحداث المتأخرة التي حاقت بدمشق في ظل حكم الأشوريين البابليين ، والفرس ، واليونان والرومان الى مقالة Real— Enclopaedie: Pauly— Wissowa de Bńzinger جـ ٤ ، ص ٢٠٤٢ ـ ٢٠٤٨ والى المصادر المذكورة فيها . وحسبنا هنا أن نتحدث عن دمشق في صلتها بالعرب . وقد انتقلت المدينة لأول مرة الى حكم النبط حوالي عام ٨٥ ق . م (الحارث الثالث نصير اليونان) ويعود الفضل في احتلال النبط مدينة دمشق للمرة الثانية الى رومية (بين عامي ٣٧ و ٥٤ م في عهد أرتياس الرابع فيلوباتور انظر Corinthians Second جـ ١١ ، ٣٢) وظهر الأثر العربي منذ عهد قديم جداً قوياً واضحاً على المدينة التي كانت شديدة التعرض للصحراء (يوستن ولم (τῆς ἀραβιῆς νῆς ἦν καὶ ἔστιν) تصبح مدينة دمشق قط قصبة ولاية من الولايات أيام الرومان ، ولعل من أسباب ذلك انجذابها نحو الصحراء ، وقد ألحقت في التقسيم الاداري الروماني الذي تم من بعد بليبانيزيا الفينيقية phonike Libanesia التي كانت قصبتها السياسية حمص . ونجد دمشق ، وهي المدينة الشديدة التأثر بالثقافة اليونانية ، لم تخضع مباشرة لمشايخ العربان الذين كانوا يحكمون المناطق المجاورة ، بل لم تخضع للغساسنة ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء الغساسنة يحكمون المناطق الملاصقة لدمشق (جلق (انظر هذه المادة) وانظر Ghassan Fursten: Noldeke ص٤٧) وكان هناك دائما اتصال قوي بين البدو وسوقهم الكبيرة . وكانوا يعرفون دمشق ويرونها مثالا للأبهة ، ويحملقون إلى

نفائسها في دهشة وحسد . فليس من العجيب إذن أن يؤ ول العرب المسلمون آيات من القرآن مثل سورة «الإسراء» الآية ١ ، وسورة «المؤمنون» الآية ٥٢ [1] بحيث تشير الى دمشق وأن يجعلوا إرم ذات العماد (سورة الفجر آية ٦) [2] هي نفس هذه المدينة وأن يبالغوا في الإشادة بعظمتها بما نحلوه للنبي من أحاديث .

وليس لدينا وصف دقيق لدمشق العتيقة ، بل إن يوليان الذي امتدح موقع المدينة وعماراتها في عبارات تنم عن الدهشة لم يذكر لنا شيئا مفصلا عنها . ونكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن خطة المدينة العامة ظلت قروناً على الحال التي لقيها عليها الفتح العربي ، وقد مرت قبيل ذلك بمحن وشدائد نزلت بها من جراء الفتح الفارسي ، ولكن هذا لم يحدث تغييرا جوهريا في شكلها . والحق أن أسوار المدينة ومعالمها الأساسية لم تتبدل منذ الفتح الإسلامي ، ومعظم السبب في هذه الظاهرة العجيبة راجع إلى موقع دمشق الطبيعي ، ذلك أنها تقع عند مفرق الطريق الذي يخترق قلب سورية من الشمال الى الجنوب ، ويعبر نهر بردى الذي يجري من الشرق الى الغرب ، ومن ثم انتظمت على هذا النحو طرقات المدينة ، وقد أبرز هذه السمة المعبد الضخم المعقد الرباعي (معبد الشمس ؟) الذي شيد فيه تيودوسيوس أو أركاديوس كنيسة القديس يوحنا . ويجب أن ننظر الى المدينة على أنها ظلت منذ العهد الروماني على صورتها الراهنة مستطيلا ممتدا على ضفة بردى اليمنى (جنوبا) يقطع معظم طوله طريق لا يزال يعرفه الأجانب باسم الطريق المستقيم (تأويلا للآية ١١ من الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل) وفي الشمال المعبد الكبير الذي يعد سرة المدينة بحق . وقد يرجع إلى العصور القديمة أيضاً تأسيس القلعة التي في ركنها الشمالي الغربي ، ولسنا نعرف أين كانت مخازن الأسلحة التي شيدها دقلد يانوس ، بل إن أبواب المدينة ، وكانت موجودة قبل الفتح العربي ، لا تزال باقية إلى الآن . ويذكر البلاذرى (عن الواقدي) في حديثه عن حصار دمشق هذه الأبواب مبتدئاً بالباب الشرقي , وهو على الطرف الشرقي للطريق الكبير ، ثم باب توما وباب الفراديس على الجانب الشمالي . ثم باب الجابية في الغرب عند نهاية الطريق الممتد طولا ، والباب الصغير وباب كيسان في الجنوب .

---

(١) الآية : ٥٠ (٢) الآية : ٧

فتح المسلمين لدمشق

تقدمت جموع العرب بعد وقعتي بَيْسانوفَحْل في ذي القعدة عام ١٣ هـ (يناير ٦٣٥ م) صوب دمشق على طول طريق جَوْلان ، ولم يلقوا مقاومة حتى بلغوا مَرْج الصُفَّر شمالي الصَنَمين . ونجح الروم أول الأمر في مباغتة مقدمة الجيش الإسلامي ، ولكنهم أرغموا آخر الأمر على التراجع نحو دمشق (محرم عام ١٤ هـ الموافق فبراير عام ٦٣٥ م) . ولم تمض أربعة عشر يوماً حتى كان العرب أمام دمشق . وجعل خالد بن الوليد قائد المسلمين مقر قيادته شمال المدينة أو شمالها الشرقي عند دير صليبا أو دير خالد . (انظر ابن شداد الذي نقل عنه دي غوي في كتابه المذكور ، ص ٩٤ ؛ والرواية الغالبة أنه أقام معسكره في وقت متقدم على هذا التاريخ أبعد من ذلك ناحية الشرق عند قبر الشيخ أرسلان ؛ انظر Porter ، ج ١ ، ص ٥٥ والمجلة الآسيوية ، السلسلة التاسعة ، ج ٥ ، ص ٤٠٥ ؛ ج ٦ ، ص ٤٤٩) . وكان هم العرب أن يحولوا بكل وسيلة بين الجند الروم الذين أجبروهم على الارتداد نحو دمشق وبين النجدة التي قد تأتيهم من الشمال ، وقد حقق العرب بغيتهم . وكانت النتيجة أن فتح أهل دمشق في رجب عام ١٤ هـ سبتمبر عام ٦٣٥ م باب المدينة الشرقي سراً لخالد وجنده (ولعل ذلك كان بوساطة الأسقف كما يقول البلاذرى أو بوساطة المنصور جد يوحنا الدمشقي كما يقول يوتيخيوس Eutychius) فارتدت الحامية الرومية ناحية الشمال ، ووقعت المدينة في قبضة المسلمين .

وثمة روايات كثيرة ، تدور حول فتح المدينة يناقض بعضها بعضا . وحسبنا أن نذكر هنا أهمها . والرأي الشائع الذي نشره في الشرق ابن عساكر وفي الغرب فون كريمر A. von Kremer هو أن خالد بن الوليد فتح الجانب الشرقي للمدينة عنوة من الباب الشرقي ، في حين استسلم جانب باب الجابية لأبي عبيدة . والتقى

القائدان عند كنيسة القديس يوحنا العتيقة ، وهكذا احتل المسلمون الجانب الشرقي من الكنيسة وهو الجانب الشرقي من المدينة ، أما الجانب الغربي منها فقد ظل في أيدي النصارى . وقد سلم الناس منذ عهد طويل بتهافت هذه الرواية المتأخرة التي تناقض كل الروايات الموثوق بها السابقة عليها في الزمن . ويظهر أن رواية البلاذرى أدنى إلى الصحة ، وهي تذهب إلى أن أبا عبيدة احتل باب الجابية ولقيه خالد ، وكان قد دخل المدينة من الباب الشرقي ، ولعله أخذها عنوة أو بخيانة أهلها ، وكان ذلك عند كنيسة مَقْسلّات . (انظر المجلة الآسيوية ، ج ٦ ، السلسلة التاسعة ، ص ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٤٠٤ ؛ عند القناطر الثلاث ،Topographie: v. Kremer ج ٢ ، ص ٦ : تحت القناطر) في البريص (دي غوي =βάμις ولعله الطريق المستقيم) .

ونحن ندين بالفضل لكيتاني لأنه بين لنا بصفة قاطعة في دراسته المستفيضة لهذه المسألة أن أبا عبيدة لم تطأ قدماه قط أرض الشام عام ١٤ هـ، وأن خالداً هو الذي استسلمت له المدينة ومن ثم تسقط رواية التقاء القائدين في وسط المدينة التي تتردد كثيراً في الروايات اللهم إلا إذا اتجهنا وجهة جديدة في فهم ما ذهب إليه لامانس Mélanges de la Faculté Orientale: Lammens ، بيروت ج ٣ ، ص ٢٥٥) واستبدلنا بأبي عبيدة يزيد بن أبي سفيان الذي دخل المدينة من الباب الصغير فيما تقول الرواية الشائعة . وبهذا لايكون مجال للقول بتهافت قصة تقسيم المدينة بعامة وكنيسة القديس يوحنا بخاصة . وقد سمح للنصارى بالاحتفاظ بأملاكهم وديارهم وكنائسهم ، ولم يُفرض عليهم إلا أداء الجزية .

وشتى العرب في دمشق ، ولكنهم اضطروا إلى الجلاء عنها عند تقدم جيش هرقل الجرار في ربيع عام ٦٣٦ م . وكان على العرب أن يضربوا حول المدينة حصاراً ثانياً بعد وقعة اليرموك الحاسمة في رجب عام ١٥هـ الموافق ديسمبر سنة ٦٣٦ م . وقد عقد اللواء فيها لأبي عبيدة . ومن ثم يسلك كيتاني الحوادث التي قيل إنها وقعت عند باب الجابية في هذه المرحلة الثانية . ومهما يكن من شيء فقد استسلمت المدينة للمرة الثانية في ذي القعدة من عام ١٥هـ الموافق ديسمبر عام ٦٣٦ م في ظروف ربما كانت أشد وأقسى من المرة الأولى ، ولعل الكنائس التي تركت للنصارى بهذه المناسبة كانت خمس عشرة كنيسة .

وكان لسقوط دمشق ، جنة الأرض ، أهمية لا توصف . وسكن المسلمون الديار التي أخلاها الروم . وكانت الأحوال في هذه البقعة مواتية أكثر منها في اي بقعة أخرى لأن يهضم العرب الثقافة اليونانية في هذه القصبة الحضارية العظيمة التي كان قد استقر في أرباضها عدد كبير من العرب . وكان من حسن الطالع للإسلام والمدينة على السواء أن يستعمل عليها رجل من بيوتات مكة التي أثبتت أنها قادرة قبل كل شيء على أن تنقل الحضارة إلى أمة محمد ، ونعنى بهذا الرجل يزيد بن أبي سفيان الأموي .

دمشق في عهد الأمويين

ومات يزيد عام ١٨هـ في طاعون عمواس ، وخلفه أخوه معاوية فوحد الشام بأسرها تحت حكمه عام ٣١ هـ . ومكن لنفسه تمكيناً في ولايته حتى استطاع بعد مقتل عثمان أن يحارب الخليفة علياً ليثأر لعثمان ، وهي الحرب التي انتصر فيها آخر الأمر عام ٤١هـ الموافق ٦٦١ م بعد مقتل علي وتنازل ولده الحسن عن حقه في الخلافة . وأصبحت دمشق قصبة الدولة الجديدة ، وبلغت شأوا عظيما في تاريخ العالم لم تبلغه من قبل ولا من بعد . ومن العسير أن نقدر مدى ما أفادته المدينة من هذه المكانة بعيد ذلك . ويظهر أن معاوية لم يبذل جهدا كبيرا في عمارة المدينة على نطاق واسع . وظلت المنطقة المحيطة بكنيسة القديس يوحنا التي أصبحت فيما بعد المسجد الأموي الكبير سرة المدينة كما هو شأنها اليوم . ويقوم في هذه المنطقة جنباً إلى جنب المسجد القديم وكنيسة القديس يوحنا وقصر معاوية الجديد «الخضراء» . وليس لدينا وصف معاصر للمدينة في هذا العهد إلا ما كتبه الأسقف الغالي أركلف Arculf . فهو يقول كما جاء في رواية القس أدمنان Adamnan: «in qua (sc ciuitate) saracenorum» «rex adeptus eius prinipatum regnat,» et ibedem in honorem Sancti Johannis» «baptistae grandis funddata ecclesia» «est. Quaedam etiam Saracenorum» «ecclesia incredulorem et ipsa in eadem»

«ciuitate, quam ipsi frequentant,» «fabricata est (I tinera Hierosobymitana»
«saeculi III-VIII, ed Geyer. P. 276)» [1] وتخلص من هذا إلى أن المسجـد كان منفصلا تمام الانفصال عن الكنيسة . وواضح من الروايات العربية التـي تصف الحوادث التي وقعت بعـد ذلك أن المسجـد والكنيسـة كانـا متجـاورين وأن قصر الخضراء كان ملاصقاً لهما ، ومن ثم كان معاوية ينفذ منه إلى المسجد مباشرة ، كما أن الكنيسة كانت قريبة منه إلى حد أن ناقوسها كان يقلق منامه وهو في شيخوخته (ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ص ٢٣٨) . ويروى ابن جبير (طبعة دي غوي ، ص ٢٦٩) أن القصر . كان إلى يسار الخارج من المسجد الأموي من باب الزيادة (انظر الخطة الواردة في Baedeker) في الموقع الـذي قام عليه سوق النحاسـين من بعد ، وهو سوق الصاغة في العصر الحديث (انظر أيضاً كتاب الأغاني ، ج ٦ ، ص ١٣٩ ، س ٣ وما بعده) .

ولم يوجه يزيد بن معاوية وخليفته عناية خاصة بالمدينة ومع هذا فقد أسدى الى النواحي المجاورة لدمشق جميلاً وذلك بشقه قناة يزيد أو مدها (انظر مادة «بردى» وانظر المجلة الآسيوية ، السلسة التاسعة ، ج ٧ ، ص ٤٠٠ وما بعدها) . ولما مات معاوية بن يزيد (عام ٦٤ هـ الموافق ٦٨٣ م) لم يكن هناك من الفرع السفياني الأموي من له حق واضح في الخلافة ، فتنازعتها الأحزاب ، ونشبت في دمشق فتنة أثناء الصلاة وبعدها كان للضحاك بن قيس (انظر هذه المادة) فيها شأن مزدوج ، فقد تعارك أنصاره مع أنصار الأمويين وعلى رأسهم حسان بن مالك بن بحدل ، وقد عرفت هذه الفتنة بيوم جيرون . ويروي ياقـوت (ج٢ ، ص ١٧٥) أن جـيرون سقيفة مستطيلةذات عمد من أيام الجاهلية نسب إليها الباب الشرقي للمسجد الكبير فقيل باب جيرون وهذا البناء المشهور إلى الشرق من المسجد الحديث قد بقي إلى عام

---

(١) ترجمة هذه العبارة اللاتينية «وقد اعتلى عرشها ولا يزال يحكمها ملك عربي . وفيها كنيسة عظيمة بنيت لتمجيد القديس يوحنا المعمدان . وهناك أيضاً معبد لكفار العرب «كذا!» بنى في هذه المدينة نفسها التي يرتادها العرب أنفسهم «رحلة إلى بيت المقدس بين القرنـين الثالـث والثامن ، طبعة جيير Geyer ، ص٢٦٧» .

٥٥٩ هـ الموافق ١١٦٤ م حتى أتت النار عليه . ويقول المسعودي (مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٧١) إن قطعاً منه استعملت في بناء المسجد .

وبعيد عن الشك أن الأبهاء ذوات العمد كانت جزءاً من عمارة المعبد القديم ، ولم تكن كنيسة القديس يوحنا تشغل إلا جانباً منه ، وقد أخذت من هذه الأبهاء الأعمدة المنفصلة أو المجتمعة التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا في بنايات أخرى (انظر عن جيرون أيضاً de Sacy في ترجمته لعبد اللطيف ، ص ٤٤٢ وما بعدها) وإذا ذكرنا أن اليوم الذي اشتهر بجيرون وقع في المسجد نفسه (الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ وما بعدها) رجح عندنا أن جيرون هو المسجد القديم ذاته . ومن ثم وجب أن نبحث عن موقع هذا المسجد أهو إلى الشرق من المسجد الأموي الحالي كما تقول الروايات ؟ ولا نستطيع أن نتثبت على وجه اليقين من موضع المسجد من كنيسة القديس يوحنا .

ولعل تعيين موقع الكنيسة أشق من تعيين موقع المسجد القديم (انظر الرأي الجديد الذي قال به تيرش Thiersch: Pharos ، ص ١٠٤) وهذه المسألة على الرغم من بساطتها البادية في كتاب كايتاني Annali dell'Islam: Caetani ج ٣ ، ص ٢٩٠ وما بعدها (وإن كان ينبغي ألا يفوتك أن تنظر المؤلف نفسه ص ٣٤٩ و Beker في Islam ، ج ٢ ، ص ٢٩٧) ليست بحال سهلة إلى هذا الحد .

انتهت الحروب التي بدأت بيوم جيرون بوقعة مرج راهط الدامية التي حفظت الخلافة للفرع المرواني من بيت بني أمية . وزاد الشعور رويداً رويداً بالحاجة إلى التظاهر بمجد الدولة وعظمتها لما ضعفت مكانة الخلفاء الشخصية وقل سلطانهم في الفترة التالية ، ومن ثم كانت هذه الفترة أزهى الفترات في تاريخ دمشق ، ولو أن عوامل الانحلال كانت قد بدأت تعمل فيهما خفية . ويرجع الفضل الأكبر في شهرة المدينة إلى المسجد الأموي الذي شيده الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وهو أعظم من اهتم بالعمارة في العصر الأموي .

أما المسجد القديم فلم يستعمل إلا بصفة مؤقتة ، وهكذا أصبح للحاضرة بيت للعبادة جدير بمكانتها . وقد سبق أن بينا الموقع الذي اختير لإقامة المسجد عليه . وظلت سرة المدينة كما كانت في العهد الجاهلي والمسيحي فيما جاور المعبد

الكبير ، وكان هم المسلمين الأول هو تجريد النصارى من كنيستهم وبناء مسجد جديد في موضعها وموضع المسجد القديم بالمواد التي كانت لا تزال باقية في أطلال المباني القديمة الفخمة ، وتم لهم ما أرادوا . وأكره النصارى عام ٨٦هـ الموافق ٧٠٥ م على التخلي عن كنيستهم ، فهدم جزء منها شيد على أطلاله البناء الجديد ، وهو الذي عده الناس فيما بعد ثالث عجيبة من عجائب الدنيا . وجرى الناس على القول بأن بناء الكنيسة لم يتغير في جوهره ، وأن كل ما عمله الوليد هو القيام بزخرفته . على أنه قد وجهت إلى هذا الرأي حديثاً اعتراضات لها قيمتها ووزنها (انظر بصفة خاصة Pharos: Thiersch ، ص ١٠٤ ، ٢١٤) . وأثبتت الدرس الدقيق للبناء أن الصحن والمحراب بصفة خاصة لا يمكن أن يرجعا إلى ما قبل الإسلام Palestine Exploration Fund Quarterly Statement of the: Dickie ، ١٨٩٧ م . ص ٢٦٨ - ٢٨٢) . وكانت النفقات التي أنفقها الوليد على هذا البناء باهظة . فقد استحضر له من القسطنطينية حشوداً من العمال لصنع الفسيفساء بخاصة . وقد ثبت من أوراق البردي التي عثر عليها حديثاً أنه استقدم من مصر مهرة العال وجلب منها مواد البناء . (انظر Islam ، ج ٢ ، ص٢٧٤ ، ٣٧٤) . ولعله لم يبق إلا على أركان الجدران القديمة ، وإذا صح رأي تيرش فإن هذه الأركان لم تكن بالضرورة جدران الكنيسة نفسها ، كما أبقى على أبراج الكنيسة الغربية والشرقية واتخذها مآذن . والذي يقرأ المصادر العربية يرجح أن المعبد القديم برمته قد دخل في بناء المسجد الجديد ، إلا أن هذا القول مشكوك فيه إلى حد كبير .

وتفصيلات الأمر جديرة بأن تتجلى بأجلى بيان إذا عاود الخبراء دراسة هذا الموقع عن كثب وتناولوا الروايات الخاصة بذلك تناولا حكيما يقوم على الإنصاف .

ومهما يكن من شيء فمن الثابت أن الوليد قد جعل مجموعة المباني الباقية الى الآن مسجداً واحداً ، وشيد المئذنة الشمالية المعروفة بمئذنة العروس التي استخدمت برجاً للمراقبة كما يتضح من أقوال الكتاب المتأخرين ، وأقام المصلى بفسيفسائها الجميلة في صورة لا تختلف في الجوهر عن الصورة التي تبدو عليها الآن ، فهي معبد له ثلاثة صحون ومحراب ، وتعلوه القبة المشهورة المعروفة بقبة النسر . (انظر عن هذا الاسم Deutschen Moregenl. Ges. Zeitschrift der ،

جـ ٦٠ ، ص ٣٦٩ ، ٧٠٢ ؛ جـ ٧٤ ، ص ٦٦١ ؛ أما عن القيمة الفنية للمسجد فانظر أيضاً H. Saladin : Manuel d'Art Musulman جـ ١ ، ص ٨٠ - ٨٧ ؛ Stzygo ski Van Berchem : Amida ، ص ٣٢٦ وما بعدها) .

ولم يفعل الخلفاء المتأخرون شيئاً كثيراً لدمشق ، ونقل بعض المروانيين حاضرة ا لخلافة الى مكان آخر ، في حين كان ينفق غيرهم شطراً كبيراً من السنة في قصورهم بالبادية (انظر هذه المادة) أما قصور دمشق العظيمة التي كانت خليقة بإظهار مجد الأمويين لو كتب لها البقاء فقد ذهبت طعمة للثورة التي انتابت العباسيين في سعيهم الى محو آثار أسلافهم . وقام بالمدينة في عصر متأخر سجن في موضع الخضراء . وحسبنا أن نذكر قصراً أموياً واحداً آخر هو قصر الحجاج نسبة الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان ، ذلك أن الطريق الكبير المؤدي الى الربض الجنوبي الغربي المعروف بربض الميدان لا يزال يحمل اسمه الى وقتنا هذا ، وكان هذا القصر خارج الباب الصغير وباب الجابية (ياقوت ، جـ ٤ ، ص ١١٠ ومن ثم يتضح لنا أن قول فون كريمر Von Kremer في كتابه Topographte ، جـ ١ ص ١٤ غير مقنع ، انظلا المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ص ٣٧٩) .

وقد رسم فون كريمر (جـ ١ ، ص ١١٤ Culturgeschichte) صورة شائقة جداً للحياة في حاضرة الخلافة ، ولعل في تصويره هذا شيئاً من المبالغة . ومن سوء الحظ أننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن وقت إسلام هذه المدينة ومدى ما بلغه الإسلام منها . ولكن من الجلي أن عدد المسلمين الذين أقاموا فيها بعد الفتح مباشرة زادوا بلا شك زيادة كبيرة بالهجرة إليها . ولم يكن الدين في عهد الخلفاء الأمويين الأول على الأقل حاجزاً منيعاً بين المسلمين وغيرهم ، فنحن نجد النصارى على صلات وثيقة بالخلفاء يشغلون أرفع المناصب ، ونخص بالذكر الأسرة الرومية من جباة الخراج التي كان لها شأن في إخضاع المدينة والتي ينتمي إليها يوحنا الدمشقي (Caetani ، جـ ٣ ، ص ٣٧٦ ؛ Lammens : Mélanges de la Fac. or. جـ ٣ ، ص ٣٤٨ وما بعدها) وكانت الأحوال في المدينة وقتذاك تتطلب إحكام العلاقة بين الديانتين ، ويتضح لنا بجلاء من كتابات يوحنا الدمشقي كيف أثرت النصرانية

تأثيراً قوياً في دراسة المسلمين لعلم الكلام الذي كان آخذاً في التطور . ومن الواضح أيضاً أن كتابات يوحنا كانت من بعض الوجوه ثمرة للمناظرات بين النصارى والمسلمين (انظر Zeitschr. Fur Assyriologie Becker جـ ٢ ، ص ١٧٥ وما بعدها) .

وجر زوال العهد الأموي ، وما صحبه من فتن ، الويلات على المدينة . فقد أشعل العراقيون المشاغبون النار فيها مراراً في غضون سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ودمروا عدداً من أحيائها (الطبرى ، جـ ٢ ، ص ١٨١٤ ؛ Theophanes طبعة دي بور de Boor ، ص ٤١٢) ونجح يزيد بن الوليد عام ١٢٦ هـ في استعادة القصبة والخلافة بانقلاب قام به بغتة ، والظاهر أن هذا الانقلاب تم من غير إراقة دماء . ولما مات يزيد احتل مروان بن محمد عام ١٢٧ هـ (٨٤٤ م) دمشق من غير مقاومة ، وعمد خصمه سليمان بن هشام الى الفرار . ولكن الخليفة الجديد نقل حاضرة دولته من دمشق الى حران فانتقض عليه أهل الشام . وأخمدت الفتنة ، وعوقب المنتقضون بهدم أسوار دمشق كما يقول تيوفان . وقد قامت دمشق بواجبها بوصفها حاضرة الخلافة الإسلامية .

دمشق من سنة ٧٥٠ م - ١١٥٠ م

وبدا أن مروان قد مكن لدولته ، على أنه لم ينقض على ذلك سنتان حتى سقطت الدولة الأموية أمام ضربات العباسيين . وفتح دمشق «عبد الله بن العلي» ، أحد عمال الخليفة الجديد ، بعد حصار قصير في غرة رمضان عام ١٣٢ هـ الموافق ٢٨ أبريل عام ٧٥٠ م . وأطلق العباسيون العنان لحقدهم ، فانتهكوا حرمة قبور الأمويين . ويقول مؤ رخو العرب إن أسوار دمشق القديمة هدمت في ذلك الوقت . واستقر الخلفاء الجدد في العراق ، وانكمشت دمشق فأصبحت قصبة ولاية فحسب . وكان الخلفاء في كثير من الأحيان يستعملون على الولايات الغربية أحد الأمراء المقربين لهم في بغداد ، فيكتفي هذا الأمير أيضاً بإنفاذ نائب عنه يلي أمرها ، ولم يكن ذلك في مصلحة هذه الولايات .

ولم تذكر دمشق في العهد التالي إلا قليلاً ، وواضح أن الخلاف الذي أخذ أمره يستفحل أيام المروانيين ، بين القيسية واليمنية في الشام ، استمر في عهد العباسيين (ففي عام ١٧٦ هـ أنفذ موسى البرمكي الى دمشق ، وفي عام ١٨٠ هـ أنفذ أخوه جعفر) وطبيعي أن زيارات الخليفة لدمشق من وقت الى آخر لم تعد الى هذه المدينة عزها القديم حين كانت قصبة الدولة الأموية . وانصرف المتوكل عن فكرته في إعادة قصبة الخلافة الى دمشق (عام ٢٤٤ هـ الموافق ٨٥٨ م) بعد إقامته القصيرة فيها .

وكانت الدولة تسير بخطى سريعة نحو الانهيار . ففي عام ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) تولى أحمد بن طولون القوي المقتدر أمر مصر ، فلم تلبث هذه الولاية أن أصبحت مستقلة بالفعل عن الخلافة ، وفي عام ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) وقعت بلاد الشام بما فيها دمشق في قبضة أحمد . ولم تعمِّر السيادة الطولونية عليها إلا حوالي ربع قرن . وكانت الفترة الأولى من هذا العهد فترة ازدهرت فيها مصر ازدهاراً ، ولا ينطبق هذا القول تماماً على بلاد الشام ، لأنها كانت أكثر من مصر تعرضاً لهجمات الأعداء ، وإن كنا قد قرأنا عن قصر شيده خمارويه لنفسه بالقرب من دمشق أسفل دير مرّان (انظر هذه المادة) على نهر تورا ، وهو القصر الذي اغتيل فيه في ذي الحجة عام ٢٨٢ هـ . أما الفترة الثانية فقد أفل فيها نجم الطولونيين ، واقترنت بغارات مخربة شنها القرامطة الذين كانوا دائبين على الظهور عند أبواب دمشق منذ عام ٣٨٩ هـ (٩٠٣ م) حتى قضى جند الخليفة عليهم ، ثم قضى هؤلاء الجند على الحكم الطولوني بعد ذلك .

وولى طغج بن جُف حكم دمشق أيام خماروية ، وكان طغج سليل البيت الإخشيدي فيما وراء النهر وجندياً مقتدراً . وقد قدر لولده الإخشيد ، الذي حكم مصر عام ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) أن يكون له في مصر والشام ما كان للطولونيين من شأن . فقد كانت الشام دائماً ولاية تحف بها المخاطر لا يستتب أمرها لمن يملكها . وانهار الإخشيديون آخر الأمر أمام دولة كانت هي أيضاً تناضل في سبيل الحصول على اللقب الديني الذي كان يحمله الخليفة المجرد من الحول والطول ذلك أن دولة الفاطميين الشيعية كانت منذ أمد طويل متأهبة للانقضاض على مصر ، ووجد المعز

أن الفرصة واتت عندما ألفى القرامطة يعاودون نهب الشام ، فاستولى على مصر عام ٣٥٨ هـ (٩٩٩ م) وعلى دمشق في العام نفسه ، ولكن دمشق خرجت عن طاعته بعد ذلك مباشرة . فأخذها القرامطة أولاً ، فلما قضى عليهم عمت الفوضى المدينة وأحرق كثير من أحيائها . وحكم الفاطميون دمشق بعد ذلك قرناً لم تكن فيه أسعد حالاً . فنحن نقرأ كثيراً عن تبديل الولاة وعن قيام فتن لا يمكن أن ترد أسبابها الى ما فطر عليه أهلها من شغب فحسب . وقد أدت إحدى هذه الفتن الى إحراق المسجد الأموي عام ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) .

وفي عام ٤٦٨ هـ (١٠٨٦ م) استولى القائد السلجوقي أتْسِز على دمشق ، وبذلك خسر الفاطميون المدينة الى الأبد . وخطب باسم الخليفة العباسي مرة أخرى على منابرها . ويقال إن أتسز هو الذي شيد القلعة (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ص ٣٧٥) ولكن من المحقق أن أساسها قد أقيم قبل عهده . ولم يد حكم أتسز إلا أعواماً قليلة ، واضطر الى إخلاء المدينة عام ٤٧١ هـ (١٠٧٩ م) للأمير السلجوقي تُتُشّ . (انظر كتاباته في Inser, Arabes de Syrie: Van berchem ص ١٢ وما بعدها ، وفي zur Assyrioluge Beitrage المجلد السابع ، جـ ١ ، ص ١٤٩) ولما توفى ، حكم طغتكين البلاد باسم ابنه دقاق ، وإليه ينسب بيمارستاناتها (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢) وخانقاه من خانقاهاتها (المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٨٢) ويقال إن أقدم مدرسة في المدينة ترجع الى عهده (المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٦) وتوفى دقاق سنة ٤٦٩ هـ (١١٠٤ م) ثم توفى ابنه بعده بقليل ، فاستقل طغتكين بأمر دمشق فعلاً ، وأسس بذلك الدولة البورية (انظر هذه المادة) التي حكمت دمشق نصف قرن من الزمان .

ولم تنشط العمارة في المدينة على نطاق واسع في تلك الفترة العاصفة التي أغار فيها الفرنجة على الشام (ومع ذلك فإنا نحيل القارىء الى مجموعة النقوش الخاصة بهذه الدولة التي أوردها Florilegium de Vogué: Van Bervhem ص ٣٩ ، ٤٣) وأنقذ طغتكين ما يعرف بمصحف عثمان الأصلي في طبرية التي كان يهددها الصليبيون عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩) فزاد بذلك من جلال المدينة الديني . وأثبت

خلفاؤه شيئاً فشيئاً أنهم عاجزون عن مواجهة الأخطار التي كانت محدقة بهم . فقد كان الفرنجة يهاجمون دمشق حيناً (مثال ذلك في عام ٥٢٣ هـ الموافق ١١٢٩ م ، وفي عام ٥٤٣ هـ الموافق ١١٤٨ م) وكان البوريون يستنجدون بالفرنجة حيناً آخر على زنكى (٥٣٤ هـ الموافق ١١٢٩ م) وابنه نور الدين (٥٤٦ هـ الموافق ١١٥١ م) صاحبي حلب . واستطاع نور الدين في النهاية أن يستولي على المدينة في عام ٥٤٩ هـ الموافق ١١٥٤ م .

دمشق في عهد نور الدين وصلاح الدين

كان حكم نور الدين لدمشق فاتحة عهد جديد من الرخاء أصاب المدينة ، وكان عهده وعهد صلاح الدين أزهى أيامها ، ويختلف مجدها عنه أيام الأمويين . وقد تأثر هذا العهد كله بالجهاد الديني ، فأصبح لزاماً أن يعنى أولاً وقبل كل شيء بتحصين المدينة والنهوض بعلوم الدين ، ومع ذلك لم تهمل علوم الدنيا إهمالاً تاماً . ويمثل هذا العهد ابن عساكر مؤرخ دمشق العظيم ، ثم اقتصر شيئاً فشيئاً على تدريس علوم الدين . وكان للاضطراب الذي شاع أيام الحروب الصليبية نصيب كبير في ازدياد نعرة التعصب الديني في دمشق . فأصبحت بذلك أعظم حصون الإسلام .

واقترن اسم دمشق في العهود المتأخرة باسم صلاح الدين ، بل إن شعراء الغرب أنفسهم قد أشادوا بمجدها بوصف مقاماً له ، ومع ذلك فإن سلفه نور الدين هو الذي أسبغ على المدينة في الحقيقة طابعها الذى عرفت به ، فقد زاد فى تحصينها بتجديد أسوارها بأبراجها وأبوابها ، وشيد مسجداً في شمال قلعتها ، وفتح في هذه الناحية منها باباً جديداً هو باب الفرج ، وبنى بالقرب منه باب العدل أو دار السعادة (انظر المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة جـ ٧ ، ص ٢٤٦ ؛ حاجى خليفة ، جهاننما ، ص ٥٧٢) والراجح أن هذه الدار كانت قائمة كما يستدل من قول كريمر (Topographie: Von Kremer جـ ١ ، ص ١٤ ؛ جـ ٢ ، ص ١١) في

موقع سراي الحربية الحالية وظلت مستعملة حتى العصر التركي قصراً للحاكم . ولكن أشهر هذه الأبنية هي التي أقامها للسير والتقوى ، ولا نستطيع هنا أن نذكر إلا أهمها ، أي المدرسة الخاصة بالحديث ، وهي أقدم مدرسة من نوعها ، وقد درس فيها ابن عساكر (Goldziher: Muh. Studien ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ وما بعدها) ثم البيمارستان المشهور المعروف بمارستان نور الدين ، ولا يزال قبره قائماً في المدرسة النورية التي نسبت إليه ، يبجله الناس ويحترمونه .

ومات نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فوقع جل مملكته ، بما فيه دمشق ، في يد صلاح الدين بن أيوب ، وكان صلاح الدين قد استقل بأمر مصر بالفعل . وقد أكسبت انتصاراته دمشق عزا لم تحلم به من قبل . والحق أن النشاط الذي بدأه نور الدين في إقامة العمائر لم يخمد ؛ إلا أن الحروب المتصلة التي خاض غمارها صلاح الدين لم تترك له فسحة يوجه همه فيها الى توطيد دعائم السلام . وتوفى صلاح الدين بعد عقد الصلح مع رتشارد الأول (قلب الأسد) بستة أشهر لسبعة وعشرين يوماً خلت من صفر عام ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣) ودفن أول الأمر في القلعة ، ثم نقلت رفاته الى المدرسة العزيزية .

وحوصرت المدينة مرات إبان القتال العنيف الذي استعر بين ولدي صلاح الدين ، الأفضل (انظر هذه المادة) والعزيز (انظر هذه المادة) ، وأخيه العادل (انظر هذه المادة) فأصاب هذا الحصار المدينة بشر كبير . ولم تستعد دمشق هدوءها وأمنها في عهد العادل إلا بموت العزيز ، والقضاء المبرم على الأفضل (وفي هذا العهد وسعت القلعة ، وشيد مسجد العيدين ؛ انظر المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة جـ ٧ ، ص ٣١) .

وهدد الفرنجة دمشق أيام ولده وخليفته المعظم عيسى ، ولكن خطرهم زال عنها ، وبعد أعوام نشب الخلاف بين أمراء البيت الأيوبي ، وانتهى هذا النضال بتحالف الصالح إسماعيل صاحب دمشق مع النصارى على الصالح أيوب عزيز مصر ، وهو التحالف الذي أسخط العالم الإسلامي أشد السخط . وقد استطاع الصالح أيوب بمساعدة الخوارزميين أن يهزم الحليفين في غزة عام ٦٤٣ هـ

(٦٤٤ م) وأن يعيد دمشق الى حوزة مصر . ولما مات المعظم توران شاه بن الصالح أيوب عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) استولى الناصر يوسف صاحب حلب على قصبة الشام الجنوبية ، وكان بذلك آخر من استولى عليها من الأيوبية .

ولم تتأثر العمارة التي بدأها نور الدين بالفتن التي سادت هذا العهد . فقد تنافس أمراء البيت الأيوبي وأميراته وسائر أشراف المملكة في إنشاء المباني الخيرية ، وأصبحت دمشق بذلك مدينة المدارس . وزار ابن جبير المدينة أيام صلاح الدين ، وأحصى فيها نحو عشرين مدرسة ، ولكن هذا العدد زاد بعد ذلك أضعافاً . على أن شأن هذه العمائر في تاريخ العلوم الإسلامية ، وبالأحرى في أعمال البر والتقوى ، أهم من شأنها في تاريخ المدينة ذاتها . ومن ثم نحيل القارىء الى ترجمات سوفير في المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة جـ ٣ ، ٧ ؛ ويمكن أن نقارن ما كتبه سوفير بما ورد في Zeitchr. der Deutsch. Morgenl. جـ ٨ ، ص٣٥٦ - ٣٧٤ .

عهد المماليك

قضت غزوة هولاكو المغلية على الحكم الأيوبي في دمشق بعيد منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وفتحت المدينة ، وقد خلت من الجند ، أبوابها للغزاة في ربيع الأول عام ٦٥٨ هـ (مارس ١٢٦٠ م) ولم يلق هؤلاء إلا مقاومة في قلعة دمشق لم تُسفر عن شيء . ثم أصبح مماليك مصر بانتصارهم في عين جالوت (انظر هذه المادة) سادة الشام . وفر المغل ، ولقى النصارى الجزاء الوفاق على حسن استقبالهم للمغل بهدم كنيسة مريم المشهورة (انظر أبو شامة Rec. Hist. Crois. Or. جـ ٥ ، ص ١٩٤)

وأصبحت دمشق في العهد التالي قصبة أهم ولايات المماليك في الشام ، ألا وهي مملكة دمشق ، التي كانت تضم في الواقع سورية الجنوبية بأسرها ، من حدود مصر جنوباً الى بيروت وحمص وتدمر والرحبة على الفرات شمالاً (ثم انتقلت القصبة الى حلب فيما بعد) مع استثناء دويلات الكرك وصفد (ومع استثناء غزة وحمص أيضاً اللتين ظلتا فترة من الزمن بعيدتين عن قبضة المماليك) .

وقد عادت مدينة دمشق الى سابق ازدهارها في عهد الظاهر بيبرس (انظر هذه المادة) منشىء دولة المماليك العظيم . وكان هذا السلطان الذي لم تكن تفتر له عزيمة ، كثيراً ما يعقد ديوانه في مدينة دمشق .

ولم يكتف بيبرس بإعادة بناء أسوار المدينة المتخربة والقلعة فحسب ، بل شيد لنفسه أيضاً قصراً جديداً في الميدان الأخضرعلى نهر بردى ، وهو القصر الأبلق المشهور . ويقال إن السلطان الناصر قلاوون (انظر هذه المادة) اتخذه مثالاً شيد على صورته القصر المعروف بالاسم نفسه في القاهرة في موضع التكية الحديثة (انظر Quatremére في ترجمة لكتاب السلوك للمقريزي ، جـ ١ ، ، القسم الثاني ص ٤٤ ؛ المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة جـ ٧ ، ص ٣٥٣ ؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ ١ ، ص ١٠٩) وتوفى السلطان بيبرس في مدينة دمشق عام ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) ودفن بالمدرسة الظاهرية التي أمر ابنه السلطان السعيد عامله على دمشق عز الدين أيدمر ببنائها الناحية الشمالية الغربية من الجامع الأموي .(المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، القسم الثاني ، ص ١٦٢ ؛ المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٣ ، ص ٢٤٠ وما بعدها) .

وكان حكم بيبرس جديراً بأن يعد امتداداً للازدهار الذي أصاب المدينة منذ عهد نور الدين ؛ وكانت العلوم تنتشر فيها باطراد ، وحسبنا أن نذكر شاهداً واحداً على ذلك هو اسم «النووي» (انظر هذه المادة) . ولكن المدينة أصابها شيء من الاضمحلال في عهد سلاطين المماليك المتأخرين ، وظلت المدينة الثانية في الدولة بلا منازع ، وكان من الطبيعي ألا يولى على هذه الولاية التي كانت أهم الولايات جميعاً إلا أبرز المماليك وأعظمهم . ولكن سرعان ما نشأ عن ذلك تنافس بين السلطان في مصر وعامله على دمشق . وكان السلطان دفعاً لهذا التنافس يعين بنفسه أمير القلعة مستقلاً عن سلطة الوالي ، وأدى هذا بطبيعة الحال الى توتر دائم في العلاقات بين هذين العاملين . وما إن خُلع السعيد بن بيبرس وتولى قلاوون السلطة حتى ثار سنقر الأشقر عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) مؤ يداً بفتوى من قاضي القضاة ابن خلكان ، ولكن هذه الثورة أخمدت في العام التالي . وحدث أثناء

الاضطراب الذي أعقب اغتيال الأشرف خليل ، أن أحاطت بالسلطان «كُتبغا» كتائب من الجند تابعة للاجين في قلعة دمشق ، وأرغم كتبغا على التسليم عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م) . ويقال إن نائباً آبقاً من دمشق يدعى «قبجاق» ، هو الذي تسبب في استقدام حملة غازان المغلية عام ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) وقد لقيت دمشق من جرائها شر الدمار خلال المعارك التي نشبت بين المغل الذين كانوا يحتلون المسجد ، وبين المماليك الذين كانوا يستميتون في الدفاع عن أنفسهم بالقلعة ، على حين خربت أرباض المدينة مثل الصالحية (انظر هذه المادة) تخريباً تاماً . وسوى جند حامية القلعة الأماكن المجاورة كلها بالأرض ، من باب النصر الى باب الفرج ، أما المغل فقد أحرقوا أقساماً كبيرة من المدينة ، منها دار الحديث التي شيدها نور الدين . وسرعان ما ارتد المغل ، وخضع «قبجاق» للسلطان الناصر ، وكان قد استعمله غازان والياً من قبله . ونجت دمشق من غزوة المغل عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) ولم يصبها من جراء ذلك إلا ذعر انتاب أهلها . ونحن نلاحظ فيما يتصل بالحياة العقلية للمدينة في ذلك العهد نشاط ابن تيمية (انظر هذه المادة) الذي انتهت به آراؤه الحنبلية الى الاصطدام بالحكومة .

وفي الفترة الثالثة من حكم الناصر ، ظل تنكز والي دمشق الذي كان يتبعه نواب الشام جميعاً ، أميراً على الشام ربع قرن (٧١٢ ـ ٧٤٠ هـ ـ ١٣١٢ ـ ١٣٣٩ م) وكان سلطانه في الواقع مطلقاً . وقد أسس عام ٧١٧ هـ مسجد التنكزية في موضع دور الحربية الحالية وخلف سراي الحربية (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ص ٢٣٧ وما بعدها) كما أسس عام ٧٣٩ هـ مدرسة لدرس التفسير والحديث (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٣ ، ص ١٨٤) وأصلح الجدار الجنوبي الغربي المتهدم من الجامع الأموي ، ويقال أيضاً إنه وسع الطرق ، وبينما كان مشغولاً بترميم ما أحدثته النيران في المدينة من تلف غضب عليه السلطان فقتل شر قتلة وهو سجين في الإسكندرية .

وأعقب عهدي الناصر وتنكز اللذين كانت ترفرف فيهما ألوية السلام على دمشق حكم سادته بالفوضى والتنازع ، واقتتل فيه الأمراء على السيادة ، وعادت دمشق في السنوات ٧٥٣ ، ٧٦٢ ، ٧٩٠ هـ مسرحاً لهذه الحروب . ونشبت عام

٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) أمام أبواب المدينة الوقعة الحاسمة بين «منطاش» الوزير المطلق النفوذ وبرقوق السلطان المخلوع ، وهي الوقعة التي استعاد بها هذا السلطان ملكه . وكان لا بد لابنه فرج أن يسترجع المدينة عام ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) وعاد التنافس بين الأمراء مرة أخرى في عهدالسلطان الفتى ، ومن ثم وقعت بلاد الشام لقمة سائغة في فم تيمور ، وعسكرت جنده في جمادي الأول عام ٨٠٣ هـ (ديسمبر ١٤٠٠ م) أمام دمشق . وتقرر مصير الحملة ، لما ترك فرج عسكره لفتنة نشبت بينهم ، وفر الى مصر ، فاستسلمت المدينة ، وإن ظلت القلعة تدافع عن نفسها دفاع المستيئس أمداً طويلاً . وعاث الجند في المدينة نهباً وسلباً مخالفين في ذلك شروط التسليم ، وأشعلوا فيها ناراً أتت على الجانب الأكبر منها وذهبت بأرواح لا تحصى من أهلها . وقد روى يوحنا شلتبرجر البافاري الذي كان مملوكاً في جيش تيمور زماناً طويلاً أن ثلاثين ألفاً من النساء والرجال والأطفال حبسوا في المسجد الكبير ، ثم أشعلت النار فيه . ومن المحقق أن غارة تيمور هذه كانت على أقل تقدير أشد نازلة أصابت دمشق لعدة قرون ، وهي المدينة التي تقلبت عليها النوائب .

ومرة أخرى غلبت على الفترة الثانية من حكم فرج الفوضى التي تسبب فيها الأمراء الثائرون الذين انحصرت وقائعهم بصفة خاصة حول دمشق المنكودة ، وكانت هذه المنازعات تتكرر باستمرار في القرن الأخير بأسره من حكم المماليك . وكان تغير السلطان في القاهرة يعد عادة دليلاً على انتقاض والي دمشق ، ومن ثم فليس بعجيب أن المدينة . تفق بسرعة من الويلات التي جرتها عليها غارة تيمور . ويقول القلقشندي المتوفي عام ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) إنه لم يعمر في زمانه سوى جانب يحيط بالمسجد ، وبقيت سائر أجزاء المدينة أنقاضاً (ضوء الصبح ، ص ٢٨٣ ومهما يكن من شيء فقد كانت تبنى باستمرار مدارس جديدة ومساجد . وشاعت أسماء السلاطين في نقوش كثيرة تدل على تشييد مبان جديدةوتعمير أخرى خربة خاصة بأعمال البر ومظاهر الملك . والى هذا العهد تدين دمشق بمبان كثيرة مثل الصابونية الجميلة في طريق الميدان (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٣ ، ص ٢٦٤) ، ومسجد يلبغا ناحية الشمال الغربي من القلعة (المصدر نفسه ص ٢٣٦ ، ٤٣١ وما بعدها) كما يعود تاريخ المئذنة الغربية في المسجد الأموي في

صورتها الحالية الى عهد قايتباي ، لأن ذلك الجزء منه قد أحرق عام ٨٨٤ هـ ، على أن أمراء المماليك أنفسهم الذين كانوا أعلى من ذلك همة عادوا لا يستطيعون أن يردوا المدينة الى عهد دائم من الرخاء والازدهار .

العهد التركي

وما انقضت بضعة أسابيع على هزيمة المماليك في دابق لخمسة وعشرين يوماً خلت من رجب عام ٩٢٢ هـ (٢٤ أغسطس ١٥١٦) حتى فتحت دمشق أبوابها للعثمانيين . وكانت المدينة فيما مضى من العهد المملوكي قصبة ولاية من الولايات فحسب ، ولكنها انتقلت الآن انتقالاً تاماً الى حكم الأجنبي ، ولم تصبح تلك البقاع منذ ذلك الوقت مشهداً لأحداث تاريخية عظيمة . وليس حقاً خالصاً ما يقال أن اضمحلال المدينة إنما يرجع الى سوء الحكم التركي ، ذلك لأن مواردها كانت قد استنفدتها حروب القرون الماضية . والعهد التركي جدير بأن يفاخر بما أسداه لتاريخ العمارة في دمشق ، لأن عدداً من أبدع آثار المدينة الحديثة يعود تاريخه إليها .

وكان الطراز المصري قد أصبح هو الغالب في عهد المماليك ، ولكن الأثر التركي غدا آنئذ واضحاً ملموساً . وشيد السلطان سليمان الأول عام ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م) تكية أمام أبواب المدينة الغربية مكان القصر الأبلق القديم وبأنقاضه ؛ وقد بنى هذا البناء الجميل في موضعه البديع على نهر بردى على الطراز التركي (انظر المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ص ٢٥٣ وما بعدها Manuel de l'Art Musulman Saladin : جـ ١ ، ص ٧٤) وحسبنا أن نذكر هنا مسجدين من أشهر مساجد دمشق أنشأهما الباشوات الأتراك : وكلاهما على طريق الميدان ، وأولهما الدرويشية وقد بدأ بناءه درويش باشا عام ٩٧٩ هـ الموافق ١٥٧١ م (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ٢٦٠) والثاني السنانية ، وله شهرة فائقة للقاشاني الذي فيه ، وقد شيده سنان باشا عام ٩٩٤ هـ (١٥٨٥ م) في موضع مسجد البصل القديم (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢)

ويذهب فون كريمر (Topographie: von Kremer جـ ١ ، ص ٤٨) الى أنه أجمل مباني دمشق بعد المسجد الأموي . والواقع أن العمارة في دمشق لم تتوقف قط وإن كانت المصادر التي بأيدينا عن تاريخها في القرون الأخيرة جد قليلة . وقد اقترنت نهضة الشرق بظهور محمد علي . وكانت مدينة دمشق من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٠ في قبضة المصريين ، وقد شمر إبراهيم باشا عن ساعد الجد وأخذ يعيد الأمن والنظام الى الربوع الخربة . وبدأت التجارة والصناعة في الازدهار ، وشيدت المباني للأغراض الإدارية ، والعسكرية بنوع خاص . ومما يؤسف له أن بنايات قديمة مقدسة هدمت تحقيقاً لهذا الغرض في كثير من الأحيان . وهكذا حولت التنكزية الى مدرسة حربية وأصبح مسجد يلبغا مخبزاً للكعك . وشيدت سراي الحربية على أنقاض دار العدل التي شيدها نور الدين . وأدت العداوة بين الدروز والموارنة في لبنان التي أخذ أمرها يستفحل إبان الحروب المصرية التركية أيام بشير الشهابي الى مذبحة هائلة أصابت المسيحيين في دمشق عام ١٨٦٠ ؛ وفي أثنائها وضع عبد القادر (انظر هذه المادة) ، وكان قد نفى من الجزائر ، معظم النصارى في كنفه . ويستطيع المرء أن يذكر في الأعوام الأخيرة العهد القصير الذي حكم فيه المصلح مدحت باشا عام ١٨٧٨ م ، فقد تحسن التعليم ، ولو أن بعض مناهجه قد عاد الى الانهيار سريعاً ، ومن إصلاحاته الباقية استبداله الشوارع بأزقة السوق القديمة الضيقة : وقد تأثر تقدم المدينة في العهد القريب بشبوب الحرائق العظيمة كما حدث مراراً يخطئها الحصر في القرون السابقة . وفي عام ١٨٩٣ م احترق الجامع الأموي حتى جدرانه ، وأتت النيران في أبريل عام ١٩١٢ على أجزاء كبيرة من الأسواق الجديدة .

وتأثرت التجارة المارة بدمشق تأثراً بالغاً بحفر قناة السويس . وقد وصلت السكك الحديدية المدينة من سنة ١٨٩٤ بحوران المنتجة للقمح ، كما وصلتها ببيروت من عام ١٨٩٥ ، وبحيفا من عام ١٩٠٥ ، فعوضها ذلك بعض التعويض عما خسرته ، في حين لم يؤثر خط الحجاز الرئيسي على ما يظهر أي أثر كبير في رقيها الاقتصادي ، وسيقضي الاستمرار في مد الخطوط الحديدية في الشام بمرور الزمن قضاء مبرماً على حركة القوافل . وليس من شك في أن الأراضي المرتفعة المتاخمة

للساحل ستصيب تقدماً كبيراً قد يحقق للمدينة رخاء دائماً إن لم يعد سيادتها السابقة . وقد بلغ مجموع تجارة دمشق وفقاً لتقارير القنصليات الإنكليزية عام ١٩٠٩ ، وعام ١٩١٠ كم قيمته حوالي مليون جنيه إنكليزي للصادرات والواردات .

ودمشق قصبة ولاية من ولايات سورية تضم أربعة سناجق : دمشق وحماة وحوران والكرك ، وهي مقر وال وقيادة أركان حرب ، وقد قدر بدكر Baedeker عدد سكانها سنة ١٩١٣ بثلاثمائة ألف نسمة [١] (ولا يدخل في ذلك عدد رجال الحامية ويتراوح عددهم بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ جندي) ولعل هذا التقدير مبالغ فيه .

للساحل ستصيب تقدماً كبيراً قد يحقق لمدينة رخاء دائماً إن لم يعد سيادتها السابقة . وقد بلغ مجموع تجارة دمشق وفقاً لتقارير القنصليات الإنكليزية عام ١٩٠٩ ، وعام ١٩١٠ كت قيمته حوالي مليون جنيه إنكليزي للصادرات والواردات .

صورة المدينة الحديثة

ولم تتغير الخطة الأساسية لسيرة المدينة تغيراً ملحوظاً ، كما أشرنا من قبل ، في أي مظهر من مظاهرها الجوهرية على الرغم من كثرة ما تداول على المدينة من حرائق وحروب منذ العهد الأموي ، ومن ثم فإن الإلمام بخطة المدينة الحديثة يتبع استعراض تاريخها . وقد يرجع السبب في أن الجزء الشرقي من المدينة لم يتعد في الواقع حدود أسوارها الى قيام الأحياء النصرانية واليهودية فيه ، ولكننا إذا عكسنا الآية كان ذلك أقرب الى الاحتمال ، فإن هذه الأحياء قامت في موضعها ذاك ، لأن المسلمين الحاكمين آثروا الأحياء القريبة من المدينة لأنها كانت مشرفة على الطرق المؤدية الى البقاع السورية الأخصب من غيرها ، وسرعان ما تجاوزت المدينة حدودها القديمة . وكنا نقرأ منذ عهد جد متقدم عن ربض العُقَيْبة ناحية الشمال الغربي من دمشق . وقد أنشأ أيام نور الدين ، عندما أشرق عهد جديد من عهود الازدهار على المدينة ، أرباض جديدة أمام باب الحبانية ، وأخذت هذه الأرباض

تمتد غرباً نحو الميدان الأخضر (كوك ميدان) وميدان الحصى (وهو يشير الى ربض الميدان الجديد) ناحية الجنوب الغربي (وهذا الميدان هو نفس ضاحية الميدان الحديثة) وغدت حدود المدينة الغربية القديمة شيئاً فشيئاً المركز العسكري والإداري ، في حين ظل نشاط الأهلين التجاري يتركز كما كانت الحال قبل ذلك حول الجامع الأموي، وأخذ هذا التطور يسير حثيثاً وإن يكن في بطء منذ عهد نور الدين الى أيامنا هذه .
وينتهي الطريق التجاري الأكبر ، وهو الطريق الذي يسمى بالمستقيم ، الممتد من الشرق الى الغرب شرقي المدينة ، عند الباب الشرقي القديم ؛ ويمتد سور المدينة من هذه البقعة ، ولا يزال محتفظاً بشكله ، بمحاذاة ضريح الشيخ أرسلان (انظر المجلة الأسيوية السلسلة التاسعة جـ ٤ ص ٤٠٤) شمالاً حتى يبلغ نهر بردى عند باب توما ، ثم يتبع الفرع الجنوبي من فرعي النهر اللذين يضمان في هذا الموضع جزيرة من الجزائر حتى يبلغ باب السلام (السلامة) وقد قام بين هذين البابين الأخيرين في يوم من الأيام كما يقول ابن شاكر (انظر المجلة الأسيوية ؛ السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ص ٣٧٣ وما بعدها) باب هو الجينيق الذي نسب الى حي معروف بالاسم نفسه ، وهذا الاسم يدفع المرء دفعاً الى تذكر الاسم الشعري القديم لدمشق وهو جلّق . ولا زلنا نستطيع أن نقص أثر سورين آخرين ، وإن كانت المباني قد غطتهما في كثير من المواضع ، يتجهان من باب السلام ناحية الغرب ، ويسير بينهما طريق «بين السورين» الى «باب الفراديس» ولهذا الباب ، كما يقول بورتر (Porter جـ ١ ، ص ٥٣) باب آخر أبعد منه الى الداخل ، و «باب العمارة» في الخارج غرب بردى . وقد أخذ هذا الباب اسمه من ربض العمارة الذي يبدأ من باب السلام ، ويتسع تدريجاً بانضمام أحياء كانت في الأصل قائمة بنفسها مثل العُقَيْبة غير بعيد من مقبرة الدحداح (المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٧ ، ص ٤٥١) والبحصة وغيرهما . وتخرج منه الآن طريق عامة تتجه شمالاً بغرب الى الصالحية (انظر المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٤ ، ص ٤٧٣ وما بعدها) التي قامت عند سفح جبل قاسيون قبل ٦٠٠ عام هـ (١٢٠٠ م) ولا شك في أن سور المدينة كان متصلاً بالقلعة في مكان ما من هذا الموضع . وقد تعود التغيرات المتعددة التي يشهد على إحداها تشييد نور الدين لباب الفرج (في موضع باب العمارة القديم ، انظر المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة

جـ ٧ ، ص ٧٣٤) الى الرغبة في حماية الأحياء التي كانت تنمو على ا لأيام وتتصل بالمدينة . ولكن المدينة كانت تتسع باستمرار فتجاوز الحدود المضروبة حولها ؛ ولم يوفق «بورتر» ولا «فون كريمر» في تحديد مجرى الأسوار القديمة في هذا الجزء من المدينة تحديداً دقيقاً . وقد ألحق «باب الحديد» بالقلعة أثناء التغيرات التي أحدثها «العادل» فيها ، على حين نقل الاسم القديم الى الباب الذي كان معروفاً في الماضي «بباب النصر» والذي كان قائماً أبعد من ذلك بقليل صوب الجنوب ، ولا يزال هذا الباب باقياً الى اليوم ، ثم يأخذ السور في السير بقرب الجانب الشرقي لطريق الميدان وبمحاذاته حتى يبلغ باب الجابية الذي يطابق الآن الطرف الغربي للطريق الكبير الذي يساير طول المدينة .

ويستمر السور من غير شك مسافة لا بأس بها في الاتجاه نفسه ، وإن كان قد اختفى كل أثر له هنا ، ويتبع سوق السنانية حتى ينعطف شرقاً عند الباب الصغير . ويمتد في الوقت الحالي ربض الميدان بمساجده الكثيرة الجميلة ميلا أو ميلين ناحية الجنوب في هذا الجانب حتى يبلغ بوابة اللّه ، وهي مبدأ طريق الحجيج ، غير بعيد من مسجد القدم ، وهو المسجد الذي تحاول الروايات أن تجعل ضريح موسى قائماً فيه ، كما أنها تشير إلى آثار أقدامه هناك (انظر ابن جبير ، طبعة دي غوى ، ص ٢٨١ وما بعدها ؛ ابن بطوطة ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ وما بعدها) ، وقد قيل من بعد إن هذه آثار أقدام محمد (انظر فون كريمر Topographie: Von Kremer Zeitschr. des Deutechen Palastina. Vereins ، جـ ٢ ، ص ٢٢ جـ ٧ ، ص ٢٨٤) . وليس من المحقق تماماً فيما يظهر ، وإن رجح ذلك من ياقوت (ج ٢ ، ص ٢٣٦) أن الباب الصغير القديم هو نفس باب الشاغور الحديث ، وفيه بابان يقدمان دليلاً آخر على أنه كان ثمة في الماضي حلقة مزدوجة من الأسوار . وقد بطل الآن إطلاق اسم الباب الصغير على هذا الباب ، إلا أن هذا الاسم لا يزال يطلق على أشهر مقبرة في دمشق ، وهي مقبرة الباب الصغير حيث دفن جماعة من الصحابة ومن زوجات النبي وابنته فاطمة . وقد عفّى الزمان على كل أثر لقبر معاوية الذي كان يقوم في هذا الموضع في وقت من الأوقات . ويقوم بالقرب من جامع الجراح القبر المنسوب إلى يزيد بن معاوية ، وهذا القبر محل لعنة الناس واستنكارهم ، ولعل بعضهم قد

التبس عليه الأمر فذهب إلى أنه قبر أبي عبيدة (Topographie: von Kremer ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ، انظر ، Zeitschr der Deutsch. Morgenl. Ges جـ ١٥ ، ص ، ٣٦) . ولا يزال السور من هذا الموضع إلى باب كيسان المغلق الآن ـ حيث تعين الأسطورة مشهد حوادث سفر أعمال الرسل (الإصحاح التاسع آية ٢٥) ثم من باب كيسان إلى الباب الشرقي ـ باقيا في حالة لا بأس بها هو وأبراحه الكثيرة ، ولكنه أصبح خطاً واحداً من خطوط الدفاع ، ولو أنه كان فيما يبدو مزدوجاً في هذا الموضع (انظر Voyage de Levant Suite du: Thévenot ، باريس ١٦٧٣ ، ص ٢٥ وما بعدها) . ويقوم في البساتين جنوبي المدينة القبر المنسوب الى بلال بن رباح (انظر هذه المادة) وقبر نصراني للقديس جورج يجله المسلمون أيضاً .

وقد سبق أن ذكرنا أجل آثار العمارة في دمشق ، ونكتفي هنا بأن نسوق بعض الملاحظات العامة عن قلب المدينة . ففي دمشق كما في سائر المدن الشرقية ، الأزقة الخاصة بأحيائها السكنية الهادئة بحوائطها المرتفعة الكئيبة التي تضم في كثير من الأحيان قصوراً ، وهي تقابل مقابلة عجيبة طرق الأسواق الدائبة الحركة الجياشة بألوان الحياة بخاناتها الضخمة ومكاتب التجار الشرقيين ومستودعات بضائعهم . ولهذه المدينة مزية واحدة على سواها ألا وهي مواردها التي لا تنفد من الماء يمدها به نهر بردى . فلا عجب إذن أن يكون لحمامات دمشق صيت بعيد ، وهي مزينة في كثير من الأحيان بالقاشاني البديع . وقد أعطانا فنزشتاين Wetzstein صورة بهيجة للمناظر البديعة في أسواق المدينة حوالي منتصف القرن الماضي (Morgenl. Gesl Zeitschr der Deutsch. ، جـ ١١ ، ص ٤٧٥ ـ ٥٢٥) وإذا كانت المدينة قد فقدت بعض صبغتها الشرقية الخالصة فإنها ظلت على كل حال أنقى وأخلص من حواضر الشرق العظيمة الأخرى التي خضعت أكثر من دمشق لتأثير العالمية الأوربية . وأخذت صناعات دمشق القديمة العريقة تضمحل اضمحلالاً كبيراً على الأيام ، ذلك أن صناعة الأسلحة التي يمكن تتبعها الى أيام دقلديانوس قد انقرضت منذ أخذ تيمور صناعها . والحق أن أنوال الحرير (انظر الإدريسي ، كتابه المذكور) التي كان لها شهرة عالمية في يوم من الأيام لم تختف بعد ، لكنها فقدت ما كان لها من شأن . أما في الوقت الحاضر فإن السلع المصنوعة (وبخاصة القطنية منها) لها الصدارة بين صادرات دمشق ونحن نجد من ناحية أخرى أن كثيرين من أصحاب

الحرف لا يزالون يمدون الأهلين بمصنوعاتهم الجيدة المتقنة . ولصناعة الجلود بنوع خاص شهرة ذائعة . ولا يزال الصاغة يصنعون مصنوعات مخرمة بديعة ، في حين تجد مصنوعات الخشب والمعدن (النحاس الأحمر والأصفر) المتقنة إقبالاً في أسواق البلاد الأجنبية . والمدينة وإن خسرت خسارة لا تعوض ما كان لها من شأن في يوم من الأيام باعتبارها حاضرة دولة عظيمة ومركزاً للتجارة العالمية ، فإنها تعيش على ماضيها المجيد وحده ، ومع ذلك فإنه يصح لنا أن نؤ يد ما ذهب إليه فون أوبنهيم M. von Oppenheim من «أن عهداً جديداً من الازدهار أخذ يشرق عليها إشراقاً»

المصادر :

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة د غوي ، ص ١٢٠ - ١٣٠ (٢) المكتبة الجغرافية العربية ، طبعة دي غوي ، جـ ١ ، ص ٥٩ - ٦١ ؛ جـ ٢ ، ص ١١٤ - ١١٦ ؛ جـ ٣ ، ص ١٥٦ - ١٦٠ ؛ جـ ٥ ، ص ١٠٤ وما بعدها ؛ جـ ٧ ، ص ٣٢٥ وما بعدها (٣) الإدريسي : Vereins Zeitschr. d. Deutch. pal. ، جـ ٨ ، ص ١٢ وما بعدها ؛ ١٣٠ وما بعدها (٤) ابن جبير : طبعة دي غوي ، ص ٢٦٠ - ٢٩٨ (٥) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ - ٥٩٨ (٨) ابن بطوطة : طبعة(Defrémery et Sanguinetti) جـ ١ ، ص ١٨٧ - ٢٥٤ (٧) حاجي خليفة : جهاننما طبعة الآستانة سنة ١١٤٥ هـ ، ص ٥٧١ وما بعدها (٨) Palestine under the Moslems: G. Le Strange ، ص ٢٢٤ - ٢٧٣ ، (٩) Description de Damas: H. Sauvaire في المجلة الأسيوية ، السلسلة التاسعة ، جـ ٣ - ٧ وثمة مصادر أخرى خطية كثيرة ، قد عرضت لدمشق بخاصة ، نذكر منها على سبيل التخصيص (١٠) ابن عساكر ، ولم يطبع للأسف الشديد الى الآن . بل إن المصادر الموجودة لما تستغل بطريقة منظمة ، والحق أن خطة مدينة دمشق الحديثة لم تدرس بعد دراسة دقيقة . وسيمدنا طبع النقوش الخاصة بدمشق التي أعلن Van Berchem أنه سيقوم بنشرها بأسس جديدة للبحث (١١) A. V. Kremer Topographie von Damascus: ، جـ ١ ، جـ ٢ : d. Wissench. wein Denkschr. der phil— hist. Cl. der k.

Akad. ، جـ ٥ ، ٦ ، عام ١٨٥٤ ، وهو كتاب قديم به أخطاء في كثير من المواضع وإن كنا لا نستطيع أن نستغني عنه (١٢) السلوك طبعة Quatremére ، جـ ٢ ، القسم الأول ، ص ٢٦٢ - ٢٨٨ (١٣) A. von Kremer Mittelsyrien: und Damaskus ، فينا عام ١٨٥٣ .

أما فيما يتصل بفتح العرب مدينة دمشق فانظر (١٤) Conquete de la Syrie Mémerie Sur la: de Goeje ، ص ٨٢ - ١١٣ (١٥) Annali dell' Islam: Caetani ، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ - ٤٢٢ . وقد درس الرحالة القدامى (١٦) Erdkunde: Ritter ، جـ ١٧ ، ص ١٣٣٢ - ١٤٢٨ . وانظر أيضاً بصفة خاصة (١٧) Five Years in Damascus: j. L. Porter جـ ١ ، ص ٢٤ - ١٤٨ (١٨) Reisen im Orient: H. Peterman جـ ١ ، ص ٤٤ - ١٨٤ (٢٠) La syrie: Lortet d'aujourd'huit ص ٥٦٧ وما بعدها (٢١) Zum Pers. Golf Vom Mittelmeer: M. von Oppenheim ، جـ ١ ، ص ٤٩ - ٧٧ (٢٢) Palestine and Syria: Baedeker عام ١٩١٢ ، ص ٢٩٨ - ٣٢٢ . [1]

يونس [هارتمان R. Hartmann]



(١) دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية طبع ونشر بيروت

دمشق
في الموسوعة العربية (١)

دمشق عاصمة سوريا على ضفاف بردى على بعد ٥٧ ميلاً جنوب شرقي بيروت . مركز منطقة زراعية هامة . فيها ، الى جانب المصانع العصرية ، صناعات وطنية يدوية كالخشب المحفور والمصدف والأواني النحاسية والسيوف كما اشتهرت بالمآكل والحلويات الشرقية اللذيذة. تقوم المنطقة الصناعية في قرية القابون المجاورة . وتحيط بدمشق الغوطة التي تعد من أجمل مناظر الدنيا . فيها الجامع الأموي والجامعة السورية (١٩٢٣). مدينة أراميا أخربها الأشوريون ٧٣٢ ق . سقطت بيد أحد قواد الاسكندر ٣٣٣ ق . آلت بعد ذلك الى الرومان فالبيزنطيين . فتحها العرب ٦٣٥ واتخذها الأمويون عاصمة للخلافة . احتلها المغول وأخربوها ثم احتلها الأتراك وكانت في آخر عهدهم عاصمة ولاية تشمل حمص وحماةوالأردن . دخلها الملك فيصل ١٩١٨ معلناً استقلال سوريا . احتلها الفرنسيون بعد معركة ميسلون . أصبحت عاصمة الجمهورية السورية . السكان (٥٤) ٤٠٠ ألف .



(١) الموسوعة العربية الصادرة عن دار الريحاني في بيروت ص ٣٢٦

دمشق في الموسوعة العربية الميسرة (١)

دمشق : اسمها بالمصري القديم : «دمسكو» ، مدينة (سكانها ٤٠٨٧٧٤ نسمة) . عاصمة جمهورية سورية ، وتقع بجنوبها على نهر بردى . لا يعرف على التحقيق تاريخ إنشائها . استولى عليها الأشوريون والفرس ، وغزاها الاسكندر الأكبر (٣٣٢ ق . م) ، وضمتها مملكة السلوقيين ، وكانت عاصمة لديميتريوس ٣ ، وأنطيوخوس ١٢ ، حيث عرفت باسم ديمترياس . ضمها بومبي الى الامبراطورية الرومانية ٦٤ ق . م ، وصارت من أهم مجوعة مدن ديكابوليس . استولى عليها العرب بقيادة أبي عبيدة بعد معركة اليرموك ٦٣٥ ، وصارت من أهم المدن الإسلامية إبان الحكم الأموي (٦٦١ - ٧٥٠) . من أهم آثارها المسجد الأموي الكبير ، الذي كان كنيسة شيدها الامبراطور تيودسيوس الأول ج . ٣٧٥ . اشتهرت بصناعة المعادن المكفتة في العصور الوسطى . أسقطها هولاكو المغولي ١٢٦٠ ، وحاصرها تيمورلنك ونهبها جنوده ١٤٠٠ خضعت للحكم العثماني (١٥١٦ - ١٩١٨) . احتلها الانكليز ١٩١٨ ، ثم خضعت للانتداب الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤١) . صارت عاصمة الجمهورية السورية منذ ١٩٤٣ . بها قبور : معاوية بن أبي سفيان ، وصلاح الدين ، ونور الدين محمود بن زنكي ، والظاهر بيبرس ، ومحي الدين بن عربي ، وعدد من العلماء والسلاطين .

دمشق ، جامعة : أنشئت ١٩٢٣ باسم الجامعة السورية ، مؤلفة من مدرسة الحقوق التي أسست ١٩١٣ في بيروت ، ونقلت ١٩١٤ الى دمشق ، ثم من معهد الطب الذي تأسس ١٩٠٣ في دمشق ، ونقل في أثناء الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) الى

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف أشرف غربال طبعة القاهرة ص ٨٠٢

بيروت ، وافتتح من جديد في دمشق ١٩١٩ . ظلت الجامعة مقتصرة على كليتي الطب والحقوق حتى عهد الاستقلال ، فأنشئت ١٩٤٦ كليتا الآداب والعلوم ، والمعهد العالي للمعلمين في دمشق ، وكلية الهندسة في حلب ، ثم أسست كلية الشريعة ١٩٥٤ ، ومعهد التجارة ١٩٥٦ . وبعد الوحدة مع مصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، أطلق على الجامعة اسم جامعة دمشق ، وهي تتكون الآن من كليات : الآداب ، والحقوق ، والتجارة ، والعلوم ، والطب ، وطب الأسنان ، والتربية ، والشريعة .



عن المعلمة الإسلامية [1]

أكبر مدن الشام تقع في طول ١٨,٣٦ عن غرينتش وفي ٢١,٣٣ عرض شمال ، على علو ٦٩١ متر -

وقد أدى مصب غوطة دمشق المنقطعة النظير الى أن تكون هذه المدينة الواقعة في طريق يمتد من الشمال الى الجنوب وتخترق قلب الشام نصفه - أن تتحكم بكل الحركة التجارية القادمة من شمالي الشام والعراق وبلاد العربية وبلاد بابل الى سواحل البحر المتوسط ومصر ، supplantant هكذا الأماكن الواقعة الى أبعد من ذلك شمالاً وجنوباً مع محل تقاطع الطرق الحقيقية .

وبفضل موقعها فقد لعبت دمشق في أبعد العهود قدماً دور مركز حضاري من الطراز الأول واسمها Kn — في قائمة طوطوزيس ودمشقي في الكتابات الآشورية ومثل ذلك في العبرانية والسريانية هو سابق للعهود السامية ويذكر العهد القديم اسمها في حديث ابراهيم (التكوين ١٤ و ١٥) ، وقد نمت هذه الذكرى مع الصفات ، حتى كان المسلمين يحترمون مسجد ابراهيم في برزة شمالي دمشق كأنه مكان ولادة ابراهيم .

---

(١) هذه مجمل أوراق تركها المرحوم أحمد وصفي زكريا عن دمشق وجدت بين أوراقه رحمه الله وقد كانت أوراقه مبعثرة بذلت جهداً كبيراً ليصبح بالامكان تشكيل موضوع موحد منها.

ومنذ القرن العاشر ق.م يحدثنا العهد القديم والكتابات الآشورية عن دولة آرامية في دمشق قضى عليها الآشوريون سنة ٧٣٢ ، ونحيل قرائنا الراغبين باستكمال أحداث دمشق في هذه الأدلة الى ما كتبه (بانزيخر) في—Real Lmeyelapadie .

أما الذي يهمنا أكثر فأحداثها في عهد العرب فهي سقطت في سنة ٨٥ ق . م في يد النبطيين للمرة الأولى ، في عهد ملكهم الحارث الثالث (عميل اليونان Thefheileue) ثم سقطت مرة ثانية في يدهم لحساب روميةمن سنة ٣٧ ـ ٥٤ ميلادية في عهد الحارث الرابع Phlopatore ، ولعل انفتاح طرف هذه المدينة لتأثير البادية جعل الرومان يعرضون عن جعلها عاصمة ولاية . وفي آخر عهد Empire كانت تتبع ولاية (فينيقية اللبنانية) التي كانت عاصمتها الأساسية حمص .

في الحق أن دمشق التي جعلت يوماً يونانياً للغاية لم تخضع بتاتاً ومباشرة الى النواب (phylargnes) العرب الذين كانوا سائدين في الأصقاع المجاورة لها ، حتى ولا للغسانيين الذين كانوا يحكمون براريها المحيطة بها . إلا أن علاقة البدو بأسواقها كانت متصلة دائماً ونشيطة . فالبدو كانوا يعرفونها جيداً ويعدونها abrégé عظمة الدنيا ويلقون عليها نظرات الإعجاب والطمع بكنوزها وحدائق غوطتها الغناء ، ولذلك لا بدع أن يقوم العرب ـ بعد إسلامهم ـ ويطبقون عليها نصوص القرآن passages واسم ارم ذات العماد ، بل وضعوا على لسان النبي قسماً عظيماً من الأحاديث sentanes التي تمجد دمشق وتعلي ذكرها .

لم تخلف الآثار القديمة معلومات كافية عن دمشق ، إنما يمكن القول أن شكلها ومخططها كانا كما وجده العرب إبان الفتح . وهي وإن كانت قد تضررت كثيراً من الفتح الفارسي لكن المعالم لم تتغير كثيراً ، حتى أنه منذ الفتح الإسلامي لم تتغير أسوارها ولا تخطيط شوارعها . وهذا الاستقرار الغريب يعود الى أن وضع دمشق الجغرافي الواقعة في منتصف طريق الشام الشمالي الجنوبي يجعل هذا الطريق يقطع بردى داخل المدينة .

ودمشق من أفقر بلاد الشام بقلة أمطارها (معدله ٢٥٠ ـ ٣٠٠) ميليمتر) ، ذلك لأن الجبال المحدقة لها تجذب الغيوم التي تسير نحوها فتتكاثف على تلك الجبال وتهطل قبل أن تصل الى دمشق . ومن ثم كانت الحبوب والأشجار حتى كروم العنب التي تزرع هزيلاً في غيرها لا بد أن تسقى فيها . والحرارة العظمى في الصيف قد تتجاوز ٣٥ درجة في الظل والحرارة الصغرى في الشتاء قد تهبط الى ٤ ـ ٥ تحت الصفر ، ومن هنا كان لشتائها بعض القسوة وكذا لصيفها ، لولا أن جفاف هوائها في النهار وطراوته وانعاشه في الليل يخففان من وطأة الصيف .

وقد شيدت مدينة دمشق القديمة في امتداد نهر بردى ، وفي طول يقدر بكيلو مترين من الشرق الى الغرب . ويحيط بهذه المدينة القديمة سور محصن ذو أحجار ضخمة قد خرب الآن معظمه على ما سوف يذكر ، شكله قريب من المستطيل . وفي داخل هذا السور أحياء وأزقة وأسواق قديمة مضطربة الاستقامة . مختلفة العرض والضيق ، لا يتجاوز عرضها المترين أو الثلاثة ، وأكثر الأسواق مغطى بسقوف من دفوف الخشب أو ألواح التوتياء وحولها حوانيت صغيرة مختلفة الأشكال والأبعاد ، أما بيوت السكنى فمكتظة اكتظاظاً عجيباً مزهقاً لا فسحة بين البيت والآخر حتى كأن المدينة بناء واحد . واكتظاظ هذه البيوت حرمها من كل منظر خارجي كما أن اكتظاظ الأسواق والأزقة والبيوت حرمها من الهواء النقي والنور الكافي والشمس النافعة . ذلك بحكم ارتفاع الجدران والسطوح وتغطية الأسواق بالسقوف والدفوف . لولا شارعي مدحت باشا وسوق الحميدية اللذين فتحا الأول في أواخر القرن الهجري الماضي والثاني في أول القرن الحالي لكانت دمشق القديمة على ما هي عليه من الطول والعرض ووفرة السكان تشبه قرية كبيرة . فقد كانت الدور القديمة الى مضي ربع قرن تبنى بالخشب واللبن والطين على غير هندسة ولذوق النظام وبدون مراعاة حالة الأزقة والطرق ، والشاطر البارع من كان يتجاوز على الطريق بذراع أو ذراعين أو يركب فوق الطريق بعضد أو قبو أو شرفة أو أي بروز كان ، فما كانت البلديات تردع ولا كان الأهلون يلحظون معيبة هذا العمل الفردي الشائن . وبيوت الطبقة الفقيرة العاملة الكادحة وهي السواد الأعظم في المدينة . داخلها ضيق رطب معتم كخارجها يعجب الناظر إليها يسكنها أهلها وكيف تدوم

لهم صحة ما زالوا محرومين من الشمس في بيوتهم وأزقتهم وحوانيتهم وكيفما ساروا واتجهوا . أما بيوت الطبقة الغنية الميسورة فقد كانت رغم هذا الاكتظاظ كبيرة فوراء صحن فسيح مربع الشكل مبلط ، تنفذ الشمس إليه في كل الفصول وتنتشر ، في منتصفه بركة يأتي إليها الماء ضمن قساطل فخار محكمة من مقاسم أنهار دمشق كل على حسبه . وفي صدر الصحن ايوان عالي السقف متجه الى الشمال ، على كل من جانبيه غرفة ، وبقية الغرف تقابل بعضها بعضاً ، ويحيط بالصحن غرف وقاعات صيفية جميلة التلوين والزخرفة ، حسنة التفريش والتأثيث . وفوق هذه الطبقة الصيفية السفلى طبقة عليا،فيها ذات نوافذ كثيرة نحو صحن الدار يسمونها (فرنكات) تتخذ للمبيت والإقامة في فصل الشتاء . ويكون في القاعات والغرف السفلية برك ماء صغيرة (فساقي) لأجل التبرد أيام حر الصيف : وتكون هذه القاعات مزينة بأنواع الزخارف والنقوش ومدهونة بأجمل الأدهان . وفي صحن الدار وحول البرك أشجار والنارنج والليمون والكباد والفراسكين والشمشير وأحواض أو أصص الأزهار والرياحين بحيث أن هذه الدور كانت صحية مستوفية شروط الرفه في برد الشتاء وحر الصيف لا سيا للحريم الذين قلما يتاح لهم التجوال في الخارج .

وسبب هذا الاكتظاظ والتراكم في الأزقة والمساكن هو أنها بنيت في القرون الأخيرة ، وفي عهود كان الأمن والاطمئنان فيهما غير كافيين . وجاء على هذه المدينة التاريخية أدوار عديدة من الفوضى ضاعت فيها الهندسة وملاحظة الاستقامة وضاع الذوق واحترام حق الغير ومراعاة الصالح العام فصار الناس يبنون مساكنهم حيث شاؤ وا على أي طراز أحبوا لا بلدية تردع ولا حكومة تمنع . فصاروا يلصقون البيوت بعضها الى بعض ويضيقون الطرق والأزقة ويجعلوها دروباً ودخلات (جمع دخلة) غير نافذة وحصروها في مدخل واحد له باب ضخم في النهار ويغلق في اليل فلا يظهرون من المنزل الى جهة الزقاق إلا مؤخرته الخالية من النوافذ ، فلا يمكن أن يكشف ما بداخله .

ويكون بناء المنازل في دمشق باستخدام المواد الأولية الموجودة في الطبيعة ويبدأ بناء البيت الدمشقي .

بحجارة بسيطة من وجه الأرض الى ما فوقه بثلث أو أربع أذرع وما فوق ذلك من لبن او لبن وخشب وكلها مازورة بطين احمر او شيد ولا منظر لها من خارج . واما من داخل فهي دور فسيحة مزخرفة بأنواع الزخارف والنقوش ، وفي صحنها برك محفوفة بالليمون وغيره من الأشجار مع كثير من النباتات العطرية ذوات الأزهار الجميلة والروائح الذكية ـ ولنساء دمشق غرام زائد بالأزهار فيحرص عليها الحرص الشديد ولا تدخل داراً من دور دمشق الا تجد في حجرها فرشاً جميلا قيمته بحسب اقتدار صاحبة . وهو معمول بحسب الطراز الشرقي اي من مقاعد ومسانـد وسجادات وبسط وما أشبه ، على أنه في السنين الأخيرة فرش بعض الأغنياء بيوتهم بالأثاث الغربي ولكنهم ابقوا في البيت حجرة فرشها شرقي ، وفي بعض الدور قاعات رفيعة مدهونة بأجمل الأدهان في وسطها برك يجري اليها الماء باتصال .
أما طراز ترتيب الدور داخلاً في هذه الأيام فهو غالبا ايوان وعلى كل من جانبيه حجرة ، وبقية الحجر تقابل بعضها بعضاً وعليها علال لها نوافذ كثيرة يغشاها البلور يسمونها فرنكات (جمع فرنكة) ، وكل دار لا بد لها من صحن وفي بعض الدور أقبية تحت الأرض يضعون بها المؤ ونات ولقد كان عدد دور دمشق بالتقرير الرسمي سنة ١٨٧١ (١٢٨٨) هـ نحو ١٤٦٩٦ داراً لكل الطوائف .

وقال محمد عز الدين عربي كاتبي في رسالته (الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية) : ان البيوت في دمشق وبنائها على اجمل طرز وترتيب ، وهو ان كل بيت لا يخلو من وجود ايوان في قبليه بركة ماء في منتصف دياره يأتي اليها الماء ضمن قصاطل فخار محكمة من مقاسم نهر القنوات وغيره على كل حسبه ويحيط الديار حجر وقاعات يعلوها غرف جميلات ، والقاعات لا بد من وجود برك الماء بها لأجل التبرد ايام حر الصيف ، وما فض عن البرك من الماء يجري ضمن قصاطل ايضاً الى محل قضاء الحاجة داخل هذه الدور فيموت بها حيث يذهب مع قذارتها ضمن قناة مخصوصة داخل الأرض الى السياق المخصص لكل محلة حيث يجتمع بالنهر الكبير المسمى (قليط) فيخرج الى بساتين شرقي ثمن الشاغور والى بساتين ايضاً شرقي ثمن الميدانين فيموت بأراضيها . وأما عرصات البيوت الداخلة جميعها مفروشة بأنواع اشجار الليمون الحامض والحلو والبردقان والكباد والفرسكين والنارنج واليوسف

افندي وبأنواع الأزهار والورد والرياضين البديعة المنظر ، حتى أن أكثر اصحاب البيوت هم بغنى عن التوجه الى المنتزهات سيما اصحاب البيوت الكبار وذوي الاقتدار آ هـ.

دمشق في العهد الأموي

كان الوليد يسهل الطرق ويضع مناور لهداية ابناء السبيل ويحفر الأنهار والترع لري الأرضين وينشىء المستشفيات والمساجد . وسار الأمويون وأتباعهم في أثر الوليد في التغالي بالبناء فعمروا قصوراً كثيرة في داخل دمشق وخارجها وحتى في باديتها ، ففي دمشق أمثال قصر عاتكة (بنت يزيد بن معاوية) وقصر الحجاج (بن عبد الملك بن مروان) وغيرهما ، وفي طريق حوران عند شمعقب قصر أم حكيم بنت يوسف الأموية ، وفي البادية قصر الحير الغربي وقصر سميس وغيرهما من قصور براري شرقي الأردن ، وحفر يزيد بن أبي سفيان نهر يزيد ، وانتشرت في دمشق الصناعات والفنون الجميلة ، وصارت عاصمة دولة اعظم من دولة الرومان تمتد من أواسط فرنسا إلى شمالي الهند ، وعرف أهليها الغنى والسؤدد ، هذه حسنات الأمويين أما مساوئهم فهي قسوتهم على آل البيت وفتكهم الشديد بمناوئيهم في الحجاز والعراق ، واثارتهم العصبيات الجاهلية التي عف الاسلام على اثرها . فقد ذر قرنها في أوائل عهدهم بين اليمانيين والقيسيين وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة ولا سيما في الشام وخراسان والاندلس ، ودامت قروناً عديدة ، وحتى في بلادنا الشامية الى العصر الأخير ، سالت بسببها دماء غزيرة وخربت أقطاراً كثيرة وصارت من اكبر العوامل في ضعف الأمة العربية وزوال مجدها في تلك الأقطار .

العهد العباسي : لما استولى العباسيون على الخلافة فتحوا دمشق وانتقموا من أهلها ومن الأمويين أحياءهم وأمواتهم انتقاماً فظيعاً ودمروا قصورهم ونبشوا قبورهم وفي بلاد الشام كلها طمسوا آثارهم، ولم يشاءوا الاقامة في دمشق بل ظلوا في العراق على مقربة من خراسان منبت دعوتهم ، وجعلوا دمشق قاعدة ولاية فهوى نجمها بانتقال عاصمة الاسلام إلى بغداد وتراجعت عظمتها .

وفي العهد العباسي تولى دمشق بعض عظمائهم كعبد الله بن علي عم السفاح وابراهيم بن المهدي وعبد الله بن ظاهر ، وكان بعض خلفائهم كالمهدي والرشيد والمأمون والمتوكل يختلفون اليها للنزهة والاستجمام أو لقمع الفتن الناشبة ، وكانوا يجهلون قدر دمشق ، قيل أن المأمون بني في غربيها بين داريا ودمشق قصراً لنزوله بقي إلى سنة ٣٣٢ ، وبنى المرصد الذي كان في قمة جبل قاسيون ، وقناة من منين ، وان لم يبق في كل ذلك أثر ولا خبر ، وقيل أن المتوكل عزم على الاقامة بها لو لم يستوبئها ويستثقل ماءها . ولم يخل عهد الخلفاء المذكورين من فتن مشبوبة وظلت نار العصبيات تتأجج بي القيسيين واليمانيين ، اخصها الفتنة التي جرت في عهد هاورن الرشيد في سنة ٨٦١ واستمرت أربع سنوات ، فأقامت الرشيد وأقعدته حتى رمى تلك الفتنة بوزيره جعفر البرمكي . فجاء هذا وأطفأها بعد أن أذيت دمشق منها كثيراً . وانصرف عمال العباسيين لكبح فتنة السفياني وأمثاله من الذين قاموا لارجاع الملك الى الأمويين ، فكان ينال دمشق وغيرها من ذلك الضرر العميم . ولما ضعفت خلافة العباسيين وقلت هيبتهم واستطال قواد الترك عليهم (في القرن الرابع) يخلعون وينصبون ويسجنون ويقتلون منهم من أرادوا ، حينئذ استبد الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب وغيرها وانشأوا دويلات مستقلة لا تعترف للعباسيين إلا بالخطبة ، منهم أحمد بن طولو ن والي مصر الذي غلب على الشام أيضاً ، فتبعت دمشق مصر من ذلك الحين في عهد الطولونيين (٢٦٤ - ٢٩٢) والاخشيديين (٣٢٣ -٣٥٧) والفاطميين (٣٥٩ - ٤٦٨) . وهم لم يروا بداً من دفع غارات الروم عن بلاد الشام لأن الروم كانوا لا يزالون يأملون العودة اليها فشادوا القلاع في جبال طوروس وفي نواحي الفرات . فبنى العباسيون بازائها في شمالي الشام خطين من المعاقل سميت «العواصم والثغور» .

عهد الفاطميين : جاء هؤ لاء من المغرب الاقصى وفتحوا مصر ودخلوا الشام وحاولوا خلال مئة سنة أن يبسطوا عليها سيادتهم ، فلم يستقر لهم الامر في جهة الشمال ولم يدخل في طاعتهم من سائر الجهات إلا المدن ، وأما في الأرياف فقد عادت القبائل البدوية إلى سالف استقلالها .

وقد قاست دمشق في عهدهم من الخطوب الوانا :

فقد توالت غارات القرامطة وعسف ولاة الفاطميين وخاصة ابن الصمصامة الذي قتل فتيان دمشق ونفى أشرافها إلى مصر وغرم أهلها ونهب نصف مليون دينار من أموالها .

ومن فتن القيسية واليمانية وغيرهم وتعدد الحرائق وزلزال عام ٤٥٥ الذي خرب كثيراً من محاسنها ، وقد احترق الجامع الأموي في سنة ٤٦١ على أثر فتنة بين الجنود المغاربة (جنود الفاطميين الخاصة) والجنود المشارقة (الشاميين) وأعظم الخطوب ما وقع سنة ٤٦٩ فقد انتشر فيها الطاعون الجارف الذي عم آسية وأفريقيا واوروبا فلم يبق من أهل دمشق الا القليل . وكان عهد الفاطميين في الجملة من أشأم العهود وأسوئها على دمشق وبلاد الشام ، فوق ماهم من مساوىء أخلاقية وإدارية أخصها التقاعس عن مدافعة الصليبيين وادعاء بعضهم بالألوهية التي أدت إلى ظهور عدة طوائف منشقة عن الاسلام كانت بلاءً على المسلمين في أكثر العهود .

عهد السلجوقيين . ـ جاء أحد الأمراء السلجوقيين في سنة ٤٦٨ واستخلص دمشق من أيدي الفاطميين بالأمان بعد أن طفح الكيل من عبثهم واستهتارهم ، وخطب للعباسيين ، لكن الفاطميين كان رجاءهم باسترجاع دمشق لم ينقطع ، فحاصروها غير مرة دون جدوى . وما زالوا حتى قيض لها رجل عظيم من المماليك السلجوقيين ورجالاتهم البارزين اسمه الآتابك ظهر الدين طغتكين . ومعنى الأتابك مربى ابن الملك ظل طغتكين متولياً دمشق نحو نصف قرن ، فكان حسن الادارة والسيرة أحيا الزراعة وعمر القرى الخربة ومد البناء في داخل دمشق وخارجها وألف بين امراء المسلمين وجمع كلمتهم على حرب الصليبيين الذين كانوا وصلوا الى بلاد الشام سنة ٤٩٠ واستولوا على انطاكية وكل السواحل والقدس ، فردهم هو عن التوغل في الداخل وأوقفهم في الساحل ، فعد من أبرز امراء المسلمين في ذلك العصر . وقد خلف هذا من أولاده وأحفاده أسرة اختصت بملك دمشق وظلت بعده نحو ٧٥ سنة ، لكن لم تكن كأبيها . فقد استخذى بعض أفرادها إلى الصليبيين وصانعهم ، لأنهم هاجوا في عهدهم دمشق مرتين في سنة ٥٢٤ وفي سنة ٥٤٣ ، دفعوا وطهروا من أمام أسوارها بعد أن كانوا غلبوا على أطرافها فقطعوا أشجار المزة وما اليها وأحرقوا الربوة .

عهد الدولتين النورية والصلاحية . ـ ثم جاء نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي واستخلص دمشق من أيدي آل طغكتين (سنة ٥٤٩) لما رأى ضعفهم عن مدافعة الصليين واجتمع له ملك الشام كله ، ورأت دمشق في عهده وعهد خلفه صلاح الدين الأيوبي سعادةً ما رأتها منذ عهد الأمويين ، وكان نور الدين وهو تركي الأصل ومن حواشي السلجوقيين من أعاظم ملوك المسلمين اقتداراً وعدلاً وورعاً وجهاداً في الصليبيين ، استقر في دمشق وبنى فيها المساجد والمدارس والمستشفيات وأوقف فيها أوقافاً كثيرة وأصلح الطرق ، قال واصفوه (منع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده قضى ليله ونهاره في عدل ينشره وجهاد يجهزه ومظلمة يزيلها واحسان يوليه) .

وقد حصن نور الدين دمشق ووثق سورها ، وأقام (دار العدل) وكان يجلس فيها لفصل الخصومات . وبنى في دمشق الأبنية الجليلة ومنها البيمارستان المعروف باسمه . وبنى قصراً للفقراء في الربوة يصطافون فيه على نحو ما يصطاف فيها الأغنياءفي قصورهم ووقف عليه خراج قرية داريا الكبرى ، وكثرت بعد ذلك المدارس والخوانق والربط عمرها الأمراء والأميرات في أرباب الخير اقتداء بنور الدين ، ووقفوا عليها الأوقاف العظيمة مثل المستشفى القيمري في الصالحية لصاحبه سيف الدين القيمري (٦٥٣) ، توفي نور الدين القيمري في دمشق سنة ٥٦٩ ودفن في تربته داخل المدرسة التي بناها وهي المعروفة الى يومنا هذا في سوق الحرير .

عهد الأيوبيين . ـ كانت دمشق في عهد نور الدين عاصمة بلاد الشام ، والقاعدة الحربية لمدافعة الصليبيين . وقد ظلت محتفظة بهذا الوضع أيضاً في عهد أبنائه وأبناء أخيه العادل ، حكم صلاح الدين مصر والشام والجزيرة واليمن ، وكان من أعظم ملوك الإسلام وأكبر المدافعين عن حوزته ولولاه ولولا نور الدين لانطفأ الإسلام الى مصدره من عهد بعيد . ذكروا عن خلاله العالية ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واهتمامه بأمر الجهاد ودفع الصليبيين وصبره واحتسابه وحسن قيادته للجيوش وحلمه ومحافظته على دواعي الاعتزاز والشهامة والفروسية ما هو العجب العجاب وما يعد من المفاخر على

توالي الأحقاب . وقد أكثر صلاح الدين من إنشاء المدارس والملاجىء وسار أخوه الملك العادل وأولاده وأحفاده على هذا المنوال وزادوها القلاع والحصون الخالدة على الدهر كقلعة دمشق وقلعة بصرى وقلعة صلخد وقلعة النجم على الفرات وغيرها .

ومما يؤسف له أن ابناء صلاح الدين على رغم ما كانوا عليه من العلم والتهذيب لم يلبثوا بعد موت أبيهم في سنة ٥٨٥ أن نشب بينهم الخلاف والنزاع على اقتسام الملك الذي قصر أبوهم في تقسيمه قبل مماته. واستقل كل منهم بطرف من المملكة أو ببلد منها أخذه على سبيل الإقطاع وسمى نفسه ملكاً وتقاتلوا فآذوا بعضهم بعضاً وآذوا البلاد ، على أنهم مشوا على قدم نور الدين وصلاح الدين في مدافعة الصليبيين وتخليص السواحل من أيديهم . ولولا هذا الخلاف لكانت دولتهم من أحسن الدول . وكان عمهم الملك العادل على غرار أخيه في حسن الإدارة والسيرة ، وفي عهده وعهد أبنائه ظل العمران متلاحقاً في دمشق ، فقد بنى العادل قلعة دمشق الحالية ، ووزع بناءها على أمرائه وجعلها اثني عشر برجاً ، ثم جدد فيها ولده الملك المعظم عيسى دوراً أو قصوراً كما أصلح الملك الظاهر بيبرس ما كان أحرقه التتار من رؤوس شراريفها ورؤوس أبراجها . (راجع بحث هذه القلعة في الصحيفة . . .) ونشب في عهد المعظم الخلاف بين أبناء العادل كما نشب بين أبناء صلاح الدين ووقعت مقاتلات ومخاطرات عديدة في دمشق وحمص وحماة وغيرها . وكان الصليبيون في سواحل الشام يغتنمون هذه الغرر ويراوحون المسلمين القتال والحصار . والخوارزمية الأتراك الذين زحفوا من الشرق يعيشون في أرض الشام ويحاصرون دمشق ويحرقون بعض أحيائها وقصورها ومبانيها ويفحشون ويقتلون . .

وما زال الأيوبيون يتعاورون الملك في بلاد الشام ومصر وأوصال مملكتهم تتفسخ بمرور الزمن من توالي الاختلاف بينهم ، وكل منهم يريد أن يستأثر بالأمر دون أخيه أو عمه أو ابن عمه ، وبعضهم يعتصم بالصليبيين لينجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك . . الى أن انتقلت الدولة الى مماليكهم لأن الأيوبيين تشبهوا بالمعتصم العباسي في اصطناعه مماليك الترك الذين سببوا وهن الدولة العباسية .

والذي تولى كبر هذا الأمر من الأيوبيين هو الصالح أيوب فقد أدخل الوهن على الدولة الأيوبية باصطناع المماليك . حتى قضوا عليها بعد أن قتلوا توارذ شاه في سنة ٦٤٨ وكان هذا آخر ملوك بني أيوب .

عهد المماليك : ـ كان أشهر السلاطين المماليك الترك البطل المجاهد بيبرس لبند قداري . فقد بطش بالصليبيين بطشات كبرى ، واستخلص منهم إنطاكية وحصن الأكراد وحصن الشقيف وغيرها . ودفع عادية التتر عن بلاد الشام ما أمكن . وغزا الأرمن في كيليكية لأنهم كانوا عوناً للصليبيين فخرب بلادهم وثأر منهم . توفي في سنة ٦٧٦ وكان ملكاً شجاعاً عاقلاً وصل الى الملك بقتل آخر ملوك بني أيوب وقتل المظفر قطز الذي تقدمه وما زال يتدرج حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوحات الجليلة . .

وكان السلاطين المماليك يقيمون في مصر ويرسلون الى بلاد الشام نواباً يقيمون في دمشق . فصار نوابهم يتعاورونها وبرز من هؤلاء السلاطين المنصور قلاوون وابنه الأول الأشرف خليل ثم ابنه الثاني الناصر محمد وقد دفع هؤلاء الصليبيين عن البلاد بعد أن أبقوا قرابة قرنين ، (٤٩٠ ـ ٦٩٠) يحاربون الشام ومصر ويعيثون فيها فساداً وتخريباً . وما أن تخلصت بلاد الشام من صليبيي الغرب حتى داهمها التتار الذين كان يستفزهم باباوات رومية على الإسلام وعاملوها بما عاملوا به سائر البلاد على ما ركز في غرائزهم من القتل والنهب والتدمير ، ففي سنة ٦٥٨ استولوا على دمشق وعلى سائر الشام الى غزة عقب استيلاء هولاكو سلطانهم على بغداد وقتله المستعصم آخر خلفاء بني العباس سنة ٦٥٦ وخربوا أسوار دمشق وقلعتها كما ضربوا أكثر قلاع الشام . ثم في سنة ٦٩٩ جاء ثانية فكسر جيش المسلمين شمالي حمص وبلغ دمشق واستولى عليها ، لكن القلعة عصيت عليه فحاصرها وأحرق جنده الصالحية والأحياء البرانية كالعقيبة والشاغور وقصر حجاج وحكر السماق ونصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني أمية فأحرقوه فأعيد عمله . قال ابن خلدون (وانتهكوا حرمة المسجد لكل محرم من غير استثناء وهدم ما كان حول القلعة من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة وأهين القضاة والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة وفحش القتل والسبي وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس ثم انجلوا عنها) .

وقد شرعت دمشق من جراء ذلك تنحط وتخرب من عمرانها الذي كان في عهد الدولتين النورية والصلاحية ، على رغم مساعي بعض النواب وأخصهم سيف الدين تنكز . فقد بنى هذا النائب الكبير الجامع المعروف باسمه (٧٤٠) في حكر السماق (شارع النصر في يومنا) وكذلك دار الحديث المعروفة باسمه (٧٣٩) وعمر الجدار القبلي للجامع الأموي وجدد المساجد والمدارس ووسع الطرقات واعتنى بأمرها ووسع سوق السلاح وباب البريد وسوق مسجد الأقصاب وخارج باب الجابية وأصلح قني المدينة ، وعمل مثله سيف الدين يلبغا الناصري أنشأ الجامع المعروف باسمه في سوق الخليل (ساحة المرجة في يومنا) في سنة (٨٤٧) ، ومثله الكافل سيباي أنشأ الجامع المعروف بالسيبائية قرب باب الجابية (٩١٥) وكذلك جامع برسباي ومنجك (٧٧٦) والمدرسة الجقمقية (٧٦١) وغيرها . بنى هؤلاء وغيرهم من أرباب الدولة الجوامع والمدارس والربط والخوانق والمستشفيات والأضرحة مما لا يزال ماثلاً للعيان ، وقد صار جله الآن خراباً أو مغتصباً ، عبث العابثون بأوقافه وسرقوا عينه وقفله .

ودامت دمشق خاضعة لدولة المماليك الترك الى أن سقطت هذه وقامت مكانها دولة المماليك الشركس في مصر والشام التي ظهر منها سلاطين عظام كقايباي وسيباي وبرسباي وغيرهم . وفي عهد أحدهم الناصر فرج كانت نكبة تيمورلنك العظيمة (٨٠٣) ، جاء هذا الفاتح الجبار من الشرق ، فضرب على دمشق غرامة مليون دينار وعرف عظم أهلها وبعد أن جباها أطلق العنان للجيش بالسلب والنهب والقتل والفحش والتعذيب ، ثم وضع الحريق في أرجائها في يوم عاصف فَعَمَّ المدينة وأتى على ما فيها من التحف والآثار ، وفعل ذلك في الجامع الأموي ولم يبق غير جدرانه قامة ، وذهبت المساجد والدور والقياسر والحمامات وأحياء منها.

وبعد أن فعلت جنود تيمورلنك ما لا يحمل ذكره من الفتك والحرق والهتك والتدمير حمل تيمورلنك معه الى سمرقند كل ماهر في صنعة من الصناعات كالنساجين والخياطين والسيافين والنقاشين والزجاجين وغيرهم وأخذ جملة من العلماء والوجهاء فأفقر دمشق من كل وجه . فكانت هذه المصيبة من أعظم المصائب التي دهمتها في كل العصور . لأن ثرواتها قد فقدت بالكلية وعمرانها أضحى خراباً وسكانها لعب

بهم السيف والنار والسبي والتشتيت ، لم يبق منهم إلا من نزح عنها قبل الكارثة ومن سلم قضاء من تلك البلايا والرزايا بعد أن قاسى من العذاب أشده ومن الويل أمرّه .

وفي أوائل سنة ٨٠٤ نزح تيمور عن دمشق ، فأخذت تلك البقايا المشتتة ترجع الى وطنها وتقيم ما تقدر عليه من الأبنية ، وتقاطر الغرباء إليها من كل جانب فعمر بعض خراب دمشق ، على أنها ظلت نحو نصف قرن تترنح من شقائها وفقدان أهلها الأصليين ولاسيما أهل الصناعات منهم الى أن عادت فاستوت على قدمها لأنها كانت في عهد السلاطين الشركس مركز تجارة الشرق والغرب وممر قوافل الحجاج في كل سنة ذهاباً وإياباً ، أضف الى ذلك خصب أرضها وكثرة مائها ، إن لم تنج من الطواعين والمجاعات والفتن والتجاريد التي كانت لا تنقطع ، كما كان بناء المساجد والمدارس والمعاهد الخيرية والأضرحة لا ينقطع . ودام هذا الحال حتى جاء السلطان سليم العثماني في سنة ٩٢٢ وتغلب على السلطان قانصو الغوري الشركسي في معركة مرج دابق ، فخرج الملك من يد السلاطين الشركس بعد أن بقوا ١٣٩ سنة يملكون مصر والشام والحجاز واليمن .

العهد العثماني الأول . ـ استولى العثمانيون على بلاد الشام سنة ٩٢٢ هـ وقسموها الى ثلاث ولايات باشاوات في دمشق وطرابلس وحلب . ولكن هذه البلاد لم تجد السعادة التي كانت تنتظرها فزادت المكوس والضرائب وكثر عيث جيش الدولة من الانكشارية والسباهية ، وتعاقب بتولي الولاة على دمشق ، وكان أكثرهم لا يقيم فيها أكثر من سنة ، مما يكاد يحيط علماً بحالة البلاد حتى يصرف ويستبدل بغيره ، وازداد شقاء البلاد وقتئذ بتطاحن أمراء البلاد وأعيانها وأرباب النفوذ والإقطاعات في مدنها وقراها بعد أن ألقت الدولة حبلهم على غاربهم ، وقل عدد السكان وأصبح كثير من القرى خاوياً ولا سيما بين دمشق وحلب وعدم الأمن في البراري من توالي عيث البدو الذين كانوا يهتبلون غرة هذه الفوضى [1]

وعلى الرغم من ذلك ومن انطفاء انوار اللغة العربية وعلومها ووقوف حركة التأليف والنشر فيها منذ الفتح العثماني فقِد انشأ بعض السلاطين العثمانيين وبعض

ولاتهم مدارس وجوامع وخانات تعد الآن من المباني الأثرية الجميلة منها التكية السليمية والتكية السليمانية وجامع الشيخ محي الدين بن العربي وتكيته التي تطعم الحسا حتى الآن ومن الجوامع المعلق والمرادية والسنانية والدرويشية نسبة لمحمد باشا سنة ١٠٥٨ ولمراد باشا ٩٧٦ وسنان باشا ٩٠ ودرويش باشا ٩٧٩ ، وبنى أسعد باشا (١١٥٦) قصره المعروف في جنوبي الجامع الأموي ، وبنى من الخانات خان أسعد باشا ١١٥٦ وخان سليمان باشا ١١٥٤ وخان الحرير وغيرها .

ولم يجر على يد هؤلاء الولاة اصلاح حقيقي كامل لهذه المدينة وان كان لبعضهم ما يستحق الذكر والحمد . كما قدمنا ـ والغالب أن الوالي منهم ما كان يتوفر في المدة الأخيرةإلا على ابتزاز المال بالطرق المنوعة ليملأ جَيبه ويؤدي ماعليه من المقرر لجماعة العاصمة الذين سعوا لتعيينه ، والعلة الخبيثة فيما بينهم كانت في محاولة الخلف طمس محاسن السلف ـ ان كان لهذا السلف محاسن ـ حتى لايفوز ويكسب الشهرة عليه ولو بمجرد بقاء ذكره أو نسبة العمل إليه .

قال في تاريخ دمشق الفيحاء للقساطلي : انه في كل هذه المدة لم يكن راحة لابناء السبيل في دمشق ، لأن تعديات الجندية كانت كثيرة لعدم خضوعها للنظام ، وانقسمت المدينة الى حزبين انكشاري وقبقولي وكانت العداوة بهما عظيمة حتى انه لم يمض يوم الا وتحدث فيه مشاجرة ، وفي بعض الأحيان كانت تنهب الحوانيت ويجري الدم بين الثائرين وأحياناً كانوا يخربون احياءاً برمتها . وكانت التعديات على أهل العرض والذمة كثيرة جداً ، وكانت المرأة الحسناء لا تجسر أن تخرج من بيتها بدون أن يحرسها حارس قوي وان لم يكن حارس فتلتزم ان تلبس ملابس رثة وتحني ظهرها ليظنها من يراها في آخر أيامها ، وكان كل صاحب مهنة يصحب أسلحته معه الى محل عمله ليكون على استعداد حتى إذا جد شر ينضم الى حزبه ، وقد قلت بضاعة المعارف وقتئذ لرواج بضاعة السيوف والعصي .

ومن الأحداث التي جرت في عهد العثمانيين ظهور الأمير فخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان (١٠٢٠ ـ١٠٤٣) وعصيانه على الدولة وطمعه بالاستقلال في بلاد الشام كلها الى ان جهزت عليه حملة بقيادة كوجك أحمد باشا والي دمشق فاعتقلته وارسلته إلى الاستانة ثم قتلته فيها سنة ١٠٤٤ .

ومنها ظهور آل العظم حكاماً في دمشق وغيرها خلال ٧٣ سنة (١١٣٧ - ١٢١٠) في فترات متقطعة ، كان جدهم ابراهيم من أجناد ذلك العهد في معرة النعمان اعقب أولاداً وأحفاداً حكموا وتملكوا في المعرة وحماة واللاذقية وصيدا ودمشق وقويت شوكتهم وعظمت شهرتهم ، كانوا كسائر الأسر القديمة المتنفذة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام في تلك السنين المضطربة . ولا شك انهم جمعوا ثروات طائلة . لكن أكثر أموالهم كانت الدولة تصادرها عقب وفاتهم . وقد برز من أولاد ابراهيم المذكور أحدهم اسماعيل فقد صار وزيراً في دمشق (١١٣٧ - ١١٤٣) وأميراً على الحاج ثم تعاور أولاد اسماعيل الوزارة مراراً ، منهم أسعد باشا (١١٥٦ - ١١٧٠) اشتهر بما بناه في دمشق وحماة من القصور والحمامات والخانات . ومنهم اسماعيل باشا وسليمان باشا وعبد الله باشا وهؤلاء اشتهروا بالمدارس التي بنوها في دمشق .

ومنها قيام محمد بك أبو الذهب (في سنة ١١٨٥) وهو أحد أمراء المماليك الشركس المصريين وكان مرسلاً من قبل سيده علي بك الكبير الشركسي والي مصر بتجريدة عظيمة لفتح بلاد الشام وضمها إلى مصر والاستقلال فيهما على نحو ما عمله بعد ستين سنة محمد علي باشا الالباني وابنه ابراهيم باشا ، فوصل محمد بك الى دمشق وحاصرها واستولى عليها ، لكنه رجع عنها فجأة دون طائل وخان سيده وسعى الى قتله . ومنها المعركة التي جرت في سنة ١٢٣٥ بين عبد الله باشا والي عكا ودرويش باشا والي دمشق في المزة ، وكانت الدائرة على درويش باشا . ومنها ثورة رعاع دمشق على الوالي سليم باشا في سنة ١٢٤٦ بسبب محاولته وضع ضرائب جديدة وقد حاصروه في داره وأحرقوه . وفي سنة ١٢٤٧ جاء ابراهيم باشا المصري وظل ثمان سنوات (١٢٤٧ - ١٢٥٥) فتح بلاد الشام كلها بعد حروب طاحنة مع جيوش الدولة وفي عهده شاهدت دمشق أول أعمال الاصلاح الاداري الحديث في البلاد . فقد عامل ابراهيم باشا الرعايا بالعدل والمساواة وأبطل المصادرات وقرر حق التملك ووطد الأمن في المدن والقرى وأحيا الزراعة والصناعة والتجارة . واستعادت بعمله هذا أكثر قرى حوران وعجلون وحمص وحماه وغيرها عمرانها القديم ورخص للأجانب في إرسال قناصلهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من

دخولها قبله فنزل وكلاؤ هم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس وقد شيد في بلاد الشام مباني عظيمة عسكرية خصوصاً في دمشق تصعب محاكاتها كالمستشفى العسكري وثكنات الجند ومستودع البارود وغيرها من المحال . وكانت أيام ابراهيم باشا (١٢٤٧ ـ١٢٥٦) محمودة في الجملة لو لم يكن حكمه مشوباً بالسفك والبطش شأن كل داخل فاتح ولم يقم بتجنيد الشبان في هذه البلاد التي لم يعتمد على نظام الجندية الحديث ويثقل كاهل الأهلين بالضرائب ويستفز الدروز ويسبب قيامهم عليه وفتكهم بجنده في لجا حوران وغيرها .

العهد العثماني الأخير : ـ لم يكد المصريون يخرجون حتى عادت البلاد إلى فوضى وثارت العداوات القديمة في الصدور وزادت الدسائس الأجنبيةَ وأخذت فرنسا تساعد الموازنة وبريطانيا تعاون الدروز ، الفتن تتكرر وحدثت الكوليرا الكبرى في سنة ١٢٦٤ ووقعت الطامة الكبرى في سنة ١٢٧٧ وهي المعروفة بحادثة الستين نسبة إلى سنة ١٨٦٠ م التي سودت تاريخ دمشق ، بدأت هذه الحادثة في لبنان بين الدروز والنصارى امتدت شرارتها الى دمشق وجرى بها ما جرى من رعاع المسلمين من ذبح النفوس وحرق الدور والقصور والمعابد ونهبها . وقد أدت هذه الفتنة الى خراب قسم من مدينة دمشق وأهمها الكنائس والأديار القديمة والبيوتات التاريخية الجميلة ، وقد هام وقتئذ كثير من النصارى الى بيروت ومصر وغيرهما . وانتهت الفتنة بخروج لبنان ممنوحاً استقلالاً إدارياً وخروج دمشق منهوكة ذليلة بعد أن قضى على كثير من كبار مسلميها وصغارهم رمياً بالرصاص أو تجنيداً أو تغريماً . وربما نجا المجرمون وقتل من كان جرمهم خفيفاً ، وكان الذنب على الحكومة وعمالها لما يبدوه من الضعف ثم على الأقرب من الأعيان والخواص ثم على العامة . وقد أنشأت في هذه السنة (١٢٧٧) الطريق المعبدة بين دمشق وبيروت وشرعت شركة من تيسير مركباتها وتعاقب بعد ذلك ورود الولاة العثمانيين ، ونحن سنذكر المشاهير منهم ومن له في الصالحات أو ضدها اثر لقرب العهد بهم ، منهم محمد رشدي باشا الشرواني ، أحدث اصلاحات كثيرة في شوارع دمشق ، ففي سنة ١٢٨٠ هـ أزال باب النصر أحد أبواب سور دمشق . وقد كان محل سوق الاورام الحالي ، وفي عهده سنة ١٢٨١ (١٨٦٣) تألفت ولايات المملكة العثمانية فصارت دمشق قاعدة

ولاية سورية كلها ، ومنهم محمد راشد باشا (١٢٨٣) مكث خمس سنوات وأجرى إصلاحات كثيرة وردع أصحاب التعدي من الاعراب والنصيرية وراجت في زمنه الاعمال والارباح وكثرت المدارس والصحف . وفي سنة ١٢٨٨ فصل لواء القدس عن دمشق . ومنهم المؤ رخ والشاعر التركي الشهير ضيا باشا (في سنة ١٢٩٣) اشتهر بحفظ الآثار والعاديات والعطف على الرعية ، وهو الذي جدد تربة الشيخ محي الدين بن العربي بزخرفها ورونقها الذي هي عليه اليوم وأظهر تربة السلطان صلاح الدين الأيوبي وشاد عليه بناءه الحالي وشاد تربة الشيخ عبد الغني النابلسي ، ومنهم عمر فوزي باشا (١٢٩٤) الذي فتح في زمنه سوق علي باشا (المشهور بجودة فواكهه وسكاكره) النافذة من ساحة المرجة الى سوق الخيل[1] أزيل من عهد قريب على أن يبنى مكانه ماهو أحسن ، ومنهم المؤ رخ والعالم الشهير أحمد جودت باشا (١٢٩٥) ، لكن رغم فضله وحسن نيته لم تطل أيامه فلم يتمكن سوى من تأسيس في سنة ١٢٩٦ عدد من المدارس .

وجاءها في سنة ١٢٩٦ مدحت باشا الصدر الأعظم الشهير فبقى نحو سنة والشارع المستقيم يرد الآن باسمه . وأنشأ الطرق والمدارس ونشط الصناعة والزراعة وضرب على أيدي المرتشين ونشر الحرية الشخصية ولقى الحكام والمحكوم عليهم دروساً في الوطنية والشعور بالواجب ، وكان يرجى لبلاد الشام أن تسبق عاصمة السلطنة في الحضارة بفضل اصلاحاته لو طالت أيامه .

وفي سنة ١٢٨٢ و ١٢٩٢ زار الهواء الاصفر دمشق فأهلك في أول مرة نحو عشرة آلاف نفس ، كما زارها بعد في سنة ١٣١٩ وبقي نحو سنتين يفتك فتكاً ذريعاً بحكم اقتصار الدمشقيين وقتئذ على شرب ماء الانهار قبل ورود الفيجة ، واهتم لعمارة الجامع الأموي وجمع الاعانات من الأهلين وكان يباشر الوقوف على العمال بنفسه رجاء المثوبة والأجر ، وفي زمنه تم تمديد الخط الحديدي الافرنسي من بيروت فدمشق فالمزيريب . وبذلك سهلت المواصلات وراجت حركة التجارة بين الساحل والداخل .

وفي سنة (١٣١٣) جاء حسين ناظم باشا الاداري الحازم الشهير ذو المآثر العمرانية الخالدة التي منها افتتاح الخط الحديدي بين دمشق وبيروت ، وانشاء حي

المهاجرين في سفح جبل قاسيون والثكنة الحميدية (١٣١٣) التي استعملت فيها كثير من أحجار القلعة القديمة ، ودار الحكومة الحالية ومستشفى الغرباء بمقبرة الصوفية قرب محطة البرامكة (١٣١٧) وأعظم أثر لهذا الوالي هو جلب ماء عين الفيجة وتوزيعه على المدينه (١٣٢٤) ، ولو لم يكن له غير هذه الحسنة على دمشق وأهلها لكفى . فقد سقاهم ماءً نقياً طهوراً فأحياهم إلى الأبد وأنقذهم من الأوبئة والأمراض الفتاكة ولا سيما الكوليرا التي كانت تجتاحهم في سني ١٢٦٤ و ١٢٨٢ و١٢٩٢ و١٣٠٨ و١٣١٩ . فقد كانت الكوليرا في هذه التواريخ تجرف بالآلاف من الانفس بسبب شرب مياه الأنهر الملوثة . ومن مآثر ناظم باشا ايضاً تغمده الله برحمته السلك البرقي الذي مد من دمشق إلى المدينة المنورة (١٣١٢) وقد أقام له نصباً تذكارياً وسط ساحة المرجة لايزال ماثلاً . كما كان له النصيب الأوفى في معاونة المشير كاظم باشا في إنجاز الخط الحجازي الذي أمر بتمديده السلطان عبد الحميد وبدأ به في سنة ١٣١٨ ، وطول هذا الخط ١٣٠٣ كيلو مترات امتد من دمشق إلى المدينة . وكانت دمشق اتصلت من الجنوب والشمال والغرب بسكك حديدية (لشركة د . ح . ت الفرنسية) أخرى مع بيروت وحلب وحوران . وأنشأت بضع مدارس في دمشق . ومنهم الصدر الأعظم الشهير أحمد مدحت باشا (١٢٩٥) صاحب المرامي البعيدة والمشروعات العظيمة في دولة آل عثمان ، بقي في دمشق نحو سنة وثمانية أشهر وترك آثاراً شاهدةبفضله كمدرسة الصنائع ودار الكتب الظاهرية والسوق العظيم المعروف باسمه ، وقد تألفت في عهده دوائر العدلية والشرطة والدرك .

وكان عازماً لو طالت مدته على كشف نهر بردى من المرجة الى باب توما وعلى تطهيره من الأوساخ وهدم الأبنية التي في أطرافه وإبدالها بشارعين عظيمين على يمينه ويساره ، ولو تم هذا العمل في حينه لكانت نظارة دمشق على غير ما تراها اليوم .

ومنهم أحمد حمدي باشا الصدر الأسبق (١٢٩٦) وكان هذا أيضاً من نوابغ الولاة ، مكث خمس سنوات وله اليد البيضاء في تعميم المشاريع الخيرية ومنها شركة الشوسة بين حمص وطرابلس والتراموای بين مدينة طرابلس وميناتها . ومنهم راشد ناشد باشا (١٣٠١) وكان على علو همته طماعاً فتح باب الرشوة في زمنه ، ومنهم مصطفى عاصم باشا (١٣٠٥) وفي عهده فصلت ولاية بيروت عن دمشق ، وفتح سوق

الحميدية (١٣٠٢) الممتد من باب البريد الى سوق الجديد وأنشأت المدارس الابتدائية النظامية والمدرسة الإعدادية الليلية في دار عنبر . ومنهم كمال اسماعيل بك (١٣٠٨) الذي احترق الجامع الأموي في عهده ، والمشير عثمان نوري باشا (١٣١١) المشهور بالرشوة واستعفاء أموال الناس . وحسن رفيق باشا (١٣١٢) الذي مدد من إدارة الخط الحجازي فرعاً له من درعا الى حيفا بالبحر مباشرة ، فحسنت تجارة دمشق وكانت منذ افتتاح ترعة السويس في سنة ١٢٨٦ هـ تحولت تجارة الشرق عنها . ومن مآثر ناظم باشا جعل سقف سوق الحميدية وسوق مدحت باشا من ألواح التوتياء على أثر حريق سوق الحميدية الهائل سنة ١٣٢٩ ، وكانا قبلاً من الخشب . ومنها اسكانه المهاجرين في القرى الداثرة وإعماره البراري الخالية ، وإنشاء سوق الخوجة عند باب القلعة الغربي (١٣٢٣) وتجديد دوائر الحكومة في الأقضية ، هذا الى إقراره الأمن والسلام في البلاد طول بقائه مدة اثني عشر سنة ، وهي أطول مدة بقيها وآل عثماني .

وفي سنة ١٣٢٥ تولى شكري باشا . وفي زمنه مد خط الترامواي من الجسر الأبيض الى بوابة مصر في منتهى الميدان الفوقاني وأنيرت دمشق بالكهرباء . وفي سنة ١٣٢٦ أعلن الدستور العثماني ، وفي ١٣٢٨ خلفه الفريق اسماعيل فاضل باشا ، فحدثت الفتنة في حوران وجبل الدروز وساقت الدولة حملة عسكرية بقيادة سامي باشا الفاروقي أدبت الثائرين من الدروز وحررت النفوس ووطدت الأمن. وإذ بالفتنة تظر بالكرك فذهبت حملة واقتصت من القائمين بها . وفي سنة ١٣٣١ تولى عارف بك المارديني ، وفي زمنه أكمل طريق الترامواي من الجسر الأبيض الى جامع الشيخ محي الدين ومن الجسر أيضاً الى حي المهاجرين . وفي سنة ١٣٣٣ تولى خلوصي بك وكان من رجال الهندسة ، وفي زمنه بدأت الحرب العالمية وجاء القائد الجبار الشهير أحمد جمال باشا ، وشرع هذا وسط استعداداته العسكرية لفتح مصر يتأثر رجالات الحركة العربية ويسوقهم الى ديوان الحرب في عالية (لبنان) ويحاكمهم ويشنقهم وينفي عائلاتهم وعائلات كثيرة من أهل هذه البلاد الى بلاد الأناضول . فكانت داهية دهماء على البلاد الشامية بأجمعها وسط مصائب تلك الحرب الطاحنة ، وكان هذا الباشا مطلق الصلاحية لا مرد لأمره بطاش وذا نزوات مرعبة وإرادة

حديدية ومطامح بعيدة عرفت من بعد أنه كان يبغي الاستقلال بالبلاد الشامية وجعلها خديوية مثل مصر . وهو على علاته المذكورة ورغم انشغاله بما ذكرناه لم يتوان عن الأعمال العمرانية ، فله الفضل في فتح الشارع العريض الكبير الذي سمي باسمه في زمنه وباسم شارع النصر أيام الحكم الفيصلي، وكان ينوي ايصال هذا الشارع الى البرامكة غرباً والى باب البريد أمام الجامع الأموي شرقاً وذلك بتغيير أوضاع سوق الحميدية الحالي وإظهار جدار القلعة الجنوبي وكشف حول الجامع الأموي وإزالة ما هنالك من الدور والحوانيت الضيقة المزرية بقدر هذا الجامع العظيم والمشوهة لجماله حتى يومنا والمسببة لحريقه مراراً . ففعل ما استطاع من ذلك ولم تقف ظروف الحرب أو السياسة وقتئذ الى أكثر ، وبعد الحرب خف أصحاب العقارات وأعادوا ما هدمه ذلك القائد ، على حين لو تم هذا المشروع لبرز الجامع الأموي وما حوله مما يعد قلب دمشق وصارا على غير ما هما عليه الآن من الاكتظاظ وقبح الوضع والمنظر .

وكان آخر وال عثماني في دمشق تحسين بك ، سعى لجر قلوب أبناء العرب المنكسرة من جبروت جمال باشا ونجح باسترجاع العائلات المبعدة، ولكن القضاء كان قد هم ، فسقطت دمشق في يد جيوش الحلفاء والجيش العربي القادم بقيادة المرحوم الأمير فيصل في ٣٠ أيلول ١٩٣٨ (١٣٣٧ هـ) وألفت بعد شهر في دمشق حكومة عربية عسكرية برئاسة رضا باشا الركابي تحت إشراف الأمير فيصل يسرى نفوذها على المنطقة الشرقية التي تتألف من ولايات دمشق وحلب . وفي نيسان ١٩١٩ وصلت الى دمشق لجنة أميركية للتحقيق عن رغبات الشعب الشامي في نظام الحكم الذي يريده ، وكان الأمير فيصل يسافر ويعود مراراً الى لندن باريز لحضور مؤتمر الصلح وللمداولة بشأن البلاد . وفي آذار سنة ١٩٢٠ أعلن المؤتمر السوري المنعقد في دمشق الذي ضم ممثلين عن جميع مناطق سورية وفلسطين ولبنان استقلال سورية بحدودها الطبيعية ونادى بالأمير فيصل ملكاً على سورية : لكن الأمر لم يطل ، فقد أرسل المفوض الفرنسي الجنرال غورو في ١١ تموز ١٩٢٠ إنذاراً للحكومة السورية وفي ٢٤ منه وقعت معركة ميسلون بين القوات الفرنسية التي ساقها الجنرال المذكور وبين فلول ضئيلة من قوات الجيش العربي المسرح كانت قد

وقفت للدفاع بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية الذي استشهد في هذه المعركة ، وفي اليوم التالي دخلت طلائع قوات الاحتلال الفرنسية دمشق وغادر الملك فيصل عاصمته الى الكسوة فدرعا فحيفا فاوربا ، وهكذا انتهى العهد الاستقلالي الأول وبدأ عهد الانتداب الفرنسي المشئوم الذي دام ربع قرن (١٣٣٨ - ١٣٦٣) .

عهد الانتداب الفرنسي : - عمل الفرنسيون بقاعدة (فرق تسد) فقطعوا أوصال البلاد وأنشأوا فيها عدة دويلات متفرقة في لبنان ودمشق وحلب واللاذقية وجبل الدروز ولواء الاسكندرونة . فاضطرت كل دويلة الى تأليف وزارات ومجالس نيابة. وإدارات ذات تكاليف باهظة تأتمر بقرارات المفوض السامي المقيم في قصر الصنوبر في بيروت . وقد قضوا بذلك على وحدة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثاروا النعرات الطائفية والعنصرية وضيقوا الحرية الشخصية وحرية الاجتماع والصحافة وأنشأوا المحاكم الأجنبية واستبدوا بأوقاف المسلمين وبالمعارف وبرامج الدروس يرتبونها على هواهم وسلموا السكة الحجازية الى شركة دمشق - حماة الفرنسية وطرحوا الورق النقدي السوري للتعامل وسحبوا به الملايين من ذهب هذه البلاد الى فرنسا ، وفصلوا بين البدو والحضر وربطوا العشائر بخصوصيتهم وأكثر واعدد مندوبيهم ومستشاريهم وسلطوهم على كل كبيرة وصغيرة ووضعوا أنظمة وقرارات إدارية لا تعد ولا تحصى شديدة التعقيد والتشوش وقتلوا روح التشبث والحركة والإخلاص في الجهاز الحكومي ، على أن الثورات الفكرية والفعلية لم تخمد في بدء عهدهم في جميع الأنحاء . فمن ثورة الشيخ صالح العلي في جبال اللاذقية الى ثورة المرحوم ابراهيم هنانو في غربي حلب الى محاولة قتل الجنرال غورو في طريقه من دمشق الى القنيطرة وغيرها . وجعل الفرنسيون في دمشق دولة تضم القسم الجنوبي من بلاد الشام دعوها باسم (دولة دمشق) عهدوا بها الى أحد عملائهم من أهل البلاد وهو السيد حقي العظم كان مثال الخضوع والائتمار بإرادتهم كما جعلوا في حلب دولة عهدوا بها الى نظير له اسمه كامل باشا القدسي .

ولما كثر التذمر عمد الفرنسيون في حزيران سنة ١٣٤١/ ١٩٢٢ الى إنشاء اتحاد بين دول دمشق وحلب واللاذقية وجعلوا لهذا الاتحاد مجلساً سموه (مجلس الاتحاد السوري) عينوا له رئيساً السيد صبحي بركات من رجال إنطاكية ، وجعلوا مركز

هذا الاتحاد أولاً في حلب ثم نقلوه الى دمشق . ووضعوا لهذا الاتحاد الضعيف قيوداً لم تختلف عن قيود الدويلات الهزيلة التي كانوا أبقوها كما هي . لكن هذا الاتحاد لم يعش طويلاً . فألغوه في سنة ١٣٤٣/ ١٩٢٤ وأنشأوا وحدة بين دولتي دمشق وحلب فقط مع لواء الاسكندرونة الممتاز وسموا هذه الوحدة (دولة سورية) برئاسة السيدصبحي بركات المذكور . أما دولة اللاذقية فقد تركوها لوحدها تحت حكمهم المباشر . وكان المفوضون الساميون الذين ترسلهم فرنسا عسكريين وحكمهم حكم عسكري أوتوقراطي أمثال الجنرال غورو (١٩١٩) والجنرال ويغاند ١٩٢٣ والجنرال ساراي ١٩٢٥ .

وفي تموز ١٩٢٥ (١٣٤٤) كان الكيل قد طفح من جبروت الفرنسيين فنشبت الثورة الكبرى ، بدأت من جبل الدروز وامتد شرارها الى حماة فدمشق وقرى الغوطة ووادي التيم وجبل قلمون وأطراف حمص وشمالي لبنان وبعلبك . ودامت نحو سنتين راح فيها ما لا يحصى من الصامت والناطق وانتقم الفرنسيون فيها شر انتقام ، فقصفوا دمشق / ١٨ تشرين الأول ١٣٤٤ / ١٩٢٥ بالمدافع من قلاع المزة وأحرقوا حي سيدي عامود وبعض الميدان بما فيها من دور وقصور ثمينة وأخربوا في الغوطة قرى برمتها وقتلوا وأحرقوا الألوف من الأهلين وأتلفوا ماقدر بمئات الألوف من الليرات الذهبية . ونزح وقتئذ كثير من السكان الى مدن الساحل ثم لما انتهت الثورة عاد منهم من عاد .

ولما علت الشكوى من عمل الجنرال سراي الذي قصف دمشق سحبته فرنسا وأرسلت مفوضاً مدنياً أسميه لسيو دي جوفيل ، لكن سياسة هذا لم تختلف عمن سبقه . واستقال في أواخر تلك السنة صبحي بركات هو ووزارته ، ففوض دي جوفيل في دمشق أن يحكم البلاد مباشرة وأجرى خلال الثورة انتخابات لمجلس نيابي من حلب وحمص وحماة باستثناء دمشق المضطربة فلم ينجح إلا في حلب . وأوحى الى مجلس حلب أن يقرر الانفصال عن دمشق وجعل عاصمة البلاد في حلب فكان القرار على خلاف ما أراد وهو طلب (الوحدة السورية) .

وفي ٢٦ نيسان ١٣٤٥ / ١٩٢٩ عين الداماد أحمد نامي رئيساً لدولة سورية فجاء هذا يحمل برنامجاً قيل أنه كان اتفق عليه مع دي جوفيل من جملة مواده

الاعتراف لسورية مرفأ بمرفأ بحري على أن تكون طرابلس هذا المرفأ ، وراح دي جوفيل الى باريس لحمل حكومته على إقرار هذا البرنامج لكنه أخفق في مسعاه واستقال على الأثر ، فعين مكانه المسيو بونسو ووصل في ١١ تشرين الأول سنة ١٩٢٦ ، وقضى أيامه في الصمت والتظاهر في التفكير والتنقل بين باريز وبيروت لحل القضية السورية الى يوم ٨ شباط ١٣٤٧ / ١٩٢٨ وفيه قبل استقالة الداماد وعهد الى الشيخ تاج الدين الحسني بتأليف الوزارة والشروع بانتخاب الجمعية التأسيسية لتقوم بسن الدستور . ورغم الضغط الذي جرى فازت قوائم الوطنيين في أكثر المدن . وافتتحت الجمعية في ٩ حزيران وألفت لجنة لإعداد مشروع الدستور .

لكن هذه ما كادت تتقدم الى الهيئة العامة بما أعدته حتى دخل بونسو وطلب طي ست مواد من أصله لأنها تؤ يد سيادة البلاد وتعارض نفوذ الانتداب .

ولما خالفت الجمعية في جلستها في ١١ آب ١٩٢٨ أمر بتأجيلها ، وطال هذا التأجيل الى ٢٢ أيار ١٩٣٠ ففاجأ بونسو البلاد بإعلان دستور سورية الجديد المقيد بالمادة ١١٦ التي تخول المفوض السامي الفرنسي كل صلاحياة تزعزع الدستور فاحتجت البلاد وبقيت الأمور معلقة سنة ونصف أخرى مرت خلالها البلاد بأحداث عصبية لم يهدأ فيها التذمر والإضراب . الى أن أصدر بونسو في تشرين الثاني سنة ١٣٥٠ / ١٩٣١ قراراً أقال فيه حكومة الشيخ تاج ودعا الشعب الى الاشتراك بانتخابات نيابية تمهيداً لتطبيق الدستور . وفي ٢٠ كانون الأول ١٩٣١ بدأت الانتخابات تحت مراقبة الجيش الفرنسي وقوى الأمن دون مراقبة المنتخبين ، فاتضح أن الفرنسيين يريدون نجاح قوائم معينة بالضغط والتزييف فثارت نفوس الأهلين في دمشق وحماة ودوما ولكنهم قوبلوا بالنار التي أسقطت منهم ضحايا عديدي ، وخاصة من يد بهيج الخطيب الصديق الحميم للفرنسيين . وقد كان مدير شرطة دمشق آنئذ . وأرغمت الدماء السائلة المفوض السامي على ايقاف الانتخابات بضعة أشهر ، الى أن أعيدت في نيسان ١٣٥١ / ١٩٣٢ بعد تفاهم بين المفوض المذكور والوطنيين ، وانتهى الانتخاب بفوز قوائم الوطنيين في المدن وقوائم الانتدابيين في الأقضية حيث كان لمستشاريهم السيطرة الكبرى .

ولما اجتمع المجلس النيابي في ٧ حزيران ١٩٣٢ انتخب رئيساً له السيد صبحي بركات ثم انتخب السيد محمد علي العابد رئيساً للجمهورية السورية ، وتألفت وقتئذ وزارة حقي العظم كان في إعدادها بعض الوطنيين على أن يفاوضوا المفوض السامي لعقد معاهدة تحدد مصالح الفريقين ، لكنهم لما رأوا أن مشروع المعاهدة لا يحقق أماني البلاد انسحبوا هم من الوزارة ولحقهم النواب الوطنيون من المجلس .

وعلى أثر هذا الإخفاق عاد المسيو بونسو بالكونت دي مارتل فوصل تشرين الأول ١٩٣٣ ووضع مع حكومة حقي العظم مشروع معاهدة جديدة لا تحقق وحدة البلاد وخلاصها من الاحتلال . ولما عرضت هذه المعاهدة على المجلس النيابي قرر النواب الوطنيون العودة الى المجلس ومفاوضتها تحت قبته . وحين البحث فيها قوبلت الفكرة بالرفض من أكثرية النواب ، فأمر المفوض دي مارتل بتعطيل المجلس الى أجل غير مسمى . وفي ١٧ آذار ١٣٥٤ / ١٩٣٤ استقالت وزارة حقي العظم وأعيدت وزارة الشيخ تاج الدين الحسني ثانية فقضت مدتها والبلاد مضطربة تتعاودها المظاهرات والإضرابات المتوالية .

وفي سنة ١٣٥٥ / ١٩٣٥ زاد الضغط والإرهاب واستفحلت الأزمات الاقتصادية ، وحدثت مقاطعة شركة الكهرباء واعتقال الوطنيين من جرائها فأضربت البلاد في شتاء سنة ١٩٣٦ إضراباً عاماً دام نحو خمسين يوماً اضطر المفوض دي مارتل أن يقيل وزارة الشيخ تاج الذي كان عميلاً للفرنسيين ومكروهاً من أهل البلاد في كل الأدوار وأن يتفق مع الوطنيين في أول آذار ١٣٥٥ / ١٩٣٦ أن تعترف فرنسا باستقلال سورية ووحدتها وعقد معاهدة يقوم بها وفد سوري يسافر الى باريز . وعينت وزارة عطا الأيوبي باسم وزارة الانتقال ريثما يرجع الوفد . ومكث هذا الوفد في باريز نحو ستة أشهر فعقد معاهدة ربما كانت أوسع مما سبقها وإن لم تكن بمجموعها كافية ودعيت البلاد الى انتخابات نيابية جديدة فازت فيها قوائم الوطنيين . واجتمع في كانون الأول ١٩٣٦ المجلس المنتخب وقبل استقالة محمد علي العابد من رئاسة الجمهورية وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية ،

وتألفت وزارة وطنية برئاسة جميل مردم وقامت بتصديق مشروع المعاهدة في المجلس ، وتنفس الناس الصعداء قليلاً خلال سني ١٩٣٧ و ١٩٣٨ .

لكن الفرنسيين أخلفوا بوعودهم وعدلوا عن تصديق المعاهدة بتأثير الأحزاب العسكرية والاكلريكية وارسلوا بعددي مارتل مفوضاً اسمه بيوجاء في أول سنة ١٣٥٨ - ١٩٣٩ ، وراحوا يكيدون للحكم الوطني ويهدمونه ويثيرون الفتن في محافظات اللاذقية والجزيرةوجبل الدروز ويهيجون جهلة هذه المحافظات ضد موظفي العاصمة وأوامر العاصمة ، وسمحوا بذهاب لواء الاسكندرونة الى الأتراك لقمة سائغة رغم رجحان الحق العربي فيها . وما زالوا حتى اضطروا الوزارات الوطنية الى ان تستقيل وان يلحقها رئيس الجمهورية الأتاسي ، وأمروا ٨ تموز/ ٩٣٩ بوقف تطبيق الدستور السوري وحل مجلس النواب وتأليف حكومة دعوها حكومة المديرين ، وراح المفوض السامي المذكور وأعوانه يحكمون البلاد من وراء المديرين المذكورين حكماً مباشراً الى أن أعلنت الحرب العامة في أيلول ١٩٣٩ فسكتت الأمة على مضض وشغلت بمصائب تلك الحرب الطاحنة وبموجبات الضغط والارهاب والاعتقال التي كانت تسودها حتى حزيران/ ١٩٤٠ حيث خرجت فرنسا من الحرب مكسورة واحتلت أراضيها وذلت . فاستبدل المفوض بيو بالجنرال دانز وقامت في عهده اضطرابات وأضرابات في المدن وانتهت باستقالة حكومة المديرين وتأليف وزارة خالد العظم في ٣ نيسان ١٩٤١ ، (١٣٦٠) .

وبلغت نيران الحرب الطاحنة بلاد الشام وزحف البريطانيون من فلسطين شمالاً يريدون الاستيلاء على دمشق وحلب وما فيها والقضاء على نفوذ الفرنسيين الباقين على ولاء حكومتهم (فيشي) . واشتبك البريطانيون والفيشيون في معارك عديدة في كل البلاد ، واكتوت دمشق بنيرانها ونال حي الفرايين وحي الكلاسة قنابل من طيارات مجهولة قتلت عشرات من الأبرياء وهدمت مساكن عديدة وجاء مع البر يطانيين فرنسيون مخالفون لحكومة فيشي وقد دعوا بالديغوليين نسبة لزعيمهم الجنرال ديغول . وقد رأى هؤلاء الحلفاء الذين دخلوا سورية ولبنان في تموز/ ١٩٤١ أن الوسيلة الوحيدة لكسب عطف الشعب في هذين البلدين هي الاعتراف بحقوقهما الشرعية من الحرية والاستقلال . فأعلن الجنرال كاترو الفرنسي

استقلالها باسم فرنسا الحرة والغى الانتداب وأيده في وعوده سفير انكلترا في مصر وقدم ضمانة دولته العظمى لهذا الاستقلال .

ولاح هذا الاعلان كفاتحة عهد جديد للتعاون . ولكن حرمان البلاد من التمثيل النيابي ومن انتخاب رئيس الجمهورية وبقاء الصلاحيات الداخلية والتمثيل الخارجي بيد الفرنسيين كان عائقاً لهذا التعاون . لا سيما ان تعيين الفرنسيين للشيخ تاج رئيساً للجمهورية منذ ٢٠ أيلول ١٩٤١ الى أواخر سنة ١٣٦١/ ١٩٤٢ كان في غير محله ، وكان هذا الشيخ والوزارات التي يأتي بها مكروهةً من مجموع الأمة وفي أوائل سنة ١٣٦٢/ ١٩٤٣ مات الشيخ تاج غير مأسوف عليه فنشبت على الأثر أزمة سياسية رافقتها الاضطرابات وانتهت بتكليف عطا الأيوبي بتأليف حكومة انتقالية لاجراء الانتخابات ففاز بها الوطنيون بأكثرية ساحقة .

وفي ١٧ آب ١٩٤٣ (١٣٦٣) عقد المجلس النيابي السوري أولى جلساته وانتخب شكري القوتلي نائب دمشق رئيساً للجمهورية بالاجماع ، واعترفت الدول العظمى بهذا الاستقلال الذي مارسه السوريون بحق ، وانصرفت حكومة دمشق لاسترداد الصلاحيات من الفرنسيين ، وهذه كانت متمركزة في عدة دوائر كالمصالح المشتركة (الكمارك) والشؤ ون الخارجية والجيش الوطني وسلطات الأمن العام ومراقبة عشائر البادية فأخذت الجميع تدريجاً الا الجيش الذي كان الفرنسيون يماطلون به واشتركت حكومتا دمشق وبيروت في مشاورات الوحدة العربية ووقعتا بروتوكول الجامعة العربية / ٧ تشرين الأول/ ١٩٤٤ وأعلنت حكومة سورية الحرب على المحور ، وقبلت سورية في مؤ تمر سان فرنسيسكو وسافر رئيس الوزارة فارس الخوري على رأس الوفد السوري الى المؤتمر ، وفي غيابه أعلنت الهدنة في أوروبا يوم ٨ أيار ١٩٤٥ ؟ واحتفل العالم بانتهاء الحرب التي دامت خمس سنوات وتسعة أشهر .

وطالت المفاوضات بشأن الجيش ، وإذا بفرنسا تراوغ وتنكل عن أقوالها كجاري عادتها وتريد أن تفرض سيطرتها من جديد . فتطلب مطاليب استعمارية تحت ستار حفظ المصالح الثقافية والاقتصادية والاستراتيجية ولما أجيبت بالرفض رفعت البرقع الذي سترت بها وجهها وانتهز عمالها مهرجانات الفرح بالهدنة لاثارة

السوريين واستفزازهم في كل مكان ، وانتهت هذه الاستفزازات بوقوع العدوان الفرنسي على المدن السورية في الأسبوع الأخير من شهر أيار سنة ١٩٤٥ ، وجرت حوادث الضرب والتدمير بإطلاق المدافع على القلاع والمعسكرات الفرنسية والقصف من الطائرات في حماة وحمص ودير الزور وغيرها ،واصبحت عامة المدن كأنها إحدى ساحات الحرب ، وانتهى أمرهم بقصف العاصمة (دمشق) قصفاً موجعاً خلال ثلاث ليال متواليات من ٢٩ أيار - ١ حزيران خربوا فيه واجهة المجلس النيابي وقتلوا جنود الدرك الذين كانوا فيه ومثلوا بهم افظع تمثيل واستولوا على دار الحكومة وأحرقوا شوارع وأحياء وهدموا جامع تنكيز وشوهوا منارته وفتكوا بالأرواح وقطعوا الأيدي . ونهبوا وسلبوا الدور والحوانيت في شارع الصالحية الى غير ذلك مما يسجل لفرنسا ولتاريخها وثقافتها صفحة سوداء ووصمة خالدة على الدهر .

وروع العالم المتمدن بأخبار هذه الأعمال البربرية فأرسل المسترتشرشل رئيس وزراء بريطانيا برقية الى الجنرال ديغول طلب منه أن يأمر قواته بوقف إطلاق النار وهدده بزحف القوات البريطانية فرضخ ، ولولا ذلك لكان قضى على دمشق وبقية المدن السورية المهاجمة قضاءً مبرماً . وكان لاجتماع ممثلي الجامعة العربية في مصر وقراراتهم الخطيرة أثر كبير في إعلاء كلمة العرب في هذا الموضوع . ومن هذه القرارات المطالبة بالاستقلال التام لكل من سورية ولبنان طبقاً للتصريحات الرسمية التي صدرت منذ جلاء قوات فيشي والمحور عنهما ودخول الحلفاء مدينتهما والاحتجاج على الحوادث الأليمة الأخيرة ، وتقرير الجلاء التام للجنود الفرنسية عن بلاد القطرين ووضع القوات الوطنية السورية واللبنانية تحت السلطة الوطنية ، ورفض أي مركز خاص لفرنسا في القطرين . . . الخ

وأرسل وفد لتمثيل سورية في هيئة الأمم المتحدة ليطرح على هذه الهيئة قضية الجلاء عن سورية على مجلس الأمن الدولي ، فتم له ما أراد ، وشرعت الجنود الفرنسية تجلو عن سورية تدريجياً حتى انتهى ذلك يوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ واحتفل السوريون في جميع أنحاء البلاد يوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ بالجلاء واعتبروا هذا اليوم عيداً قومياً يحتفلون كل عام بذكراه .

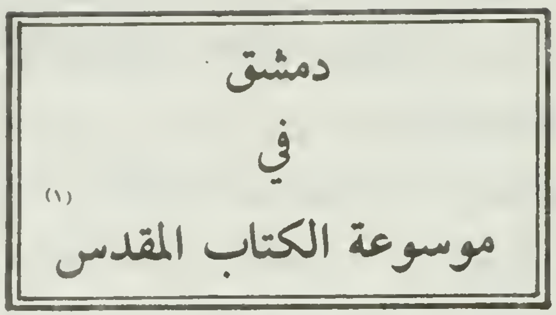
كتبه احمد وصفي زكريا يوم ٢/ ٨/ ١٩٤٦



دمشق

في دوائر المعارف الأجنبية





دمشق

في

موسوعة الكتاب المقدس [1]

Cyclopedia of Biblical literature p. 229

دمشق

يدعوها اهاليها الوطنيون الشام وهي مدينة في سوريا وهي عاصمة قطر يدعى بنفس الاسم وهي حقا اكبر مدينة في سوريا وتقع في سهل متوضع على اسفل جبال لبنان الشرقية وهذا السهل يبعد نحو ٤٠٠ ستاديا من البحر الأبيض المتوسط ويبعد عن القدس مسيرة تتراوح بين ست وثمانية ايام .

يعتقد بعضهم ان دمشق هي اقدم مدينة في العالم ويدعوها بعض المستشرقين لؤلؤة محاطة بالزمرد الأخضر وليس هناك أجمل من موقعها سواء دخلت اليها من جانب جبل لبنان اي من الصحراء شرقا او من الطريق العام الآتية من حلب وحماه وتحيط بها لمسافة عدة اميال الحقول الخصبة او البساتين التي تسقيها الأنهار والجداول اللامعة تغطي منطقة خضراء تغطيها اشجار الزيتون بصورة رئيسية ، وتغطيها النضارة والجمال . وان خصوبة السهول حول دمشق ترجع الى نهر بردى ويعتقد انه اما ان يكون نهر (ابانا Abana) او نهر فرفر Pharbar المذكوران في سفر الملوك (٢ ملوك ٥) (ابانا) ان منظر دمشق عندما يصل اليها المسافر من جبال لبنان الشرقية هو منظر ساحر للغاية والريف المجاور كله خضرة ملتفة بعضها فوق بعض ولكن داخل

(١) ترجمه عن الانكليزية كتاب دائرة معارف ادب الأنجيل .

(١) يلاحظ ان هذه الموسوعة وهي تتعلق بالتوارة تعتمد على مصادر التوراة وخصوصا النصوص التي لها صبغة تاريخية وتلك النصوص لا يمكن الجزم بصحتها لأنها من وضع اليهود أنفسهم بما يخدم مصالحهم .

المدينة لا يتناسب في جماله مع خارجها ففي الحي الأرمني بُنيت البيوت من الطين وتطل على الشوارع بواسطة نوافذ صغيرة محددة بالقضبان ولها درفات خشبية حمراء . وهذه البيوت منخفضة والأبواب المقوَّسة تشبه ابواب الاصطبلات وهنالك بُرك تخرج منها روائح كريهة وهي موجودة بصورة دائمة امام الأبواب . وفي بعض هذه البيوت التي تخص التجار الأرمن هنالك رشاقة ومظاهر الثروة ظاهرة فيها وهنالك شارع جميل وعريض تشكل من قصور دمشق القديمة والذي يعتبر اصحابها من وجهاء البلد . وواجهات هذه القصور المتجهة تجاه الشارع تشبه اسوار سجن طويل او اسوار مستشفى وهي مجرد اسوار طينية رمادية اللون ولها نوافذ قليلة وربما كانت معدومة النوافذ ولكن احيانا يوجد باب عظيم مفتوح على بآحة او ساحة ولكن داخل المنزل رائع جدا فالصالونات مزيَّنة بأغلى آيات الفن الشرقي ، والأسواق في دمشق رائعة جدا والسوق الكبير يبلغ طوله نصف فرسخ وهي شوارع طويلة مغطاة بسقوف خشبية ولها صفوف من الحوانيت والأكشاك والمخازن والمقاهي . والدكاكين كما هي في المدن الشرقية الأخرى ضيقة وليست عريضة اما المخازن فهي مملوءة بالبضائع المخزونة من جميع الأنواع وخصوصا المصنوعات الهندية والتي تجلب بكثرة بواسطة القوافل من بغداد وفي وسط السوق (البازار) يوجد اعظم خانات الشرق وهو خان أسعد باشا وقدبني منذ خمسين عاماً وهو عبارة عن قبة هائلة بها قوس بارز يشبه القوس في كنيسة القديس بطرس في روما . وهو محمول على اعمدة من الغرانيت وعلى بعد قليل يوجد الجامع الأموي الكبير الذي كان سابقا عبارة عن كنيسة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان الذي وجدت جمجمته وجسمانه من هذا المكان المقدس وهذا يُضفي على المكان مسحة من القداسة حتى انه يمنع حتى المسلمون من الدخول الى الغرفة التي حفظت بها الاثار المقدسة .

تقع دمشق على طرف الصحراء عند ابتداء سهول Coele Syria ووديان الجليل وسدوم وسواحل بحر سوريا ، وكانت القوافل الذاهبة الى الهند تتخذ من دمشق محطة للراحة فلذلك اصبحت دمشق مدينة تجارية ويستقر فيها حوالي مئتا تاجر بشكل دائم وتأتيها قوافل من مكة وبغداد وحلب وقوافل اصغر عددا من بيروت (وهي مرفأ دمشق) ومن طرابلس ومن عكا . ويقول لامارتين ان عدد سكانها يبلغ

(٣٠٠) الف منهم حوالي ثلاثون الفا من المسيحيين . وهنالك تقدير آخر يسجّل عدد السكان فيها بعدد يتراوح بين ١٢٠,٠٠٠ - ١٥٠,٠٠٠ نسمة منهم ١٢,٠٠٠ اثنا عشر الفا من المسيحيين ومثلهم من اليهود وان ما لدينا من معلومات تظهر انه حتى هذا الرقم مبالغ به .

وان التغيرات السياسية والتأثيرات الاجتماعية قد قللت من اهمية دمشق الأسطورية التي يضرب بها المثل ، فالطبقات الدنيا لا تزال متعصبة دينيا بينما يسود الشعور الديني بين الطبقات العليا ايضا .

لقد اقتيد السيد اديسون الى البقعة حيث رأى شاؤ ول النور الذي صدر من السماء وذلك طبقا للتقاليد المسيحية . وعندما دار حول الأسوار هو ورفاقه فوصلوا الى نقطة يعتقد ان بولس قد انزل من خلالها في سلة يهرب من غضب اليهود عندما اخذه الحواريون ليلا وهرَّبوه وانزلوه من على السور بواسطة سلة . ومن هناك مروا على ازقة لطيفة جميلة وصلوا الى بقعة خضراء مفتوحة محاطة بالاشجار التي كان يرى في اعاليها قمة جبل الشيخ . وفي هذا المكان اخبروهم ان شاوول قد وصل (الأعمال الفصل ٩ الآية ٣) وحالما رحل وصل الى مقربة من دمشق وفجأة لمع حوله نور من السماء . وهذه الوقائع يشير اليها اهالي دمشق المسيحيون من جميع الملل بثقة كاملة واحترام عظيم. وليس من الصعب ان نفترض ان البقعة الحقيقية قد وصلت الينا اخبارها عن طريق اتباع الصليب والشارع المسمى المستقيم (اعمال ٩ ، اية ١١) لا يزال موجودا في دمشق ويقول اديسون ان طوله حوالي الميل ويدعى بالمستقيم لأنه يؤ دي رأسا من البوابة الى القلعة او قصر الباشا ولا يزال بيت (حوراس) الذي ذهب اليه حنانيا لا يزال ظاهرا وكذلك بيت حنانيا نفسه وان صحة وجود هذه الأماكن لا تزال موضعا للشك .

اما عن أصل ومنشأ دمشق فلا يُعرف الا القليل . ويتضح من سفر التكوين (تكوين ١٤ الاية ١٥) ان دمشق كانت موجودة زمن ابراهيم (وكذلك تكوين ١٥ آية

---

(١) اي حنانياس او حنانيا واليه تنسب الكنيسة الشهيرة او باب حنانيا في منطقة باب شرقي وبينه وبين باب توما في الجنوب الغربي من المدينة القديمة .

٢) ولكن الطريقة التي تذكر بها دمشق في هذه الايات انه حتى في الزمن المشار اليه لم تكن مكانا جديدا او مجهولا لأن خازن ابراهيم كان من دمشق ويذكر فيها ايضا ان حدى الموقع وهي مدينة Hobah تقع على يسار دمشق ولا يمكن ان نحدد بالضبط الزمن الذي استطاعت به دمشق ان تحتفظ باستقلالها ولكن يظهر من (٢ صاموييل ٨ الاية ٥-٦) و (التواريخ ١٩ الاية ٤) ان ملكها قد بلغ به التهور ان هاجم داود المنتصر وهو الملك العبري الذي بدوره هزم السوريين واحدث بهم مذبحة هائلة واخضع دمشق وجعل اهلها يدفعون له الجزية . وهذا الانتصار لم يطل امده . لأنه تحت حكم خليفة هذا الملك (ملوك أول ١١ الآية ٢٤) وهو المدعو (ريزون) Rezon وهو احد خدم حدد عازر Hadadezer ملك (صوبا) Zobah وهذا نصب نفسه ملكاً على دمشق وحكم جميع سوريا واصبح خصما لاسرائيل . في جميع ايام سليمان . وبعد ريزون اغتصب العرش هيزيون Heion الذي خلفه ابنه تابريمون Tabrimon وهذا تحالف مع (آسا) مل يهوذا .

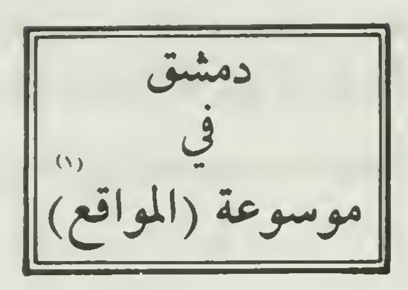
وقد ظلت الملكية تنتقل بشكل مباشر في هذه الأسرة ، وصل التاج الى بنحدد Benhadad الذي تحالف مع باشا Basha ملك اسرائيل ، فرشاه (أسا) ملك يهوذا ليهجر ويترك حليفه ويلتحق به في الهجوم على (باشا) الذي الحقت به القوى المتحالفة اضرارا عظيمة (١ ملوك ١٥ الآية ١٩ ، ٢٠) وفي زمن بينهدد ابن الملك السابق اصبحت دمشق عاصمة امبراطورية واسعة مترامية الأطراف وقوية . فهي تُظهر (١ ملوك ٢٠ الآية ١) ان حوالي ٣٢ ملكا (لا شك انهم عبارة عن امراء صغار او باشوات وحكام بعض الأقاليم) هؤلاء قد رافقوه في حملة قام بها ضد السامرة ، وقد اثارت طلبات ملك دمشق الشديدة الوطأة حفيظة (آهاب) Ahab الذي كان قد قرر ايضا الخضوع لتلك القوة العظيمة التي رآها ضده ، فكان لا بد من حدوث معركة هُزم بها السوريون ولم يستطع الملك الانسحاب الا بصعوبة وقد ذكرنا سابقا العمليات التالية التي قام بها بنحدد (بينهدد) واما حزائيل Hazael وهو خليفة بنهدد فلم يقطع الأمل بأن يصبح سيد راموث جلعاد Ramose Gilead ولذلك هاجمته القوى المتحدة المؤلفة من يهوذا واسرائيل التي هزمها هذا الملك وجُرح جورام Joram (٢ ملوك ٨ الاية ٢٨) وفيما بعد حاصر وخرَّب جزءا كبيرا من اراضي فلسطين

وداس اراضي جلعاد بأدوات الدراسة من الحديد (عاموس ١ الآية ٣) وقد صمم حزائيل على الانتقام (٢ ملوك ١٢ الآية ١٧) فزحف الى القدس وقد رشاه يهوآش Jehoash بتضحية قيمة ثمينة ، وبعد ذلك استولى على مملكة يهوذا (٢ ملوك ٨ الآية ٣) ومع انه عامل الشعب بقسوة وظلم استطاع ان يبقيهم تحت سلطته وسلمهم الى ابنه بنحدد الثالث الذي هُزم ثلاث مرات (٢ ملوك ١٨ الآية ٢٤) على يد ملك يهوذا يهوآش Jehoash وهكذا ذهبت كل فتوحاته ادراج الرياح . وقد تابع جيروبوم الثاني (٢ ملوك ١٥ اية ٢٨) تلك الانتصارات وفتح دمشق نفسها وبالتالي حدث اتصال بين دمشق والقدس (٢ ملوك ١٥ الآية ٣٧) عندما دخل ملك يهوذا ريزن Rezon باتحاد مع ملك دمشق بيكاح Pekah واتفقا على مهاجمة أهاز Ahaz ملك يهوذا وهكذا نجحا في ارجاع ايلات Elath الى سوريا ولكنهم لم يستطيعا ان يسودا على القدس وهكذا استنجد (اهاز) ملك يهوذا بتغلات بيلاسر Tiglath Pilasar ملك اشور الذي قدم له هذا رشوة فهجم على دمشق وفتحها وحمل أهلها أسرى الى (كير) Kir على نهر كور Kur وذبح ريزن Rezin ووحد الأراضي الدمشقية مع الأراضي الأشورية اي مع مملكته (٢ملوك ١٦ الآية٩) (اشعياء ٨ الآية ٤ ، ١٠ الآية ٩م١٨ الآية ١) وبعدها سقطت دمشق تحت سلطة البابليين ثم الفرس ومن ثم استولى عليها الاسكندر الكبير كنتيجة لانتصاره في معركة اسوس ثم اصبحت جزءا من مملكة السولوقيين وبعدها سقطت في ايدي الرومان . وفي زمن بولس الرسول كانت دمشق تحت حكم دويلة عربية يحكمها الأمير (الحارث الثالث) وبعدها اصبحت احدى المدن العشرة وبعدها اضيفت الى اقليم فينيقية وبعدها اصبحت جزءا من اقليم فينيقية ولبنان Libanesia ومنذ زمن هدريانوس اتخذت دمشق اسم العاصمة دون ان يتمتع بحقوق العاصمة وتحت حكم الأباطرة اليونان في القسطنطينية اصبحت دمشق اكثر مدن الشرق صيتا وسمعة واشتهرت بثروتها ورفاهيتها وروعتها وعدد سكانها المسيحيين المتزايدين وقد دام حكم المسلمين لها مدة طويلة فقد بدأ حرب العرب المسلمين حوالي ٦٣٣ م التي قام بها ابو بكر خليفة محمد رسول الله وانتهت الحرب بسقوط دمشق بأيدي العرب المسلمين وحل الدين الاسلامي محل الدين المسيحي وبعدها اصبحت عاصمة العالم الاسلامي برمته الى

اعتنقت المسيحية في وقت مبكر ولكنها أخذت من قبل العرب عام ٦٣٥ وأصبحت مسلمة .

سقطت بيد المغول عام ١٢٦٠ وتمورلنك عام ١٣٩٩ والأتراك العثمانيين عام ١٥١٦ وفي عام ١٩٢٤ أصبحت عاصمة سوريا المنتدبة من قبل فرنسا وفي عام ١٩٤٦ عاصمة الجمهورية .





دمشق
في
موسوعة (المواقع)[1]

Places

دمشق (الشام) سوريا : عاصمة الجمهورية في نهاية سفوح جبال لبنان الشرقية على ارتفاع ٦٦٠ م عدد سكانها عام (١٩٧٠) ٨٣٦,٦٦٨ نسمة تشتهر كأقدم مدينة في العالم مأهولة باستمرار.شهرتها الكبيرة تأتي لحريرها وجلودها ، وصياغة الذهب والفضة البالغ الدقة ، وللنحاس والأدوات النحاسية ، مياه بردى التي تروي حدائق غناء وبساتين المشمش والتين واللوز . . . الخ . . . الجامعة (١٩٢٤) بعض الأبنية تبقى شاهدة على تاريخها الطويل الممتد منذ القرن الثالث عشر القلعة والجامع الكبير (أصيب على نحو خطير في حريق عام ١٨٩٣ وجدد) مهما يكن مآذنها البيض ترتفع وسط الأشجار الخضراء مع امتداد الصحراء المجاورة على البعد منظر لا ينسى .

المغطى (شارع يدعى المستقيم) مع أسواقه الشرقية يقطع المدينة من الغرب الى الشرق مع بوابة من كل نهاية ما زال مركزاً عظيماً للتجارة ، الشاحنات الكبيرة الآن أخذت مكان قوافل الجمال على نطاق واسع أول إشارة للمدينة في العهد القديم في سفر التكوين فتحت من قبل الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد ومن قبل الاسكندر الكبير عام ٣٣٢ ق . م ومن قبل الرومان عام ٦٤ ق . م .

---

(١) ترجمة عن الانكليزية . عن كتاب موسوعة المواقع صدر عن مؤسسة بنكون عام ١٩٧٨ .
he «enguin Encyclopedia of Places

الاقتصاد :

الحياة الصناعية ترتكز على الصناعات اليدوية مثل العمل الزخرفي المجوهرات - المنسوجات وخاصة البروكار (القماش المقصب) وفي الصناعات الحديثة مثل معمل الأسمنت . مصانع الأغذية ، معامل المفروشات ، والصناعات الزجاجية .

سابقاً المنتجات الشهيرة ذات الطابع الدمشقي قد أهملت بسبب المنافسة الغربية ، مهما يكن الأسواق الشرقية حافظت على طابعها التقليدي أكثر منه في مدن الشرق الأوسط العديدة الأخرى .

ومع هبوط تجارة القوافل الأهمية النسبية لتجارة دمشق هبطت ولكن المدينة بقيت رابطة للطرق وموقع المطار دولي وهي ترعى أكبر معرض دولي سنوي تجاري وصناعي .

الأماكن السياحية :

دمشق تظهر آثار أبنية الماضي في كل مكان بجوامعها ومدارسها (مدارس القرون الوسطى للعلوم الإسلامية) وحماماتها ، نافوراتها ، أبوابها الأثرية وحصونها .

من بين الأماكن الأكثر أهمية هو الجامع الأموي أو الكبير رابع جامع مقدس في الإسلام والذي بني في عام ٧٠٥ على أنقاض كنيسة قديمة ومباني وثنية .

القلعة في الأصل رومانية وترقى الى القرن الثالث عشر ، قبر صلاح الدين وابن العربي المتصوف الشهير والتكية (بناء العبادة) بنيت من قبل السلطان سليمان في القرن السادس عشر هذا البناء بقاعات المصلين محاطة بالمآذن العثمانية الرشيقة تقابل بحرة عاكسة تفضي الى منتزه وقاعات المتعبد كل قاعة بقبة منفصلة جدير بالملاحظة الطريقة التي استغل بها العناصر الطبيعية من برودة وهدوء ومناظر جميلة مع طبيعة قاسية وجافة .

هناك متحف حديث جذاب هام يحتوي على تنظيمات جديدة آخذة من معبد (دورا أربوس) القديم وقبة السرور الصحراوية لأمير أموي .[1]

---

(١) يقصد قصر الحير .

في القسم المسيحي شبه أسطورة تتوافق مع تحول القديس بولس في منطقة الشارع الذي يدعى المستقيم (أعمال ٩ : ١١) يعدواحداً من الشوارع الممتدة الرئيسية في الأسواق الشرقية مؤسسات المدينة التعليمية بالإضافة الى المجمع العربي جامعة دمشق وعدداً من المدارس الابتدائية والثانوية ، يوجد في المجموع ٢٥٠ جامع .

ماضي المدينة المجيد ودورها كملتقى للحجاج الى مكة يكسو المدينة هالة من القدسية .

تاريخها :

دمشق : دمشق أصلها قديم جداً وتدعو نفسها أقدم مدينة في العالم ، أول ظهور لها للضوء كعاصمة للملكة الآرامية والتي سقطت على يد الآشوريين سنة ٧٣٢ ق . م ولم يكن لها أهمية خاصة تحت حكم اليونانيين ولكن بعد أن استولى عليها الرومان في عام ٦٤ ق . م ازدهرت دمشق واعتنقت المسيحية مبكراً ، احتفظت بدرجة من الأهمية كبيرة الشأن تحت حكم البيزنطيين لكنها انتقلت من الحكم المسيحي الى الفتح العربي الإسلامي الذين استولوا على المدينة في عام ٦٣٦ عقب حملة عسكرية رائعة وقد أدى التغيير في مركز الدولة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية الى سوريا لمدة عشر سنوات دفعت دمشق الى نقطة الأوج في مجدها .

فمعاوية الذي كان مؤسسا للأسرة الأموية الرائعة ٦٦١ ـ ٧٥٠ اتخذ دمشق عاصمة له وهكذا سريعاً أصبحت عاصمة العالم الإسلامي وتحكم مقاطعة امتدت في مرحلة قصيرة الأمد من افريقيا الشمالية الى الهند .

وبعد الأمويين تضاءل مركز المدينة الى مقاطعة.أو عاصمة أسرة حاكمة بعد عام ٧٥٠ م ولكن نهضت من جديد وعظم شأنها كمركز لمجابهة الصليبيين ، بعد ذلك على الرغم من شدة الغزو المنغولي لدمشق إلا أنها بقيت المدينة الرئيسية في سوريا .

واحتلت من قبل العثمانيين في عام ١٥١٨ حتى استقلالها من قبل القوى العربية المدعمة بقوى انكليزية في عام ١٩١٨ لوقت قصير في عام ١٩٢٠ حيث

أصبحت عاصمة المملكة السورية المستقلة ولكن المملكة قضي عليها من قبل فرنسا وقد بقيت دمشق عاصمة سوريا تحت الانتداب الفرنسي وكانت المركز الرئيسي للحركات العربية القومية وبعد الاستقلال النهائي الذي اكتسب في عام ١٩٤٦ . عدد السكان في إحصاء ١٩٦٦ (٦٠٠ ألف نسمة) [١] .

الفولاذ الدمشقي :

هو تعبير يستعمل لوصف المعدن الذي يصنع منه السيوف والمواد الأخرى من قبل الحرفيين من مدينة دمشق في سوريا ، هؤلاء العمال خصوصاً خلال العصور الوسطى اشتهروا بقدرتهم أن يصنعوا ويسقوا الفولاذ. . الى سيوف لينة مرهفة . . الذي وصف في وقت مبكر من سنة ٤٠٠ ق . م من قبل (آرستوتاليس) صنع من الحديد المطاوع الحديد الذي كان يصنع في فرن فحمي . . بواسطة إحماء معدن أكسيد الحديد الأسود الخام بشكل متواصل مع الفحم ، العناصر اللا معدنية الممزوجة تزال من المعدن الخام بتكرار أعمال الإحماء والعناصر المعدنية المتخلفة تصنع بشكل قوالب متماسكة .

لا تستعمل أية مادة مساعدة لصهر المعادن في هذه العمليات . الإنتاج النهائي . . يصنع بإزالة الفحم الزائد من المعدن بإعادة تسخين القوالب لدرجة حرارة أدنى من نقطة الانصهار . يلين ويحدد بعناية ويعامل المعدن بالحرارة بواسطة صناع الأسلحة الدمشقيين الذين قدموا السيف الفولاذي الشديد البراعة بشكل أن السيف يمكن أن ينحني من المقبض حتى القمة دون أن ينكسر أو يشوه السيف ، السيف يمكن أيضاً أن يشحذ الى حافة حادة جداً . [٢]

جامعة دمشق :

هي جامعة تشرف عليها الدولة في دمشق سوريا أنشأت عام ١٩٢٣ كجامعة سورية تجمع معهد طبي أنشأ في عام ١٩٠٣ في دمشق مع معهد للحقوق أنشأ في

---

(١) د. بايلي وندر . جامعة نيويورك .

(٢) د. فلز.ق.كيللر. جامعة سيراكوز .

بيروت في عام ١٩١٣ وأعيد تأسيسه في دمشق في عام ١٩١٩ ، سميت جامعة دمشق في عام ١٩٥٨ ، تشمل كليات الزراعة طب الأسنان ، التربية، الهندسة ، الفنون الجميلة ، الشريعة الإسلامية ، الحقوق ، الآداب ، الطب ، الصيدلة ، العلوم .

ينضم الى الجامعة معاهد عالية للخدمات الاجتماعية في دمشق التي تؤدي دراسات اجتماعية واقتصادية . المسجلين في الجامعة في إحصاء عام (١٩٦٠) ١٣,٧٩٣ طالب تضاعفوا الى حوالي ٢٨,٠٠٠ بعد عام ١٩٦٠

جامعة حلب أنشأت في عام ١٩٦٠ أصلها في عام ١٩٤٦ ككلية للهندسة من جامعة دمشق وهي الآن تضم كليات الزراعة ـ التجارة ـ الهندسة ـ الحقوق ـ اللغات ـ الطب ـ

الخزف الدمشقي :

يصنع الفخار في سوريا منذ القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر ، وكان يستورد الى أوربا من دمشق أيضاً ، معظمه كان على الأغلب ينتج في الرقة .

الفخار عموماً يزخرف بطلاء غني زجاجي أزرق وأسود فوق أرضية بيضاء ، بعض الأحيان يلون الزجاج بلون بني ضارب الى الأرجواني علاوة على ذلك كان الخزف شائعاً في سوريا ومصر وكثيراً ما كان يدعى الخزف السوري المصري وأيضاً كان يدعى خزف تركي منذ أصبحت سوريا ومصر جزءاً من الامبراطورية العثمانية .

البروكار : الدامسكو

هو قماش منقوش على الوجهين وكان شائعاً في دمشق في العصور الوسطى ، كان البروكار أصلاً يصنع من الحرير بتصميمات محبوكة متقنة وكان يستعمل في أوربا للألبسة وطبقة النبلاء وللسجاد الذي يعلق على الجدار للزينة في بيوتهم . البروكار الآن يصنع من ألياف متنوعة بما فيها الكتان والقطن والحرير السيلولوزي والأستيلات (الخلات) والنايلون والصوف بالإضافة الى الحرير وهو عادة يستعمل كغطاء للطاولات وللتنجيد وللملابس .

بنيته :

البروكار هو نسيج مسطح وهو عموماً ينسج على نول جاكار (الجاكار قماش مطبع بألوان مختلفة) بعض الأحيان النموذج يبدو نافراً ويمكن التحقيق من ذلك بسهولة بضغط الأصابع فوق النسيج .

النماذج تنتج بتحويل الساتان (الأطلس) المنسوج بحيث يصبح السطح المصقول الناعم .

ينسج الساتان بشكل متنوع بحيث أن المساحات المرسومة في جهة واحدة من النسيج يحبك بالخيوط المشكلة الناعمة والأرضية تحبك بواسطة خيوط الحشوة الناعمة .

في الجانب الآخر للنسيج (الرسم) يحبك بواسطة خيوط الحشوة الناعمة والأرضية تحبك بواسطة الخيوط المشكلة الناعمة .

البروكار أيضاً يصنع بنسج القطن المتين مع الحرير العنابي .

الألوان :

عندما يستعمل الخيط نفسه المشكل والحشوة يظهر كلية بطريقة مرضية وملائمة حسب اختلاف انعكاس الضوء على بنية الأنسجة .

لصنع النموذج أكثر بروزاً تصبغ الخيوط المشكلة بلون واحد تستعمل خيوط الحشوة بلونين . إذا تغيرت الألوان على نحو موافق للرسم يصبح النسيج :البروكار الذي يحتوي على خيوط ممتازة .

غطاء الطاولات البروكار :

أجود نوعية لبروكار الطاولات يصنع من الكتان.بروكار الطاولات العادية الأخرى يصنع من الخيوط المشكلة القطنية (الغير مزخرف أو المصقول) وحرير سيلولوزي أو حشوة الأستيلات ، بروكار الطاولة غالباً يقصر (يبيض) لإبراز اللون الأبيض ناصع البياض.عادة يصنعون بروكار مفرد باستعمال ثمانية أنواع .

ذات الخمس أنواع بروكار أخف في الوزن وأخف لمعاناً من البروكار المصنوع من الثمانية أنواع .

البروكار المزدوج يأخذ كمية من الخيطان لكل بوصة أكثر من البروكار المفرد .



دمشق
في
دائرة المعارف البريطانية ـ بريتانيكا

(تعرف رسمياً بدمشق ، وباللغة اليومية الشام) هي عاصمة سورية وإحدى أكبر مدينتين فيها ، أما الأخرى فهي حلب . تقع دمشق عند قاعدة جبل قاسيون بين بساتين واحة الغوطة . وقيل عنها (لؤلؤة الشرق) و (ذات العماد) أو (بوابة مكة) وهي على الأرجح أقدم مدينة في العالم .

ـ **تاريخها** : إن منشأ دمشق التاريخي غير معروف ، ولكن الحفريات التي أجريت في بلاط جامع أمية كشفت عن فخاريات تعود الى الألف الثالث قبل الميلاد . ويوجد مصدر تاريخي لها في كتابات أوراق هيروغليفية (مصر القديمة) في تل العمارنة في مصر ، حيث صنفت دمشق كإحدى المدن التي سيطر عليها تميتموس الثالث خلال القرن ١٥ قبل الميلاد والذي أخضع جميع بلاد سورية بعد انهزام ملوكها الآراميين الذين أقاموا عدداً من الممالك في سورية كانت دمشق أشهرها وأقواها . وكان قد حكمها عدد من الفاتحين . وحكمها الآشوريون تحت قيادة تغلات بلاتس الثالث في عام ٧٣٢ ق . م وكذلك الكلدانيون بقيادة نبوختنصر الثاني حول ٦٠٤ ق . م كما سيطر على دمشق أيضاً الفرس حول ٥٣٠ ق . م بقيادة قمبيز واستمر ملوك دمشق يحكمونها تحت حماية الامبراطورية الفارسية حتى عام ٣٣٣ ق . م ، عندما فتحها الاسكندر المقدوني

وسجل عام ٣٣٣ ق . م بداية العصر الأغريقي حيث أصبحت دمشق تحت حكم السلوقيين والرومان والبيزنطيين على التوالي . وفي عام ٩٠ ق . م قدم عدد

(١) ترجمه عن الانكليزية . The New Encyclopaedia Britannica in 30 volumes 15th Edition

من الاغريقيين للإقامة في دمشق ، وبذلك كانت بداية اتصال ثقافي بين الحضارتين الآرامية والإغريقية .

واستوعب السكان المحليون لغة وفنون وعقائد المجموعة الإغريقية . وظهرت أخيراً مدينة إغريقية قريبة الى دمشق الآرامية التي ما تزال شواهد باقية منها في شكل شارع مسقوف شرق الجامع الأموي ، وفي شكل ساحة كانت تستخدم كمركز للمدينة . وبدأ النفوذ الإغريقي بالتضاؤ ل في عام ٥٨٥ ق . م . عندما احتل المدينة النبطيون تحت قيادة الحارث الثالث وأنشأوا لأنفسهم حياً خاصاً بهم الى الشرق من القسم الإغريقي . ولكن عاد النفوذ الغربي مرة أخرى الى دمشق في ٦٤ ق . م . عندما استولى عليها الرومان الذين أعلنوا سورية مقاطعة رومانية . ولكن أتيحت الفرصة مرة أخرى للنبطيين ليعيدوا احتلال المدينة في ٣٧ بعد الميلاد وبقوا فيها حتى ٥٤ب . م . وخلال هذه الفترة قدم الى دمشق تيتوس لملاحقة المسيحيين وانقلب بأعجوبة ليصبح القديس بولس . . وهناك كنيسة مرغوب بزيارتها ما تزال في حالة جيدة وتعرف بكنيسة حنانيا .

واستفادت دمشق بشكل ملاحظ من إعطائها صفة (مقاطعة رومانية) . وتحت قيادة الامبراطور ديوقلسيان أصبحت دمشق مركزاً عسكرياً هاماً لجيوش الامبراطورية خلال حروبها مع الفرس . واتخذت وضعها كعاصمة تحت حكم هادريان في القرن الثاني ق . م . ثم كمستعمرة تحت حكم الكسندر سيفيروس (٢٢٢ ـ ٢٣٥ م) . وبحكم تقدم المدينة أصبحت تلعب دوراً فعالاً في الحياة الرومانية . وقد أنشأ مهندسها الدمشقي المشهور أبولودور الدمشقي جسراً حجرياً مشهوراً فوق نهر الدانوب ، وعمود تراجان في روما ، ومباني شعبية عديدة ، وحمامات ، وأقواس نصر ، وازدهرت دمشق كمركز تجاري عند ملتقى طرق القوافل الصحراوية . ووجه الرومان عناية خاصة لتقوية المدينة وذلك بتطويقها (بسور) على شكل مستطيل . ولا يزال بعض بقاياه مصونة . وكان في الزاوية الشمالية الغربية منها قلعة وأصبحت تعرف بقلعة دمشق . وبقيت بعض قنوات جر المياه في المدينة تستخدم حتى عدة سنين من القرن العشرين .

ومع انقسام الامبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع الميلادي ، أصبحت دمشق ثغراً عسكرياً هاماً للامبراطورية البيزنطية ، وتبنى معظم السكان الديانة المسيحية . وتحول معبد جوبيتر الى كاتدرائية مكرسة للقديس جون البابوي (النبي يحيى عليه السلام) الذي يقال إن رأسه موجود في مدفن في الجامع الأموي . وفي عام ٦٣٥ سقطت دمشق في أيدي العرب وأصبحت بين ٦٦١ و ٧٥٠ عاصمة الامبراطورية الإسلامية وفي خلالها بدأت المدينة بالتوسع خارج أسوارها . واشترى الخليفة في ذلك الوقت الكنيسة وحولها الى جامع وأعيدترميمه في القرون ١١ ـ ١٥ ـ ١٩ . وهو يعرف الآن بالجامع الأموي .

وبسقوط الأسرة الحاكمة الأموية في ٧٥٠ م خربت الجيوش المتمردة المدينة ودمرت كل ما يمت الى الحكم الأموي من أبنية وقصور وحصون ومقابر . . . ونقلت السلالة العباسية عرش الامبراطورية العربية من دمشق الى بغداد وعندما انحلت الخلافة العباسية وظهر الحكام المحليون ، كانت دمشق تنتقل غالباً بين مالك وآخر ، وبعد مائتي عام تقريباً وفي منتصف القرن التاسع سيطر عليها حكام مصر و حسب رأي مؤ رخ القرن الثاني عشر عبد الرحمن بن الجوزية نقص عدد سكان دمشق الى ٥٠٠٠ نسمة في عام ١٠٧٥ ولم يبق فيها غير مخبزين من أصل مائتي وأربعين مخبزاً ، وكانت الأسواق فارغة ، ووصل الوضع من السوء أن البيت الذي كان يكلف ٣٠٠٠ دينار لم يكن ليجد مشترياً يرضى أن يدفع ١٠ دنانير ثمناً به .

وفي عام ١٠٧٦ ، احتل الأتراك السلجوقيين دمشق التي أصبحت عاصمة مقاطعة تمتد شرقاً الى الفرات وغرباً حتى طبريا وحتى حمص شمالاً . وخلال الحملة الصليبية الثانية حوصرت دمشق بنجاح من قبل ملك ألمانيا كونراد الثالث في عام ١١٤٨ ولويس الثالث ملك فرنسا . وأخيراً استولى عليها القائد المصري نور الدين الذي دخلها في عام ١١٥٤ ووحد سورية ومصر في ١١٦٨ م . وأصبح تخطيطمدينة دمشق في فوضى في تلك الفترة حيث كان يملك المسلمون الجزء الغربي من المدينة وحول القلعة والجامع الأموي بينما يكثر المسيحيون في الجزء الشمالي الشرقي ، واليهود في الأجزاء الجنوبية الشرقية فيها . ولكن استعادت دمشق وضعها كعاصمة تحت ظل حكم نور الدين . وعمد خليفته الى إعادة توحيد سورية ومصر مرة

أخرى [1] . وهناك شواهد باقية في دمشق تعود في تاريخها الى تلك الفترة من بينها باب الفرج في الجزء الشمالي من سور المدينة ، وحي الصالحية عند أقدام جبل قاسيون (١١٦١م). وبعد احتلال قصير الأمد من قبل المغول، انضمت دمشق الى الدولة المملوكية التي سيطرت على سورية ومصر في عام ١٢٦٠ م . وشهدت هذه الفترة مقداراً كبيراً من التقدم في العلوم والفنون والصناعات . ونالت البضائع الدمشقية شهرة عالمية وجذبت التجار من فيينا وجنوا . واعتبر السلاطين دمشق عاصمتهم الثانية ، واتخذوا لهم فيها قصوراً يقيمون فيها مؤسمياً . وامتد عمل المدينة إدارياً الى الفرات في الشرق والبحر المتوسط في الغرب وحتى نهر الرستن في الشمال . وانقطع العهد المملوكي بفترة فاجعة عندما هدم المغول بقيادة تيمورلنك دمشق ورحّلوا جميع علمائه وحرفييها الى عاصمتهم سمرقند . ولكن المماليك عادوا إليها في السنة التالية وشرعوا في إعادة بنائها .

وفي ١٥١٦ استولى السلطان العثماني سليم الأول على دمشق التي بقيت عاصمة الإقليم التركي لمدة ٤٠٠ سنة . وبعيد عن الدين ، كان هناك شيء مشترك يجمع بين العرب وحكامها العثمانيين ، حيث قلصت وضعية دمشق الى إمارة باشاوية صغيرة ضمن الامبراطورية الكبيرة التي تديرها سلطة مركزية قوية . وتعاقب حكام المدينة الواحد بعد الآخر الى درجة أن وصل عددهم الى ١٣٣ حاكماً بين عام ١٥١٧ ـ ١٦٩٧ . وعانت الحياة الاقتصادية من ابتزازهم كما تقلصت التجارة كثيراً باكتشاف طريق تجاري بديل بين أوروبا والشرق في نهاية القرن ١٥ ، ومع ذلك بقيت دمشق تتاجر مع غرب سورية والبلدان المجاورة مثل العراق والأناضول وبلاد الفرس والحجاز . وجلب الوكلاء التجاريون الفرنسيون والفينسيون الحرير ، والأصواف ، والسكر ، والذهب ليقايضوها مع المواد الخام والتوابل . وأصبحت دمشق نقطة ارتحال قوافل الحجاج الى مكة تحت حماية ورعاية الحاكم . وظهر حي جديد على طريق جنوب دمشق دعي بالسنانية بعد قدوم الحاكم التركي سنان باشا .

---

(١) يقصد صلاح الدين الايوبي .

وكان أهم حدث في القرن ١٩ هو قدوم محمد علي باشا الى السلطة في مصر واندماج سورية في امبراطورية . وخلال العهد المصري (١٨٣٠ - ١٨٤٠) أصبحت دمشق عاصمة سورية مرة أخرى، وزاد عدد سكانها الى ١٥٠,٠٠٠ بعد عام ١٨٧٨ كما زاد عدد الأوربيين - من قناصل وتجار وسواح . وفتحت مغامرات القوى العظمى الاستعمارية في الشرق الأوسط الباب للتأثيرات الثقافية والاقتصادية .

وفي عام ١٨٧٨ عين الحاكم التركي المتنور مدحت باشا على دمشق ، فطور الشروط الصحية في المدينة ونظام السفر ، وشق طرقاً جديدة في المدينة القديمة ووسع بعض الأزقة المظلمة مثل ربط سوق الحميدية مع الجامع الأموي الكبير ، وارتفعت أبنية الحكومة الجديدة في غرب المدينة حول المرجة التي أصبحت مركز المدينة . وفي ١٨٩٤ اتصلت دمشق وبيروت وحوران بخط حديدي ثم وصل الى المدينة ١٩٠٨ في الحجاز .

وأضيف حيان جديدان الى دمشق بسبب قدوم الحجاج المسلمين من كريت وأصبحوا يقيمون على منحدرات جبل قاسيون فيما أصبح يدعى بحي المهاجرين بينما وجد الأكراد عند قدومهم من الشمال مكاناً الى الشرق من حي المهاجرين دعي بحي الأكراد . وأقيمت أبنية قرب باب توما للقناصل والتجار والمبشرين الأوربيين .
في الحرب العالمية الأولى كانت دمشق المركز القيادي للقوات الألمانية والتركية ودخل الجيش العربي دمشق في تشرين الأول ١٩١٨ وتلاه الحلفاء . وأقيمت أول حكومة سورية في ١٩١٩ تكون دمشق عاصمة لها . ولكن الفرنسيين ، وقد حصلوا على حق الانتداب من عصبة الأمم ، قاموا باحتلال المدينة في تموز ١٩٢٠ . ولاقى الوجود الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٥) مقاومة شديدة في شكل إضرابات وأعمال شغب وثورات حدثت أخطرها في آب ١٩٢٥ ولم تخمد قبل قصف الفرنسيين المدينة بالقنابل مرتين .

كانت فترة الانتداب الفرنسي أحد عوامل التطور المدني الكبير وغالباً على حساب البساتين على الضفة اليسرى من نهر بردى ، فأوت الأحياء الجديدة : الجسر

(الأبيض) والعرنوس الشهداء عناصر متعددة من السكان دون تمييز ظاهري ، كما ظهر حي القصاع في شمال شرقي المدينة قريباً الى حي باب توما والسور الشرق للمدينة ، وأنشئت شوارع عريضة ومشجرة بنظام ، وزودت المدينة بمورد مائي عصري .

وخلال الحرب العالمية الثانية دخلت جيوش الحلفاء المدينة في حزيران ١٩٤١ طاردة الفرنسيين الفاشستيين المناصرون للألمان ، وبعد ٤ سنوات من التوتر حول قضية الاستقلال ، جلت قوات الفرنسيين والبريطانيين في نيسان ١٩٤٦ ، وأصبحت سورية بلداً مستقلاً ودمشق عاصمة لها .

المدينة ومحيطها : ـ كان موقع دمشق الأول عبارة عن مصطبة فوق الضفة اليمنى من نهر بردى في نقطة حيث يبرز من واديه قبل أن يضيع في الصحراء . والمصطبة ، وهي تحتوي على حصى كثيرة ، فيها رابية على علو ٢٢٥٠ قدم فوق سطح البحر ، إن نمو المدينة دفعها للتوسع فوق منحدرات جبل قاسيون الى الشمال الغربي من المصطبة الأصلية الى ارتفاع ٣٠٠٠ قدم. وكان التوسع الرئيسي بعد ذلك الى جهة الشمال الشرقي والجنوب حيث تضاريس الأرض أسهل والارتفاع لا يتعدى ٢٣٠٠ قدم .

تنفتح دمشق في كل الاتجاهات عدا الغرب حيث يقف جبل قاسيون كسد يمتد السهل الغريني الخصب أمامه حتى ١٢ ميل شرقاً ويزود المدينة بالخضار والفاكهة والأخشاب والحبوب . لكنها تتلقى جميع متطلباتها الرئيسية من مادة الحبوب من سهول حوران في الجنوب .

ـ وتغطي دمشق الكبيرة منطقة تقارب ٣٩ ميل مربع (١٠٠ كم٢) وتشمل جبل قاسيون وجبل المزة ونواحي مزة ودمر وبرزه والقابون وجوبر والقدم وكفر سوسة . وتقارب خمسة أضعاف المدينة الأصلية التي تصل الى ٩ أميال مربعة . وقد أرسلت المدينة مجساتها في كل الاتجاهات عدا الغرب وأهم هذه الاستطالات ممتدة مع انحدارات جبل قاسيون الى قرى برزة في الشمال الشرقي والمزة في الجنوب الغربي ، وتمتد الاستطالة الثانية الى الشمال الشرقي الى جوبر والقابون . أما الاستطالة الثالثة

وهي أقدمها فقد سبق وابتلعت قربة القدم . وتعتبر المزة والقابون وبرزة مناطق ضواحي لأنها لا تزال منفصلة عن دمشق بمناطق خضراء تحرص الحكومة المحلية على حمايتها .

المناخ : - رغم كون دمشق لا تبعد أكثر من ٥٠ ميل عن البحر ، لكنها منفصلة بسلاسل جبال لبنانية وغير لبنانية عنه، وتقطعها رياح محملة بالرطوبة فتجعل المناخ شبه صحراوي حيث يكون متوسط السقوط السنوي هو ٦,٨٩ إنش مقارنة مع متوسط السقوط في بيروت ٣٣,١٥ إنش في الجانب الآخر من الجبال . ويكون معظم الهطول في أشهر كانون الأول وتشرين الثاني وكانون الثاني وشباط ، أما في الأشهر الجافة فتهب رياح صحراوية من الجنوب والشرق تحمل الرمال معها . كما تكون التغيرات الحرارية مفاجئة ذات أشكال نزوية . فبينما يكون معدل الحرارة في كانون الثاني غالباً F ٤٥ (٧°) مئوية تهبط في بعض المواسم الى F ١٨ (-٨°) أو ترتفع الى F٧٢ (٢٢°) . وشهر آب أشدها حرارة في دمشق بمتوسط F٨١ (٢٧°) وغالباً ما ترتفع الى F٩٩ (٣٧°) وربما F ١١١ (٤٤ °) . وكذلك فالصيف أطول المواسم ويدوم الربيع عدة أسابيع تمتد بين المنتصف الثاني من آذار والمنتصف الأول من شهر نيسان . بينما قد لا يأتي الخريف حتى شهر تشرين الثاني . وكذلك تتسع الفروق في الهطول . فتصل في بعض السنين الى ١٣ - ١٤ إنش وهي كافية للزراعة الجافة . في حين قد تسقط الى أقل من ٦ إنشات أو حتى إنشين أو أقل كما حدث في سنوات ١٩٣١ - ٣٣ - ٥٩ - ١٩٦٠ .

النبات والحياة الحيوانية : - تحتوي الصحراء المحيطة بالواحة على تشكيلة من الأشجار الشائكة والجافة والأشواك والأعشاب . بالإضافة الى أن الغوطة تحوي على الخضار المتوسطية وشبه المدارية وأشجار مثل التوت والمشمش والزيتون والعنب والتفاح ، الخوخ ، والجوز ، الحور ، الصفصاف التي تنمو بكثافة قرب الجداول ، والحدائق ، وتزرع في حواشي الغوطة الحبوب مثل القمح والشعير وينمو العدس في ظل أشجار الزيتون . وتكثر الحدائق في مدينة دمشق أيضاً .

انقرضت الحوانات بسبب الانسان فاختفت الغزلان والذئاب والأرانب وأدى تجفيف المستنقعات الى تقليص أعداد الطيور المهاجرة من البط والدجاج المائي

واللقلق وتربي الأبقار والماعز والخرفان بأعداد متزايدة لتقابل متطلبات المدينة من اللحم والبيض بينما تخفي بسرعة أعداد الحيوانات التي تستعمل للجر مثل الحمار .

تخطيط المدينة : ـ وضع تخطيط عصري للمدينة في سنة ١٩٢٩ من قبل خبير فرنسي ـ لينهض بأعباء نموها المنتظم . وأنشئت عدة شوارع عريضة بشكل متتالي وملفت للانتباه في الحي السكني العصري أبو الرمانة الذي نشأ على حساب قرية النيرب القديمة . إن هذا الحي ، الذي يضم عدة سفارات ، استمر بالامتداد الى الغرب والشمال مهدداً بابتلاع كل البساتين في كل الأجزاء الشمالية والغربية والمدينة ، وبرزت أحياء سكنية أخرى أيضاً الى الشمال من شارع بغداد ممتدة باتجاه حي الأكراد على منحدرات جبل قاسيون . وتطلب النمو المتسارع للمدينة منذ الحرب العالمية الثانية تعديلات في التخطيط الذي قدمه سنة ١٩٦٤ بمجموعة مخططين يابانيين .

إن معظم الشوارع في دمشق مستقيمة وتتقاطع في زوايا صحيحة لكن بعضها منحرف . وكانت تجري عمليات تعريضها في المدينة القديمة لتحسين تهويتها وفتحها للنقل العصري . في حين بقيت مظاهرها الشهيرة . كان البيت النموذجي في المدينة القديمة ينفتح على ساحة محفوفة بالأشجار وتتوسطها نافورة مياه ، وتطوق دمشق مناطق سكنية وتجارية وصناعية وتتوضع هذه الأخيرة الى الشرق من المدينة . وتنتشر وزارات ودوائر الحكومة في مواقع مختلفة غرب المدينة القديمة وتتركز معظمها في ساحة المرجة حيث البنوك والمحال الأنيقة .

أنشئت خطوط المرور في شوارع دمشق في عام ١٩٠٦ وتوقفت بين ١٩٦٣ و ١٩٧٠ هذا النشاط . وزودت خطوط النقل الداخلي بالباصات وسيارات الأجرة . وأدخلت أضواء المرور منذ ١٩٦٦ . وبلغ العدد الكلي للسيارات في ١٩٧٠ حوالي ٢٠,٠٠٠ وتتضمن الدراجات النارية . ولدمشق مطار دولي يبعد ١٩ ميل شرق المدينة .

السكان : ـ بلغ عدد سكان المدينة في ١٩٧٠ أكثر من مليون مقارنة الى ١٣٠,٠٠٠ في ١٩٢٢ و ٥٢٩,٩٦٣ في عام ١٩٦٠ . ويشمل الرقم الحالي ـ

٥٠,٠٠٠ لاجئين فلسطينيين منذ ١٩٤٨ ، و ٧٥,٠٠٠ نسمة من مرتفعات الجولان منذ حزيران ١٩٦٧ . ويؤلف المسلمون نسبة ٩١,٢ ٪ من مجموع السكان ، والمسيحيون ٨,٤ ٪ واليهود ٠,٠٤ ٪ وقدرت الزيادة الطبيعية بـ ٠٢٨,٠ . وهي نسبة عالية ونسبة الوفيات ٠,٠١٢ . ويؤلف أولئك الذين تحت سن ١٥ سنة من العمر ٤٢,٨ ٪ من السكان . وفي سن الخمسين وما فوق ١١,٢ ٪ . وهناك ٣١٣ عائلة لديها ١٠ أطفال أو أكثر وبعضها لديها ١٧ أو أكثر طفلاً .

لم تعد بنى البيوت الدمشقية التقليدية التي تحوي ساحات ونوافير مياه . ولم تدخل مادة الأسمنت في تركيب مواد البناء حتى سنة ١٩١٨ ، ولكنها أتت بنهضة عمرانية غيرت وجه المدينة تماماً . وأصبحت التصميات الأوروبية هي القانون وعادة في نماذج متوسطية إيطالية وفرنسية تكون طوابقها العليا غير مسكونة في حرارة الصيف على الأغلب .

الحياة الاقتصادية والثقافية : ـ دمشق مركز إداري للحكومة والصناعات الخفيفة ، وكانت فيما مضى مشهورة بمنسوجاتها الحريرية الجميلة ، وأنسجتها المزركشة والسيوف الفولاذية أيضاً . ولا تزال تحتفظ بمجموعة من الصناعات اليدوية المزدهرة والأعمال الجميلة. ويلاحظ بين منتوجاتها الخفيفة الموزاييك، والحرير المقصب ، والبضائع النحاسية والزجاج المنفوخ وغرف النوم . وتشمل الصناعات العصرية الأثاث والألبسة والأحذية والمنسوجات الصوفية وتلاه معمل الأسمنت في ١٩٣٠ ومصنع لحفظ الأطعمة في عام ١٩٣٥ . وبدأت صناعة المنسوجات القطنية في عام ١٩٤٦ ، على الرغم من استعمال المصانع للغزل المستورد الذي يعود الى عام ١٩٣٧ . وفي دمشق اليوم نحو ٨٠ منشأة نسيجية فيها أكثر من ١٨٠٠ نول عصري . وتم إنشاء أول مصنع زجاجي في ١٩٤٥ . ومعظم الصناعات الكبرى مؤممة اليوم .

تلعب دمشق دوراً هاماً في تجارة المرور بين البلدان العربية بيروت وعمان وبغداد وكويت وأقطار الجزيرة العربية . كما تلعب دور الموزع للبضائع المستوردة

الى أجزاء مختلفة في جنوب سورية ومركزها . وكافة تجارة البيع هي الآن من احتكار الدولة بشكل كبير . ويعقد معرض تجاري دولي عند النهر كل خريف يزوره ما يقارب ١,٥ مليون نسمة . وفي دمشق عدد زائد من محال التجزئة والتجار ويمكن عزوه الى الفائض من القوة البشرية بسبب الهجرة الكثيفة من الريف الى المدينة وكذلك الى انعدام الاستخدام المنتظم في الحقول الأخرى .

المنافع والخدمات العامة : ـ تجر دمشق من المياه من منشأ نهر بردى في عين الفيجة عبر قنوات تحت الأرض وأول من استهل هذا النظام الحاكم التركي ناظم باشا في ١٩٠٨ وتم إنهاؤه ١٩٣٢ . وكان معدل استهلاك الطاقة الكهربائية في عام ١٩٦٨ / ٢٠٦,١٠٩,٠٠٠/ كيلو واط ساعي يذهب ربعها للصناعة و١/٢ للإنارة .

وتصرف مياه المجاري الى نهر بردى الأسفل من جداول (يزيد وتورا) اللذين يخرجان من نهر بردى .

الصحة العامة : ـ في عام ١٩٦٩ كان في دمشق ١٠ مشافٍ حكومية ومصح واحد مزودة جميعها بـ ٢٦٧٦ سرير و ١٧ مشفى خاص فيها ٤٠٣ سرير تمنح سريراً واحداً لكل ٤٢١ شخص . وهناك ٦١ عيادة خارجية خاصة وحكومية و١٣ مركز أمومة وخدمة اجتماعية . ومركز واحد لفحص السل . وآخر لاستئصال الملاريا . ومدرستان للتمريض والقبالة و ٧٠٠ طبيب . ٤٥ ٪ منهم أطباء رسميون يعملون مع الدولة . وتنتفي عموماً الأمراض السارية في دمشق باستثناء داء السل الذي يهاجم الفقراء .

التعليم : ـ كانت في دمشق ٣٨٥ مدرسة ابتدائية في عام ١٩٦٨ (١٥٠ مدرسة للبنين ـ ١٢٠ للبنات ـ ١١٥ مختلطة و٨٠ مدرسة خاصة و ٥٠ مدرسة تديرها منظمة الأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين . أما عدد المعلمين ٤٠٠٠ معلم . أما التعليم الإعدادي والثانوي فكانت في دمشق ٦٠ مدرسة حكومية و ٥٥ خاصة و ١٨ للأمم المتحدة يخدم فيا ٢,٠٠٠ مدرس . وكان في دمشق ٤ مدارس صناعية تتسع ٣٣٤٥ طالب . ومدرسة واحدة للعلوم الأهلية فيها

٢٦٧ فتاة ومدرستين تجاريتين ومدرسة زراعية . وكانت تضم جامعة دمشق ٣١,٠٠٠ طالب جامعي ، نصفهم في كلية الآداب . وتصل نسبة الأمية بين الأشخاص ما فوق ١٥ سنة من العمر الى ٢٠ ٪ .

الثقافة والنشاطات : ـ تسيطر وزارة الثقافة على معظم النشاط الثقافي في دمشق . وفي سنة ١٩٢١ أنشىء المتحف الوطني ويشرف على كشوف الآثار التي تقوم بها إرساليات أجنبية في علوم الآثار والتنقيب (إيطالية وفرنسية وأمريكية ودانمركية وبولندية) في أجزاء مختلفة من البلاد . وهناك متحف قصر العظم القريب الى الجامع الاموي الكبير ويختص في تاريخ دمشق الشعبي والفنون . وتوج في دمشق الكلية العربية التي أسسها في ١٩١٩ العلامة محمد كرد علي وتضم المكتبة الوطنية الظاهرية التي تحوي ٤٠,٠٠٠ مخطوطة و ١٠٠,٠٠٠ نشرة وكتاب .

وسائل الإعلام : ـ تسيطر على وسائل الإعلام وزارة الإعلام . وهناك صحيفتين وطنيتين يوميتين البعث والثورة تنشر في دمشق وأسبوعيتين للعمال والفلاحين وتعمل بإذاعة دمشق ١٤ ساعة يومياً وتذيع باللغات . . . وهناك إذاعة مرئية ايضاً .

أما السينما فهي أكثر أسباب التسلية بين الدمشقيين الذين تقدم لهم اختيار العروض من البلدان العربية والولايات المتحدة وأوروبا والهند وباكستان وبنيت أول دار عرض في دمشق ١٩٢٥ . وفي عام ١٩٧١ كانت ١٣ دار عرض . وفي دمشق نوادي ليلية والعديد من المراقص ويعقد معرض دولي سنوي في ٢٥ آب حتى ٢٠ أيلول ـ ويعرض فيه تشكيلة ضخمة من الاختراعات والصناعة .

وهناك بعض الحدائق الشعبية والمتنزهات ومعظمها صغيرة الى درجة كبيرة وتكون بساتين الغوطة مفتوحة وحرة أمام الشعب ولكن ليس هناك حديقة حيوانات . وأشهر الرياضات في دمشق كرة القدم والسلة والسباحة . ويتسع الملعب الرئيسي في دمشق لأكثر من ٥٠,٠٠٠ متفرج . وفي دمشق عدد من المسابح الممتازة في الضواحي أما الرياضات الأخرى الملاكمة والمصارعة والتنس فهي ذات شعبية أقل .

دمشـــــق
فــــي
دائرة المعارف العالمية يونفرسال[1]

دمشق هي أهم مدينـة في سورية . وهـي مدينـة بثرائهـا الى مجـرى بردى الخالد ، والى الخبرة العريقة للرجال الذين أتقنوا منذ القدم أساليب ري الأراضي الخصبة وتحويلها الى واحة غنية (الغوطة) وهذه المدينة التي يعود تاريخ بنائهـا الى آلاف السنين فكانت موئل الفنون فترك فيها التاريخ ـ بخاصـة التـاريخ العربـي الإسلامي ـ روائع البناء والفن .

لم يستطع النفوذ الأوروبي التسرب إليها إلا في منتصف القـرن التاسع عشر ومنذئذ نمت المدينة وعرفت عدة تحولات ولكنها حتى الآن تعكس وجه ماضيها الفني أسلوب وهندسة البناء .

حقبة ما قبل الإسلام :

ي القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت دمشق (التي استوطنها البشر قبـل الأربعة آلاف عام على الأقل) قد تعرضت للفتح من قبل تحوتمس الثالث . ـ وفي القرن الحادي عشر صارت عاصمة بلاد آرام واشتهر هيكلها (حدّد) ومنـذ فتحهـا الاسكندر (٣٣٣ ق . م) خضعت دمشق لنفوذ الغرب حتـى جاء المسلمـون عام ٦٣٦ بعد الميلاد وانتقلت الى هيمنة روما عام / ٦٤/ وكرس هيكل جديد لجوبيتر أب الآلهة وسيدها لدى الرومان تحت اسم «جوبيتر الدمشقي حلّ محل حدد ومـا زال

---

(١) دائرة معارف فرنسية والنص مترجم عن الفرنسية .
Universal Encyclopeadia France S.A Editur A Parise 1980

سوره ذو الركائز المتوجة بالأفاريز من النمط المصري يبدو للعيان في جدران الجامع الكبير . كما أن المداخل الفخمة المدهشة ما زالت محفوظة ومنها باب البريد الباب الغربي للجامع الكبير المزين جبهته بأوراق وزخارف نباتية .

تحصر تاريخه وتحدده في القرن الثالث ـ في ظل الامبراطور (تيودور) تم تحويل الهيكل الى كنيسة. بعد هزيمة البيزنطيين قرب اليرموك عام ٦٣٦م كان فتح المسلمين لدمشق حدثاً بعيد الأثر : ـ نهاية ألف عام من الهيمنة الغربية ودخول البلاد في ملك العرب الساميين .

العصر الأموي :

بتولى الخليفة معاوية عام ٦٥٦ ، أصبحت دمشق عاصمة الامبراطورية الأموية التي امتدت من بحر قزوين الى الأطلنطي . وتعود الى الوليد الأول أول مبادرة لبناء واحدة من أعظم روائع الفن والهندسة المعمارية الإسلامية ـ الجامع الأموي الكبير بدمشق ، وقد اختلفت الروايات حول أصل هذا الجامع أما الآن فالأدلة قائمة ومتوفرة مؤكدة أن الصرح لم يكن كنيسة رئيسية تم تحويلها بل هو مشروع بناء قائم بذاته ونشأ ليكون رأساً جامعاً إسلامياً (٧٠٥ ـ ٧١٥) .

جدار السور والأبراج ذات الزوايا الناتئة المربعة ، هي آثار باقية من الهيكل وتحصر داخلها فسحة تحولت من الشمال الى ساحة محاطة من جهاتها الثلاث برواق مستوف مقنطر وعلى طول الجدار الجنوبي بالاتجاه الذي فيه تنتظم صفوف المؤمنين للصلاة صالة كبرى قائمة على ثلاث جسور و ٢٣ جناحاً أوسعها جناح الوسط تعلوه قبة مرتكزة فوق أربع دعائم ضخمة قبل المحراب الذي يعني اتجاه القبلة للصلاة الحيطان الداخلية مكسوة بالفسيفساء المثبت بالزجاج المذهب تحت ترصيعات الرخام . . وهناك عُصابات عريضة كتابية كوفية مزخرفة تزين الحيطان منذ القرن الحادي عشر .

باتساع أقسامه وروعة ديكوره ، وغنى مواد بنائه فإن هذا المعبد الذي ينقل إلينا آثار عدة ترميمات وإصلاحات وتجديدات ، قد أذهل ولا يزال الخيال الانساني

وقدرته المبدعة منذ /١٣/ قرناً وأوحى بالتخطيط لبناء عدة جوامع وبخاصة في حلب وديار بكر وتركية وقرطبة .

الحقبتان الزنكية والأيوبية :

منذ ظهور العباسيين في العراق وحتى الاستيلاء على السلطة من قبل السلاجقة في دمشق فقد كانت حقبة سادت فيها الفوضى وفي زمن الصليبيين لعبت دمشق دوراً كبيراً خصوصاً في عهد نور الدين ثم صلاح الدين حيث برزت كعاصمة للإشعاع السنّي في مواجهة الفرنجة والهرطقات الإسلامية ورمم السور ودعمت الأبواب وبخاصة الباب الصغير وباب الجابية الباقيين حتى أيامنا هذه وقد ضوعفت عدد الجوامع ومدارس نشر المعرفة والعلم الإسلاميين فظهر نمط معماري جديد : المدرسة الوقفية متمثلة في المدرسة النورية والعادلية وهما من روائع فن قطع وصقل الحجارة وبخاصة أبواب المداخل ذات المفاتيح المدلاة . وفي تلك الحقبة بالذات أُنجز أيضاً واحد من أشهر مشافي العصر الوسيط : (مارستان النوري) القائم حول بهو مركزي في كل جهة فيه إيوان مفتوح على البهو دون جدار واجهي وتحت الإيوان الرئيسي كانت تعطى دروس الطب ويتميز المبنى ببابه الكبير وقبته ونخاربه التي تؤكد ارتباطه بهندسة وأسلوب بلاد ما بين النهرين .

وفي ظل حكم الأيوبيين ، ورثه صلاح الدين ، صارت دمشق مركزاً نشطاً جداً منافساً للقاهرة - عام /١٢٠٦/ أخو صلاح الدين الملك العادل - أدخل ترميمات عميقة على القلعة التي بقيت أكثر صيانة بين جميع القلاع والحصون العربية في سورية لتلك الحقبة بحيث أصبحت أبراجها الثلاثة عشرة تشرف على أسطحة المدينة القديمة كلها . . وأجمل المدارس الوقفية الأيوبية كانت الشامية بنتها أخت صلاح الدين (العزيزية) ذات القبة المرتكزة على إطار مثمن الزوايا وتنسب الى صلاح الدين . والمدرستان تحفظان آثار الزجاج القديم المشغل من صفائح ملونة مرصعة (مثل زجاج العهد الأموي) المؤطر بالجبس . وديكور الشامية الجصي جميل جداً وهو دمشقي أصيل .

عهد المماليك :

بعد طرد المغول من سورية بدأت حقبة جديدة عام ١٢٦٠ سلاطنة المماليك استولوا على السلطة في القاهرة واستولوا على دمشق التي خربها تيمورلنك ١٤٠٠ ناقلاً الى سمرقند أحسن الحرفيين فيها وتميزت عمارات تلك الحقبة بالواجهات المتعددة الألوان (Polyerones والأبواب الهائلة والقباب العالية وأول بناء مملوكي كان المدرسة الظاهرية (السلطان بيبرس ١٢٧٧) في القرن الخامس عشر بنيت الواجهات المنقوشة والأبواب الهابطة لمدرستي (الجقمقية ١٤٢١ ـ الصابونية ١٤٦٤) وهما مثال على انحلال وإفساد أصول الهندسة المعمارية وأسلوب البناء الدمشقيين .

العهد العثماني :

طرد الفتح العثماني المماليك عام ١٥١٦ وأعاد الأمن الداخلي فعادت التجارة الى الازدهار وصارت طرق المواصلات آمنة فنشطت القوافل فتجدد بناء ـ الخانات في دمشق وأجملها كان خان أسعد باشا بقبابه التسع وواجهته ذات اللونينPrehrovs /١٧٥٢/ ظهر نمط جديد .

الجامع التركي بقببه نصف الكروية الواسعة باتساع صالة الصلاةالمربعة ذات الباب والمئذنة المخروطية أو المئذنتين الشامخة في الفضاء المتوجة بشكل مخروطي معدني . ونذكر هنا قصر العظم الذي يمثل نمطمسكن الأمراء في القرن الثالث عشر ومعه «السلا ملك» الجناح المخصص للأجانب و «الحر ملك» الجناح الخاص بحجراته المزينة بالترصيعات والزخارف الخشبية والسقوف المطلية .

الفنون التطبيقية

الزجاج :

كانت دمشق على جانب كبير من الشهرة بإنتاج بعض الفنون الخاصة بها . . أدخلت الطلي بالبناء والزخرف والتذهيب على صناعة الزجاج في القرن الثاني عشر

فأعطت هذه الصناعة مداً جديداً وقد قامت أصلاً في صور وانتقلت الى دمشق بعد عام ١٢٩١ . حيث ظلت مزدهرة الى آخر القرن الرابع عشر . وفي عهد المماليك صارت مصر الزبون الأول للمدرسة الدمشقية حيث اشتهرت قناديل المساجد المطلية بالميناء والأبواب والقوارير .

وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر أنتجت الكؤوس والأقداح والزجاجات وصدرت الى أوروبة وبدأ تصنيعها هناك مع المحافظة على تسميتها بالنمط الدمشقي (جنوى مثلاً)

السيراميك (الخزفيات ـ الصيني)

لقد عثر على أفران عند أبواب المدينة تؤكد النشاط الواسع في صناعة الخزفيات في دمشق منذ أقدم العصور وتوجد قطع من هذه الصناعات تعود الى القرن العاشر مثل القدح (الكوب الفاطمي) الموجود في اللوفر والآنية المزخرفة ذات الغطاء الأزرق. مشاغل الصيني (الخز المزخرف) نشطت في عهد المماليك وصنعت قطعاً بيضاء رائعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر عرفت مشاغل الصيني الدمشقية قمة نشاطها وشهرتها وتميزت ألوان زخرفتها بغياب لون الطماطم الأحمر (البندورة) فظل الأزرق هو الغالب وزخرف النباتات والأزهار رُكز على البنفسج والخيار . والأبيض والأخضر المظلم (الرمادي) . . (أعواد الصليب ـ الرمانات مثلاً البلاط المربع . . .)

الفنون المعدنية :

اشتهرت دمشق بتقنية عالية بترصيع الأدوات المعدنية بالذهب والفضة أو تغطيتها بقشرة رقيقة منها ومن دمشق انتقلت الى طوارن والهند ـ هناك أشياء من الحديد مثل الخوذة الدمشقية الذهبية للسلطان (بارسباي) وتأتي الأدوات البرونزية النحاسية المرصعة أو المغطاة كذلك بالفضة وهي دمشقية بالأصل. في القرن الثالث عشر بدأ الزخرف يمثل أشخاصاً وحيوانات متأثرة بفنون ما بين النهرين ثم

المزهريات والأزهار الدمشقية وأبدعت صنوف من السيوف صفيحته مزيج من الحديد والفولاذ المموج الملمع بالمزيج المصهر إياه دمشقته وترصيعه بالذهب وتسمية السيف الدمشقي كانت دائماً المرادف للنوع الممتاز من السيوف .

فن النسيج :

اشتهرت دمشق بمنسوجاتها الحريرية وبخاصة «البروكار» الذي داخلته حبكة ذهبية المسمّى «دمقس» والاسم ذاته يطلق على نسيج من الحرير أو الصوف مصنوع بنفس الخيوط ونفس اللون مع تشبيك وتعقيد يشكل رسوماً معينة وحتى أيامنا ما زال البروكار يحل اسم دمشق وإن كان حريره أصبح اصطناعياً ولا بدَ أيضاً من الإشارة الى البياض المدمشق ذي الرسوم المزرودة أو تكونها اللحمة ذاتها وقد قلدت بعض هذه الصناعات في نيقوسية وعرفت باسم «دمقس قبرص» كما صنعت في البندقية البسط المعروفة باسم سجاد دمشق رسومه وديكوراته الهندسية . ويبدو أن البسط والسجاد المذكور قد نسجت في مصر على النمط السوري لا الدمشقي لأنه لم يعرف أن الصناعة إياها انتشرت قبلاً في دمشق بالذات .



دمشق
في
موسوعة لاروس

دمشق ، عاصمة سوريا ، مبنية على ضفاف نهر بردى وعلى سفح جبل قاسيون ، من سلسلة جبال لبنان الشرقية ٥٥٦٢٠٠ دمشقي منهم ٥٠ ألف مسيحي ،دمشق قائمة على المحدود الغربيةلبادية الشام، وسط الغوطة، الواحة التي تسقيها الأنهار والجداول المتفرعة من بردى ، والتي توزع المياه الى البساتين والحدائق والمروج وبساتين الزيتون والخضروات :- المدينة القديمة التي حفظت الأسواق المنوعة والممتدة نحو الجنوب الى الطريق المؤدي الى مكة المكرمة (حارة الميدان) وعلى امتداد بردى ضمن المدينة (حارة العمارة) والى الشمال الغربي (الصالحية) والى الغرب الى الحي الجديد أبو رمانة .

إن صناعة الأسلحة البيضاء والجلود لم يبق لهم أثر تقريباً . ولكن العديد من الحرف للمدينة القديمةوالميدان تعمل حتى الآن ، كالسجاد والعطور والأواني النحاسية والخشبية . كما قامت بعض الصناعات الحديثة منذ وقت قريب : كالزيوت والأسمنت والزجاج وصناعات النسيج والأحذية .

وهي المنفذ لطرق بيروت وحلب وعمان وبغداد ومتصلة بالسكك الحديدية بحلب وبيروت . دمشق هي مركز تجاري هام جداً .

عاصمة الدولة الأموية ، هي من المدن المقدسة الإسلامية : وهي ما برحت مقصد الأعراب القادمين من الصحراء ، المتميزة بمساجدها التي تزيد عن مائتين ضمن واحة خضراء .

---

(١) ترجمة عن الفرنسية .

(1) Grand Larousse Encyclopédique Paris. 1960- 1964.

إن محافظة دمشق تمتد الى أواسط سورية ، عدا جبل الدروز ويبلغ تعدادها ١٠٢٢١٠٠ ساكن .

إن هذه المدينة ، تعتبر واحدة من أقدم مدن آسيا (دمشق بالآرامية) ، قام الملك داود بإرسال حملة وأخضعها لبعض الوقت وحكمت بعد ذلك من السلالات المحلية الآرامية الى أن خضعت لحكم الآشوريين (٧٣٢) ق . م ثم لخلفاء الاسكندر وحوالي سنة ٦٤ ق . م خضعت للحكم الروماني . وأضحت مسيحية في عهد القديس بطرس ، الذي مشى في الطريق المستقيم (سوق مدحت باشا) وبعدها أضحت حاضرة مسيحية .

وقد عانت كثيراً من غزوات الرومان والفرس الى أن فتحها المسلمون العرب عام ٦١٥ .

وهي مدينة تعرف في البلاد العربية بالجنة وأضحت عاصمة لكثير من الخلفاء وخاصة بين أعوام ٦٦٠ و٧٥٠ وبعد ذلك أضحت دمشق عاصمة لكثير من الأمراء المستقلين حيث كثرت بها الثورات والغزوات .

الصليبيون لم يتمكنوا منها عام ١١٤٨ م ولكنها وقعت في أيدي مغول وتيمورلنك الذي استولى عليها عام ١٤٠١ ،كما حكمها مماليك مصر: فالسلطان سليم الأول عام ١٥١٦ وحيث أضحت بعد ذلك خاضعة للدولة العثمانية حتى عام ١٩١٨ باستثناء الفترة التي حكمها محمد علي باشا ١٨٣٢ - ١٨٤٠ .

في ٣٠ أيلول ١٩١٨ سقطت دمشق بيد الجنرال النبي وأضحت عاصمة للأمير فيصل الذي شاء أن يحكمها بالرغم من معارضة الفرنسيين ذلك ، لينشىء بها مملكة واسعة وبمساعدة لورانس نودي بفيصل ملكاً على سوريا في ٨ / ٣ / ١٩٢٠ . ولكن في نفس العام قرر مؤتمر سان ريمون إعطاء فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان . وبعد إنذار وجهه الجنرال غورو لفيصل سقطت المدينة بيد القوات الفرنسية بقيادة غورو ، في ٢٥ تموز ١٩٢٠ . وقد بقيت دمشق خلال فترة الانتداب الفرنسي عاصمة لدولة سوريا، وقد عاشت في تشرين أول ١٩٢٥ ثورة عارمة ابتدأت من جبل العرب وحتى دمشق وفي عام ١٩٤١ بعد

انسحاب القوات الفرنسية بقيادة دانز ، أضحت دمشق مركزاً لقوات فرنسا الحرة ، وفي أيار ١٩٤٦ انسحبت القوات الفرنسية نهائياً من المدينة .

الفنون الجميلة :

في دمشق أقام المسلمون أول نصر معماري ، حينما أعادوا بناء الجامع الأموي الكبير في زمن الوليد (٧٠٥ ـ ٧١٥) في مكان معبد جوبيتر والقديس يوحنا المعمدان) . في الجدار الجنوبي المكون من ثلاثة أقسام متوازية يشاهد أثر البناء القديم) . وبعد خمس حرائق ما زالت الفسيفساء ظاهرة بوضوح على الصحن الكبير للجامع ، وبالإضافة الى الجامع الأموي الكبير الذي يعتبر من آثار الفنون الإسلامية الهامة ، دمشق تحتفظ بعدة أماكن هامة تدل على حضارتها ، وإبرازها المدارس والمستشفيات [١] والتي احتوى قسم منها قبور منشئيها . وفي زمن صلاح الدين ١٢٦٠ ـ ١٥١٤ أقام فيها بعض المنشآت العسكرية بالإضافة إلى العديد من المساجد . وفي العهد العثماني انشأ السلطان سليم التكية المعروفة باسمه عام ١٥٢٠ .

★ ★

(١) يقصد البيمارستان النوري الذي انشأه نور الدين زنكي .

دمشق في الموسوعة السوفييتية الكبرى
صادرة في موسكو عام ١٩٧٢

دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية ، وتعتبر من أقدم المدن العالمية ، ومن أهم المراكز التجارية والصناعية والنقدية والثقافية . وتعتبر عقدة مواصلات عربية ودولية لما يمتاز به موقعها الاستراتيجي الهام في منطقة الشرق الأوسط .

تقع دمشق على ضفاف نهر بردى ، ويحاذيها من الشمال عدة جبال وهضاب ، وأهمها جبل قاسيون الذي يطل عليها من الشمال بارتفاع قدره ٦٩٠ م .

يسود دمشق مناخ شبه استوائي ، متوسط درجة الحرارة في كانون الثاني في دمشق وضواحيها ٧ ـ ٨ درجة ، وفي تموز ٢٦ ـ ٢٧ درجة . ويبلغ متوسط الأمطار التي تسقط في دمشق ٢٢٧ مم في السنة . ويبلغ عدد سكان دمشق حسب احصاءات ١٩٧٠ ما يقارب من ٨٣٥ الف نسمة ، بينما كان عدد سكانها عام ١٩٥٠ ما يقارب من ٣٠٣ آلاف نسمة ، وأغلبية السكان فيها من العرب ، وتوجد أقليات كردية وأرمنية وغيرها .

جاء أول ذكر لدمشق في التاريخ في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، ومنذ نهاية القرن الحادي عشر ـ بداية القرن العاشر . وحتى العام ٧٣٢ قبل الميلاد كانت دمشق مركزاً حيوياً لبلاد الشام بمجملها ، ثم أصبحت فيما بعد مركزاً حضارياً للدولة الآشورية ، وكذلك للبابليين ، ودولة الحمورابيين ودولة الاسكندر المقدوني ، والامبراطورية الرومانية . ومنذ نهاية القرن الرابع للميلاد وقعت دمشق تحت سلطة البيزنطيين . وفي عام ٦٣٥ تم فتح دمشق ضمن الفتوحات العربية الاسلامية . وفي فترة ٦٦١ ـ ٧٥٠ أصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية .

وخلال هذه الحقبة تطورت دمشق تطوراً ملحوظاً وسريعاً حتى أصبحت تعد من أهم المراكز الهامة في العالم العربي وخاصة في المجال العلمي وبعد تكوين دولة الخلافة العباسية نُقل مركز الخلافة العباسية الى الأنبار ، وفي عام ٧٦٢ الى بغداد ، وبقيت دمشق المدينة الرئيسية الأولى التي تحمل اسم منطقة بلاد الشام . وفي القرن التاسع للميلاد ، وقعت دمشق تحت سلطة الطولونيين . وفي القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر اصبحت مركزاً للفاطميين . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر للسلطة السلجوقية . وفي القرنيين الثاني عشر والثالث عشر مركزاً لسلطة الأيوبيين . وفي عام ١٢٦٠ احتلت دمشق من قبل المملوكيين . وفي ١٤٠١ احتل الجيش المغولي بقيادة تيمورلنك دمشق . أما في فترة حكم المماليك (القرن الثالث عشر ـ القرن السادس عشر) أصبحت دمشق مركزاً هاماً للتجارة وللصناعات الحرفية (الأنسجة ، الأسلحة الباردة ، المزخرفات وغيرها) .

وأصبحت دمشق دعامة هامة من دعائم الأسلام ، ومنذ عام ١٥١٦ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وقعت دمشق تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية ، وفي فترة ١٩٢٠ ـ ١٩٤٦ كانت دمشق مركز سلطات الانتداب الفرنسي المفروض على سورية . وفي الوقت ذاته أصبحت دمشق مركزاً هاماً من مراكز النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي وخاصة خلال الانتفاضة السورية الكبرى في عامي ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ . وشغلت سورية مركز القيادة في حركة التحرر الوطني في الثلاثينات والأربعينات . ومنذ عام ١٩٤٦ اصبحت دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية المستقلة .

وفي دمشق نمت وتطورت الصناعات الغذائية (السكر ، تخمير البيرة ، وصناعة الشوكولاتة ، والحليب ، والتبغ) وكذلك الصناعات العادية مثل الصناعات النسيجية ، والزجاجية والاسمنت ، وكابلات الكهرباء ، والأدوية ، والتلفزيونات وغيرها من الصناعات الحرفية (أدوات الزينة الذهبية ، والفضة ، والنحاس ، والأخشاب ، والجلود ، والديباج ، والسجاد) .

تتصل دمشق بالعديد من مدن وعواصم العالم وخاصة عواصم ومدن العالم العربي من خلال الطرق الحديدية وطرق السيارات ، والخطوط الجوية .

توجد في دمشق الآثار الغنية والقديمة جداً ، وكذلك آثار القرون الوسطى ، والأبنية المعمارية ذات الطابع الشرقي . كما توجد وحتى الوقت الحاضر الأحياء الأثرية القديمة ، والشوارع ذات الطابع الشرقي القديم منذ القرن الرابع وحتى القرن الأول قبل الميلاد . وتوجد الآثار الرومانية ، وبعض أجزاء الجدار القديم الذي كان يحيط بمدينة دمشق القديمة في القرن الثاني عشر ، وتوجد البوابات الأثرية ، وفي دمشق يوجد الجامع الأموي الأثري الكبير والشهير بأعمدته وفنه المعماري رفيع المستوى . والذي تعرض إلى كثير من التخريب بالتهديم أم بالحرائق وأعيد ترميمه واصلاحه عدة مرات . كما توجد مستشفى نور الدين (البيمرستان) المبنية عام ١١٥٤ م ، والمدرسة النورية المبنية عام ١١٧١ ، ومدفن صلاح الدين (القرن الثاني عشر) والمدرسة العادلية (١٢٢٢) والظاهرية (١٢٧٧) . والكثير من المآذن والبوابات التي بنيت خلال ثلاثة قرون (القرن الثاني عشر - القرن الخامس عشر) ، وقصر العظم (١٧٤٩) ، وجامع التكية السليمانية (١٥٥٤) وقصر سنان ، والدرويشية (١٥٧٤) وكذلك الكثير من الآثار في القرون الوسطى ، وبقيت من القرون الوسطى بعض الأسواق المسقوفة والتي بنيت في القرن التاسع عشر مثل سوق الحميدية ، وسوق الأروام ، وكذلك الحمامات الدمشقية القديمة . وفي القرن العشرين اتسعت دمشق وتطور فن البناء الحديث فيها تطوراً سريعاً ، ومن الأبنية الهامة فيها أبنية الجامعة ، وفندق الشرق اوريانت بالاس (١٩٣٢) للمعماري أ . ثابت . ووزارة الدفاع ، والمصرف المركزي ، ومساكن طلبة الجامعة (١٩٦٨ - ١٩٦٩) .

وفي دمشق توجد جامعة ، والمعاهد الزراعية ، والمتوسطة والمعهد الشرقي للموسيقى ، والمدرسة المهنية العليا ، والأكاديمية الدمشقية والمجمع العلمي العربي ، والأكاديمية العربية (المدرسة العدلية) ، (مجمع اللغة العربية) والمكتبة الوطنية (الظاهرية) (وفيها أكثر من ٦٣ ألف كتاب) ومكتبة الجامعة (فيها أكثر من ٦٠ ألف كتاب ، والمتحف الوطني ، وقصر العظم (متحف التقاليد الشعبية) والمتحف الحربي ؛ والمسرح القومي الفني ، ومسرح العرائس واستديوهان للتصوير السينمائي ، وخاصة لاخراج الأفلام الوثائقية ، والكثير من صالات السينما والمراكز الثقافية .

ملحوظة :

تحتوي الموسوعة السوفييتية الكبرى على الكثير من الصور التوضيحية عن آثار ومعالم دمشق ، كما تحتوي على خارطتين للمدينة تبين عليها الأحياء والشوارع ، ومراكز الآثار الهامة .[١]



(١) اشكر الدكتور ماجد علاء الدين لتفضله بترجمة هذا النص عن اللغة الروسية.

دمشق في الموسوعة الألمانية ـ ماير

دمشق هي العاصمة والمركز الرئيسي للمحافظة التي تحمل الاسم نفسه . ترتفع ٦٩٠ م عن سطح البحر وتقع عند السفوح الشرقية لجبال لبنان الشرقية . ويبلغ عدد سكانها ٥٨٤٢٢٦ (وفق تعداد عام ١٩٦٧) وهي مركز تجاري واقتصادي ومواصلات في الشرق الأوسط . وتنتج الأسمنت والنسيج والزجاج والمعلبات والمواد الصيدلانية والمنتجات الفنية اليدوية التقليدية (نسج الحرير والسجاد) بالاضافة الى المصنوعات الجلدية والمعدنية . وهي عقدة مواصلات السكك الحديدية (الخط الحجازي ـ الخط الحديدي الى بيروت) . وثمة خط مواصلات دائم بالباص عبر الصحراء الى بغداد . ويوجد في دمشق مطار وأهم معرض في الشرق الأوسط ، وفيها مركز الأكاديمية العربية (أسست ١٩١٩) ـ مجمع اللغة العربية ـ ومنها الجامعة السورية (أسست ١٩٢٤) وفيها مدارس عليا لتدريب وتأهيل المدرسين ومتحف وطني وجوامع (منها الجامع الأموي) وسور المدينة المليء بالأبراج . وتقع دمشق داخل واحة مروية (الغوطة) ـ (٣٠,٠٠٠ هكتار اراضي مروية) تستفيد من مياه بردى . وفيها زراعة الخضار والفواكه وثمار الحبوب والتمر والزيتون والورود .

وفي المناطق الواقعة عند حوافي المدينة تزرع الحبوب والذرة والعنب . ودمشق مستوطنة منذ اقدم العصور ، وواقعة عند تقاطع عدة طرق للمواصلات . وذكر اسم المدينة في الكتابات المصرية القديمة من القرن ١٥ و ١٤ قبل الميلاد . وتعرضت في الفترة الواقعة بين القرن ١٥ ـ ١٣ لهجوم المصريين والحثيين . وكانت منذ القرن الثاني عشر مركزا للدولة الآرامية (آرام) وفي عام ٧٣٢ احتل الملك الآشوري تغلات بلاتزر الثالث دمشق وفي العام ٥٣٩ خضعت دمشق للفرس ، ثم خضعت لامبراطورية الاسكندر في عام ٣٣٣ واحتلها الرومان في عام ٦٤ ق . م ثم سقطت

في عام ٣٩٥ في ايدي الامبراطورية الرومانية الشرقيـة . واحتلها العرب في العام ٦٣٥ واصبحت من ٦٦١ حتى ٧٥٠ مركزا للخلفاء الأمويين . ثم تراجعت لتصبح عاصمة للاقليم تحت حكم العباسيـين . وبعد نهايـة الخلفاء العباسيـين خضعت دمشق للمصريين (الطولونيين والفاطميين) وبعد عام ١١٠٠ اصبحت مركزا لسلالة السلاجقة . وعاشت تحت حكم نور الدين (السلجوقي) منذ عام ١١٥٤ ـ وتحت حكم خلفه صلاح الدين الأيوبي (١١٧٤ ـ ١١٩٣) حقبة جديدة من الازدهار . واصبحت بعد صد المغول (١٢٦٠ ـ ١٥١٦) على أيـدي المماليك المصريـين .

وخضعت دمشق منذ ذلك الحين وحتى ١٩١٨ للحكـم التركـي الأجنبي ، بغض النظر عن احتلال محمد علي حاكـم مصر لها (١٨٣٢/ ١٨٤٠) . واصبحت منذ منتصف القرن التاسع عشر ـ الى جانب بيروت ـ مركزا لحركة القومية العربية في الشرق . وفي تشرين الأول ١٩١٨ احتلت القوات البريطانيـة دمشق . وفي عام ١٩٢٠ اصبحت دمشق عاصمة منطقة الانتداب الافرنسي بسورية ، وتعرضت في عام ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وبعد ثورات وطنية لاضرار بالغة من القصف الفرنسي لها . وأصبحت دمشق منذ عام ١٩٤٦ عاصمة سورية .

ويوجد في الموسوعة صورة ملونة لمدينة دمشق وصورة ثانية لمظاهرة جماهيرية في دمشق ضد السياسة الاستعمارية البريطانية في جنوب البلاد العربية (تشرين الأول ١٩٦٥) .

اسم الموسوعة : ماير الجديدة في ١٨ مجلدا طباعة معهد البيبليوغرافيـا ـ لايبزيـغ ـ ١٩٧٢ ورد اسم دمشق في المجلد الثالث[1] .

---

(1) Meyers Neues Lexihor lin 18 Banden 1972 VEB Bibliographisles Institut- Leipzig Band 3

(١) اشكر الانسة نوال حنبلي لتفضلها بترجمة هذا النص عن اللغة الألمانية .

الفهرس